كتب غيرت الفكر الإنسانى

الجزء الثالث

أحمد محمد الشنوانى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

كتب غيرت الفكر الانساني

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام
د. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير
أحمد صليحة

سكرتير التحرير
عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى
محسنة عطية

الفهرس

اهداء ..

الى السراج المنير الذى كان يضوء لى الصراط المستقيم
الى الذى هدانى الى طريق العلم والمعرفة والإخلاص والدين ..
الى روح والدى ...
اعترافا بفضله وتقديرا له ..

احمد محمد الشنوانى

مقدمة

ان المعرفة هى محرك التقدم • ووعاء المعرفة الكتاب • والسبيل الى المعرفة هى القراءة • لقد اتفق رأى العلماء على أن يقسموا حياة البشر على سطح الأرض الى فترتين ، فالفترة الأولى امتدت عشرات الألوف من السنين ، ويطلق عليها اسم ما قبل التاريخ • أما الفترة الثانية فلا يعدو عمرها الآلاف القليلة وهى وحدها التى يتكون منهـــا التاريـخ ، والحد الفاصل بين التاريخ وما قبل التاريخ ، الحد الفاصل بين الحضـــارة وما قبل الحضارة على نطاق الأرض كلهـا بشعوبها وأجناسها وأجوائها المتعددة والمتنوعة ، ليس موقعة حربية عظمى ، وليس مولد امبراطورية أو انهيارها ، وليس حدثا طبيعيا مهما كان ، وانما هو حدث حضـــارى محض : اكتشاف الكتابة ، أو بعبارة أخرى اكتشاف القراءة •

والدلالة الحضارية لاكتشاف الكتابة دلالة ذات أبعـــاد ضـخمة ومتعددة ، انها تمثل بحق بدء مرحلة حضارية مختلفـة جوهريا عن كل ما ســـبقها •

بالكتابة والقراءة أصبحت المعرفة البشرية سجلا عظيما ، طالعتـه عبر التاريخ شعوب عديدة ، كان لبعضها فضل تسطير صفحات منـه • أخذ اليونان عن حضارة مصر والشام وما بين النهرين بل فارس والهند ، ثم أثروا هذا التراث فى عبقرية ، وكانت مدينة الاسكندر هى البوتقـة التى انصهر فيها كل ذلك وخرج منها أعظم ما خلفه لنا العالم القديم • ثم أخذت روما عن مدرسة الاسكندرية وزادت على ما أخذت ونشرت تلك الحضارة فى حوض البحر الأبيض كله • ثم دخل العرب تاريخ البشرية كشعب يتميز بقدرة فائقة على تمثل الحضارات وهضم الثقافات يبنى حضارة تمتزج فيها الشعوب فى ظل مساواة لم يعرفهـــا مجتمع قبله فينشط الجهد الثقافى ويزدهر البحث العلمى • ومن تعاليم الاســـلام وثقافة اليونان وفارس والهند يقدم العرب كنوزا جديدة من المعرفة •

والامر الغريب الذى ينبغى أن نتأمله هو أن ثقافة اليونان التى لعبت دورا عظيما فى تقدم الفكر والبحث عند العرب كانت فى خزائن بيزنطة التى أخذت دولتها فى الانهيار • وعندما سقطت مدينة قسطنطين فى يد محمد الفاتح ووفد علماؤها بمخطوطات الاغريق الى أوربا ، كانت هذه الثروة الفكرية هى الراد الثقافى الذى ترعرع عليه عصر النهضة ، وليس أدل على ذلك من أن الثقافة اذا ظلت محفوظة لدى قلة بمعزل عن حركة المجتمع فانها لاتغنيه ولا يغنيها ، بل تبقى كأحجار كريمة فى جوف قبر يعلوها التراب •

اذن فالكتب هى التى أضاءت طريق الانسان ، منذ عرف نور العلم والمعرفة باعتبار أن هذا الانسان يتميز بالعقل ، وباعتبار انه يستفيد من ثقافته بقدر ما يستفيد من خبرته ، ولذلك فان الكتاب يعد تراثا انسانيا لاتقف فائدته عند حدود ، فالثقافة لاتحبس داخل الحدود الجغرافية ولا تختص بها أمة دون أخرى ، وانما هى موجات فكرية تظهر وتختفى ، ثم تتلوها موجات أخرى متداخلة ومتسقة •

والكتب العظيمة فى حياة الانسان ، كالأحداث العظيمة ، لا تأتى بموعد مسبق ولا يرتبط ظهورها بزمان ولا مكان محددين ، وانما هى فلتات تجود بها الحياة كلما أراد الله وأضاء وجه الحياة عباقرة العقول والمواهب شرقا وغربا •

فنجد فى حياة الانسانية عددا من الكتب العظيمة التى كان لها أعظم الأثر على مسيرة الحياة والانسان والتاريخ والثقافة والفكر والعلم والمدنية ••

والكتب الرائدة فى التراث الفكرى العالمى كتب كثيرة ومتنوعة ، ففى أى فرع من فروع التأليف فى الفكر الانسانى نجد كتبا عظيمة كان لها فضل الريادة فى ميدانها على مدى التاريخ الانسانى الطويل •

ورغم أهمية هذه الكتب ، الا أنه من النادر أن تجد شخصا قرأها جميعا ، وذلك لصعوبة الحصول عليها مجتمعة ، أو لندرة طباعتها أو •••

ولذلك •• فبعد أن قدمت الجزءين الأول والثانى من هذه السلسلة « كتب غيرت الفكر الانسانى » وتلقاهما القارىء بالقبول ، فقد واصلت الرحلة فى عالم الكتب فى الفكر والأدب وجميع فروع العلم والمعرفة ••• واننى اذ أقدم اليك عزيزى القارىء الجزء الثالث من هذه السلسلة لتكمل فيها عصارة أربعين كتابا من أهم ما قدم عباقرة العلم والسياسة والاقتصاد والقانون والفلسفة والأدب والتى أثرت تأثيرا عظيما فى الفكر

الانســانى على مــر العصــور والتى تعد بحق من الأعمدة فى الحضــارة الانســـانية ٠

وكما قلنــا سابقا ان الغرض من هذه السلسلة هو توضيح القوى العاتيـــة للكتب وللكلمة المطبوعة على التقــدم البشرى وذلك عن طريق مناقشة امثلة معينة ٠ ولم يكن فى نيتنا تقديم « قائمة » باحسن الكتب أو أعظم الكتب ، ولكن كان هدفنا هو اكتشاف الكتب التى كان لها أعظم الأثر وأعمقه على الفكر الانسانى منذ أقدم العصور الى يومنا هذا ٠

وما أردت الا الخير وعلى الله قصد السبيل ٠

المؤلف

الإليـــادة

هوميروس

ح ٩٠٠ ق.م

● لم يحتل شـــاعر ولا علم من أعلام الأدب فى جميع العصـــور التاريخية مكانة فى حيـــاة شعبه كمكانة هوميروس · فهو الرمز الأعلى للوطنية ، والمصور الموثوق للتاريخ اليونانى القديم ، وهو أحب الشعراء الى قلوب اليـــونان ، وأعظـــم من يستشهدون بأشــــعاره · وقد أخبر « أفلاطون » أن من بين الاغريق من يعتقدون اعتقادا راسخا ان هوميروس : « يستحق ان ينظر اليـــه كمعلم فى مجـــال ادارة الشئون الانسانية وتهذيبها ، وأن على المرء ان ينسق حياته كلها مترسما خطى هذا الشاعر »· كما أن لأشعاره آثارا بالغة فى الأدب والثقافة والتربية ، حتى أصبح ينظر اليها على انها أساس للأخلاق ، ومعين للعلم والمعرفة ، واكتساب للبلاغة ، ومقياس للنقد الأدبى ، فقد عنى هوميروس بتهذيب أساليبه ، وتنقيح فنونه حتى بلغ بشعره أرفى شأن أمكن بلوغه فى تلك العصور · وتمثل ذلك بجـــلاء فى ملحمتيه الخالدتين « الالياذة » و « الأوديسا » اللتين حصل بهما هوميروس على لقب « صاحب أعظم الملاحم البطولية فى التاريخ» وهما قصتان شعريتان طويلتان احتلتا مقاما مرموقا فى الآداب العالمية ·

من هو هوميروس ؟

ولو أردنا أن نجيب على سؤال « من هو هوميروس ؟ » ما استطعنا ان نجيب بأكثر من أن هوميروس هو « مؤلف الالياذة » !!

فما زالت حياة هوميروس أسطورة كلما حاول العلماء فهمها تاهوا فى تفاصيلها ، وكلما أرادوا دراستها تشعبت أبحاثهم ، وتعددت آراؤهم، ولم يتفقوا على شىء · ومع انهم كتبوا عن شاعر الاليـــاذة من المؤلفـــات مالم يكتبوه عن أديب آخر فان أبحاثهم عن حياته ونشأته مازالت مملوءة بالفروض والاحتمالات ·

فأين ولد هوميروس ؟ ومتى ؟ ومن أى سلالة انحدر ؟ هل هو سليل الآلهة ؟ ابن بوسيدون رب البحار ؟ أم ابوللون ، اله الشعر والغناء ؟ وهل كانت أمه ربة ربات الشعر أم حورية من حوريات الماء أم امرأة كسائر الأمهات ؟ وهل كان ضريرا لايبصر ؟ أو كان مبصرا فى أوائل أيامه ثم فقد بصره ؟ أو كان ضعيف البصر طول حياته ؟ وأين فضى أيامه وكيف ؟ وهل فضل منطقة من بلاد اليونان وأقام بها أم طاف فى أرجائها وقصد كثيرا من مدنها ثم عاد الى مدينة أزمير « سمورنا » ونظم الالياذة والأوديسا وبعض القصائد الهزلية مثل « الغبى المغـــرور » و « حرب الضفادع » و « حرب النيران » ؟

وبأى أرض مات ؟ هل مات بجزيرة ايوس أم فى مكان غيرها ؟

هذه أسئلة لانعرف لها جوابا صحيحا لأن هوميروس فى أشعاره لزم الصمت ولم يذكر عن نفسه شيئا ، ولم يحدثنا عن نشأته كما فعل غيره من شعراء زمانه ، فأخذ العلماء ينسجون حوله الروايات ويحيكون القصص وكثرت هذه وتلك ، واختلفت اختلافا شديدا فيما تضمنته من سير وأنباء ، ولكن مهما تضاربت آراء النقاد القدماء ، فاننا نستطيع أن نستخلص منها شيئا عن حياة هوميروس ونشأته . وهذه أهم الحقائق التى يمكن أن نستنتجها من المعلومات التى أجمعوا عليها .

يبدو أن هوميروس ولد من أبوين مغمورين فى احدى المدن الأيونية بآسيا الصغرى ، ثم أظهر فى صـــباه ميـلا لسماع القصـائد وحفظ الأناشيد ، وفى سن الشباب بدأ يتغنى بأشعاره فلم ينل اعجاب سامعيه الذين أعرضوا عنه ولم يشجعوه ، فذاق مرارة الفقر . وعنـدما اتقدت قريحته ، ونبغ فى انشاد الشعر ، ذاع صيته وتسابق الأثرياء الى دعوته للاقامة فى قصورهم والتغنى بأســـلافهم ، وتنافست المدن فى اجـلاله وتكريمه لما فى أشعاره من تمجيد لابطالها واشادة بماضيهـا . وهكذا أتيحت له فرصة لزيارة كثير من البلدان ، ودراسة معتقداتها والوقوف على أحوالها ، ومعرفة عادات أهلها ، فكانت مصدرا للمعلومات التى تفيض بها قصائده .

ولعل ضخامة انتاجه وطول ملاحمه يحملنا على الاعتقاد بانه عاش زمنا طويلا ومات فى شيخوخته بجزيرة ايوس التى أجمعت الروايات على انها كانت تفتخر بوجود قبره فيها .

أما عن عصره ، فقد ذهب القدماء فيه ثلاثة مذاهب ، فقال هيكاتيوس، أول مؤرخى اليونان ، بأن هوميروس عاصر الحرب الطروادية التى وصف

حوادثها أى انه ازدهر فى منتصف القرن الثانى عشر قبل الميلاد · ولكن هيرودوت (١) خالفه فى ذلك ، وأكد أن شاعر الالياذة ظهر قبله بما لا يزيد عن أربعة قرون أى فى منتصف القرن التاسع ق·م ، ثم جاء السفسطائى المشهور ثيوبوميوس (القـــرن الرابع ق·م) وجعله معاصرا للشـــاعر الهجائى أرخيلوخوس الذى ذاعت شهرته فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد · وازاء هذا الاختلاف كان من الطبيعى أن ينقسم المحدثون على أنفسهم وأن يعتنق كل منهم رأيا من الآراء الثلاثة ، ويعمل على تاييده فى ضوء الاكتشافات الحديثة ·

لكن آخر الأبحاث وأدقها أيدت رأى هيرودوت · فلغة هوميروس هى لغة القرنين التاسع والثامن ق·م وليست لغة العصر الموكينى التى كانت ضاربة فى القدم ، وكانت تحتوى كلمات عتيقة وألفاظا نادرة ، وعبارات غير مألوفة ، ولا هى لغة الشعر الغنائى التى كانت تفيض حيوية وتمتلىء حركة لتوافق الألحان الموسيقية ، وتعبر عن مختلف العواطف الحياشة والانفعالات القوية ·

عاش هوميروس اذن فى أواخر القرن التاسع ق·م بعد انتهاء حرب طروادة وقبل ازدهار الشعر الغنائى بقرون ، فاعتمد فى وصفه لحوادث هذه المعركة على الروايات التى سمعها ، والآثار التى شاهدها فى ربوع اليونان ، ثم وصف هذه الأحداث فى لوحـات تصور المجتمع الذى عاش فيه ، والحضارات التى عاصرها · فسجل لليونان حياتهـم فيما بين القرن الثانى عشر وأوائل الثامن قبل الميلاد · وعرضها فى قالب قصصى واسلوب روائى يجمع بين الحقيقة والخيال ·

المشكلة الهومرية

لما كان نقاد اليونان منذ بداية القـرن الســـابع قبل الميلاد كانوا ينسبون الى هوميروس عددا من القصائد غير الاليـاذة والأوديسا ، لكن شعراء الاسكندرية وعلماءها عكفوا على دراسة الأشعار الهومرية وتحقيقها وقرروا ، بعد بحث دقيق ، أن شاعرنا لم ينظـم الا الملحمتين العظيمتين ولم يخرج على هذا الاجماع الا فئـــة قليلة كانت تدعى بـأن هوميروس لم ينظم الا الالياذة ، وان الأوديسا كانت من نظم شاعر ــ أو شعراء ــ غيره · ولكن يظهر أن هذه الجماعة لم تستطع تأييد دعواها بأدلة قوية فكان من السهل على أريستارخوس ، أشهر نقاد الاسكندرية ، تفنيد رأيها واخماد صوتها ، فلم يعد يسمع به أحد فى العالم القديم ·

فاعتمدوا على بعض العبارات المتناثرة فى مؤلفات اليونان ليؤيدوا نظرية هؤلاء الذين سبق أن نادوا بفصل الالياذة عن الأوديسا ، وما ان تحددت هذه الدعوى فى القرن السادس عشر حتى انقسم المحدثون على أنفسهم وتعددت مدارسهم وتضاربت آراؤهم ، فظهرت فى الأدب اليونانى ، مشكله خطيرة ، كانت ومازالت موضع أبحاث عديدة ، وموضوع كتب بأكملها ، وأصبحت تعرف فى هذا الأدب بالمشكلة الهومرية ٠

ولقد قامت هذه المشكلة على اعتراضين رئيسيين ٠ أولهما انه ليس من الممكن ان يبدأ الأدب اليونانى بهاتين الملحمتين الرائعتين ، وليس من المعقول أن تخرجا من العدم دون أن تسبقهما ملاحم أخرى رجع اليها هوميروس وأفاد منها فى نظم أشعاره : ثانيهما آن خصائص كل من الملحمتين تدل على انهما عملان مختلفان ألفهما شعراء مختلفون وأن كلا منهما وحدة مستقلة رغم ما تضمنه من مقطوعات مفككة وفقرات متناقضة ٠ ومن هنا بدأ المحدثون دراستهم ، وأخذوا فى البحث عن مختلف الأدلة يدعمون بها رأيهم ٠

ويعتبر « فولف » أستاذ الدراسات اليونانية بجامعة « هل » الألمانية أول من اهتم بدراسة هوميروس دراسة علمية دقيقة وأول من خلق المشكلة الهومرية فقد نشر فى عام ١٧٩٥ كتابه القيم المعروف باسم « مقدمة فى دراسة هوميروس » قرر فيها أن الأشعار الهومرية نظمت فى القرن العاشر قبل الميلاد عندما لم تكن الكتابة معروفة أو على الأقل غير مألوفة فى تدوين الأعمال الأدبية ثم انتقلت هذه الأشعار من جيل الى آخر عن طريق الرواية الشفوية واعتراها بعض التغييرات ، ولم تدون الا فى أيام الطاغية المستنير بيسستراتوس (٦ ق٠م) الذى أمر النقاد بتحقيقها وتصحيحها ، فقاموا بما أمروا به وأدخلوا عليها كثيرا من التعديلات ولذلك يضيف فولف قائلا : ان الوحدة الفنية فى الملحمتين لم تكن موجودة منذ نشأتهما ، انما اكتملت تدريجيا على مر الزمن بفضل الاضافات والتعديلات التى أدخلت عليهما ، وينتهى من ذلك الى ان الوحدة الفنية أظهر فى الأوديسا منها فى الالياذة ، وان الملحمتين ليستا من نظم شاعر واحد ، وانهما أول الأمر لم تكونا فى صورتهما الحالية بل كانتا أقصر من ذلك بكثير ثم أخذ المنشدون يضيفون اليهما مقطوعات جديدة حتى بلغتا هذا الطول ٠

من علماء الألمان وأدبائهم ، ولكن سرعان ما اختلفوا فيما بينهم فى التفاصيل بما أدى الى اضعاف هذه النظرية التى لم تستطع الصمود أيضا أمام نتائج الكشوف الأثرية الأخيرة • فقد ثبت منهـا أن الكتـابة كانت معـروفة ومستعملة على أيام هوميروس ، بل قبله ، وهكذا تهدم الجانب الأساسى فى الأدلة الخارجية التى بنى عليها فولف نظريته •

أما عن الأدلة الداخلية التى اعتمد عليها ـ هو وأتبـاعه ـ لدعم ارائه ، فقد دحضها الأستاذ البلجيكى سفيرنس الذى عكف ما يقرب من ربع قرن ، على دراسة الالياذة والأوديسـا وبحث المشكلات التاريخية والدينية والاجتماعية واللغوية كافة مما يتصل بهما ، ونجح فى أن يثبت أن كل ما يبدو فى الملحمتين من تضارب أو تناقض انما هو تضـارب ظاهرى لأن هوميروس لم يكن مؤرخا أو جغرافيا أو عالما لغويا ، بل كان شاعرا من حقه ألا يتقيد بالحقائق • وبهذه الطريقـة بين خطأ فولف وتلاميذه ، وفند مزاعمهم ووصـل الى أن هوميروس وحده نظـم الالياذة والأوديسا فى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد •

الاليــاذة

تدور الالياذة حول أحداث الحرب الطروادية التى دارت رحاها فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، لكن هذا لايعنى انها ملحمة حربية كمـا يعتقد الكثيرون فهوميروس لم يصف لنـا هذه الحـرب التى دامت عشر سنوات وامتلأت بالأهوال والخطوب انما اكتفى بأن يتغنى بأحداث الشهرين الأخيرين من العام العاشر ، فنظم الالياذة ، ملحمة الخلود وقصيدة الزمان ، وتتكون من خمسة عشر ألفا وخمسمائة وسبعة وثلاثين بيتا ، قسمها علماء الاسكندرية الى أربع وعشرين انشـودة ، بدأها هوميروس بالدعاء لربات الشعر ليلهمنه الشدو والغناء ، ثم أخذ فى سرد قصته قائلا:

ذات يوم هاجم اليونان قرية طرواديه وسبوا نساءها ، ومن بينهن خروسيس الجميلة ، ابنة كاهن أبوللون ، فأعجب بها أجا ممنون وأخذها من نصيبه ، وحزن أبوها حزنا شديدا ، فتوجه الى معسكر اليونان وتقدم نحو رئيسه وتوسل به قائلا : « مولاى ! انى أدعو لك بالنصر ، وأصلى من أجلك ، وأقدم لك ما أملك فداء لفلذة كبدى ، فارحمنى وردها الى » ولكن أجاممنون نهره ورده خائب الرجـاء ، فعاد الى قريته يبكى ابنته ويدعو أبوللون ان ينتقم له من هذا الملك المتجبر ، واسـتجاب الاله

لدعائه ، وانزل على اليونان طاعونا يجتاح جنودهم وخيلهم ، واستمر الوباء تسعة أيام عاصفة تنذر بالفناء ، عندئذ اضطر اخيليوس الى دعوة مجلس الجيش ، فأجمع القادة على ان يذهب كالخاس ويسأل الأرباب لتكشف له أسباب هذه الغمة ، وعاد الكاهن وقال « الويل لنا ان لم نرد خروسيس لأبيها ، ان الآلهة تأمر بردها فورا ارضاء لابوللون ، فيجب علينا ان نبتهل اليه ونسترضيه ليرفع مقته وغضبه عنا » فنهض أخيليوس وأرسل كلمة الحق مدوية وأصر على ارجاع الفتاة لأبيها . فثار اجاممنون في وجه البطل العظيم ونشبت بينهما معركة كلامية ، وهم اخيليوس بأن يغمد سيفه في صدر الملك الذى وافق على رد خروسيس اذا تنازل اخيليوس عن فتاته برسيس ، وعندئذ هبطت أثينا من السماء ونصحت البطل بأن يتخلى عن حبيبته لهذا القائد الأنانى ، واستجاب البطل لنصيحتها وأقسم فى نفس الوقت بأنه لن يشترك فى الحرب ولن يسمح لجنوده البواسل بخوض معاركها · وجلس اخيليوس في خيمته حزينا كئيبا ونادى أمه ثيتس لتأتى وتسمع شكواه ، فأسرعت اليه وحدثها عن الاهانة التى لحقته ، ثم خفت لمقابلة « زيوس » وأبلغته الخبر فوعدها بأنه سيذيق أجاممنون وجنوده عذابا أليما تكفيرا عما أصاب ولدها من شر وأذى

ويحدثنا الشاعر فى الانشودة الثانية بأن كبير الآلهة أرسل الى أجاممنون اله الأحلام وهو يغط فى نومه ليحضه على مهاجمة طروادة فورا ويبشره بالنصر المبين · فلما استيقظ القائد الأعلى تحدث الى القادة وأخبرهم برؤياه الكاذبة فصدقوها ، ثم وقف منهم نستور خطيبا ليشحذ عزائمهم ، ولكن اجاممنون اراد أن يعرف رأى جنوده قبل المعركة ، فنهض وهتف فيهم قائلا : « هلموا أغمدوا سيوفكم ، ولنعقد مع الطرواديين هدنة ، فلتنته هذه الحرب ولنعد الى ديارنا » · فما كاد ينتهي من القاء كلمته حتى طار الجنود فرحا ، وعلا هتافهم يؤكسون رغبتهم في الرحيل بعد الغياب الذى انهك قواهم ، وأفنى شبابهم ، ولكن كيف تقف المعارك وأثينا لاتريد ذلك فسرعان ما هبطت من السماء وتجلت أمام اودوسيوس وقالت له « اياك أن تنخدع بكلام اجاممنون ، انه يريد أن يسبر عزائمكم ، فهيا انفخ من روحك فى الجند وردهم الى صوابهم وأقنعهم بالبقاء » · وعندئذ انطلق ملك أيثاكا بين القادة والجند وحثهم على التضحية ، ونجح فى تحقيق رغبة أثينا ، فاستمرت الحرب وطال القتال ، فيسهب الشاعر فى وصف المعارك التى تتأرجح فيها الكفتان أحيانا ، وترجح فيها كفة الطرواديين أحيانا أخرى ، فيثوب اليونان الى رشدهم ويدركون انه لو كان اخيليوس بينهم لما غلبوا على أمرهم فيوصى

نستور بمصالحة البطل ويطلب الى اجاممنون استرضـاءه ، ويستجيب القائد العام لهذا الطلب ويرسله مع أودوسيوس وآخرين الى خيمة البطل ليعرضوا عليه صلحا كريما ويسألوه الصفح والغفران ولكنه يثور لكرامته ويرفض الاعتذار ويردهم خائبين • وبعدئذ يعود الشاعر بنـا الى ساحة الوغى حيث نرى مئات القتلى من الاغريق الذين أصابهم اليأس بعد أن رفض اخيليوس العودة الى القتال . ويحاول باتروكلوس اقناع صديقه الحميم ، اخيليوس ، بأن يغفر الاساءة ، وينزل الى المعـــركة ليدفع عن بنى وطنه البلاء ، لكن البطل لايستجيب لنـداء صـــديقه ، فيكتفى بأن يسمح له بأخذ ما يريد من قوة وعتاد ، فيذهب باتروكلوس فى الانشودة السادسة عشرة لتخليص الاغـريق من الموت الذى يلاحقهـــم • وينتصر صديق اخيليوس أول الأمر ويختال بانتصاره ويصر على ملاقاة هكتور ، بطل طروادة ، ويسعى اليه ، لكن هكتور يرسل الى رأسه رمحا قاتلا ، فيسقط المســكين مضرجا بدمه • ويسمع اخيليوس بالخبر ، فيرســل صرخات مدوية كادت تزلزل قلوب الطرواديين وتملؤهم ذعرا ، وطفق يجوب الساحة بحثا عن جثة حبيبه ، فلما وقع عليها بصره ، بكى ما شاء له البكاء ، ثم رثى صديقه بكلمة مؤثرة وأمر بغســـل الجثـة ، ثم نسى غضبه ، ونسى كل شىء وأصبح لايفكر الا فى الانتقام لصاحبه ، ويصف لنا الشاعر فى الأناشيد الباقية كيف انتفض اخيليوس . وانقض يشفى غيظه بقتل عشرات وعشرات من أبطال طروادة ، وكيف استخف بالاهوال وأقسم أن يفجع طروادة فى هكتور ، بطلهـا المغوار فانطلق فى ســاحة القتال يبحث عنه حتى التفى به ، وظل يطارده أينما ولى وجهه ، ولما تعب هكتور ونال منه الجهد ، وقف للقاء اخيليوس ، ولم تنقض لحظات حتى انقض بطل اليونان عليه وعاجله بطعنـة من رمحـه هوت به الى الأرض ذبيحا ميتا • وبعد ان انتقم اخيليوس لصاحبه ، جمع القوم وأمرهم باعداد كومة لحرقه وتادية الشعائر الدينية التى لايتم الجناز الا بها ، ثم عاد الى جثة هكتور وانقض عليها كالمجنون وربطها فى عربة ، وأخذ يلف بهـــا حول الكومة التى حرق فيها صاحبه • فثارت الآلهة لما يحل بالميت المسكين من هوان ، وغضب زيوس فأرسل الى اخيليوس يأمره بتسليم جثة هكتور الى أبيه برياموس • ويذهب هذا الشيخ المكلوم الى معسكر اليونان ويسعى الى خيمة البطل الذى يكرم وفادته ويأمر بغســل جثة هكتور ولفها فى أكفان من كتان مصر وتسليمها الى أبيه • ثم يعود برياموس الى طروادة ويأمر بعمل كومة لحرق الجثة ويقيم لها الطقوس الدينية وسط نحيب الطرواديات وعويلهن • وهكذا تنتهى الملحمة بوصف بليغ لهذا المنظـر الحزين •

هذا ملخص للالياذة التى كانت ومازالت تعد أهم ملحمة فى الأدب الغربى ، قديمه وحديثه ، يرجع اليها الادباء والعلماء يتلونها مرة بعد أخرى ، ويجمعون على انهم لايضيقون بها مطلقا ، وانهم اذا تركوها فترة ، أحسوا شوقا عجيبا اليها ، فيعودون اليها ، ويشعرون أن أوصافها مازالت ساحرة وان لوحاتها مازالت رائعة ..

صور من الالياذة

رجل من عامة الشعب يهاجم اجاممنون ملك الملوك .

« ما شكواك يا ابن آتريوس ؟ وما تريد ؟ ان سفائنك مملوءة بالمال والعتاد ، مملوءة بالغيد الحسان اللاتي نقدمهن لك عندما تستولى على مدينة من المدن · أأنت فى حاجة الى مزيد من الذهب يحمله اليك أحد الطروادين فداء لابنه ؟ أم تريد فتاة جميلة تحتفظ بها لنفسك ؟ انه لا يليق بزعيم الآخيين ان يدفع بهم الى البؤس والشقاء · وانتم أيها الآخيون ! أى خزى تجلبون على أنفسكم ! لقد أصبحتم لا تستحقون اسمكم ، فلنعد الى بلادنا ونترك ذلك الرجل هنا يذوق ثمرة تصرفاته ويشعر بحاجته الينا · لقد أهان اخيليوس الذى يفضله ويمتاز عليه ، فاغتصب حبيبته واحتفظ بها لنفسه » ·

وقد يذهب لاسترضاء اخيليوس :

« سلام عليك ، اخيليوس ! ان مصيبة فادحة تشغل بالنا وتثير مخاوفنا ، اننا لا نعلم اذا كنا سننقذ السفن أو سنفقدها ، لقد أقام الأعداء بالقرب منها معسكرا لهم ولحلفائهم · وهكتور يختال بقوته ويعصف بجنودنا ، لايحترم الآلهة ولا البشر ، لقد استولى عليه غضب شديد ، وقرر أن يشعل النار فى السفن ، ويجندل رجالنا اجمعين وكل ما أخشاه ان يحقق الأرباب رغبته ، فيكتبوا علينا الموت بعيدا عن ديارنا · فهيا اذا كنت تريد ان تنقذ اليونان من مصيبتهم واذا توانيت فسوف تعانى انت نتائجها ، لأن الشر اذا وقع ، لن تجد لك منه مخرجا ، فأسرع وفكر فى انقاذ اليونان من بلواهم ·

هدىء من ثورتك ، واترك الغضب جانبا ، ان اجاممنون يقدم اليك أنفس الهدايا اذا تخليت عن مقتك وغضبك ، ولكن اذا كنت لاتزال تبغضه وتبغض هداياه ، فلتأخذك الشفقة بغيره من اليونان الذين أنهكتهم الحرب ، انهم يجلونك كما يجلون الآلهة ، وسوف تبلغ بينهم قمة المجد » ·

فاجاب اخيليوس قائلا :

« أى أودوسيوس ، يا صاحب الحيل يجب أن أصارحك بما أريد وبما سيحدث فعلا حتى لاتعود الى وتضايقنى ، انى أكره من يخفى فى نفسه شيئا ويقول شيئا آخر ، لذا سأبوح لك بما سوف أفعل • فلا أجاممنون ولا غيره من اليونان يستطيعون اقناعى لأنهم تنكروا لى رغم الجهد المضنى الذى بذلته فى محاربة العدو • فالجزاء واحد سواء بقينا فى خيامنا أم قاتلنا قتال الجبابرة ، انهم يمجدون الجبان كما يمجدون الشجاع ، ولم يبق لى شىء مطلقا بعد الاخطار التى واجهتها والمعارك العديدة التى خضتها • كنت أقضى الليالى دون ان أذوق للنوم طعما وأقضى الأيام دون ان أعرف للراحة معنى ، أما اجاممنون فكان يبقى فى المؤخرة بالقرب من السفن : ينتظر الغنائم ، فيوزع منها القليل ويحفظ لنفسه بالكثير ، فقولوا له كل ما سمعتموه منى ، وحدثوه بذلك على رءوس الاشهاد حتى يغضب اليونان كما غضبت • فلن أتفاوض معه ولن أقاتل فى صفوفه • لقد سخر منى وأساء الى ولكنه لن يخدعنى أبدا • فليذهب الى حتفه بظلفه لأن زيوس حرمه نور الحكمة والرشاد » •

مناجاة بين اندروماخيا الوفية وزوجها
الحبيب هكتور

هكتور ، أيها المسكين ، ان حماستك ستدفعك الى الهلاك ، ما أشقانى ! ألا ترحمنى وترحم طفلك الصغير ! اننى سأترمل عما قريب ، فعما قريب سيقتلك اليونان ، ولكنى أتمنى ان أموت حتى لا أعيش وحدى لأننى لن أسعد من بعدك ولن أعرف الا الأحزان والهموم لقد فقدت أبى وأمى وكل اخوتى • فأنت يا هكتور ، أبى وأمى ، وأنت أخى وأنت زوجى فابق هنا وارحمنى •

فرد عليها هكتور العظيم قائلا : « اننى مهموم لذلك ، ولكنى أخاف الطرواديين والطرواديات اذا هربت كالجبان من المعركة • هذا الى ان قلبى لايدفعنى الى الفرار لأننى تعلمت ان أكون شجاعا على الدوام وان أقاتل فى طليعة الطرواديين لأذود عن مجد أبى وأشيد مجدى ، اننى أعلم واحس فى نفسى وفى قلبى بأنه سيأتى يوم تدمر فيه طروادة المقدسة ، ويهلك برياموس ويفنى شعبه • ولكنى لا أفكر الا فى المستقبل

ولا اشغل بالى بهموم الطرواديين وأحزان أمي وأبى واخوتى بقدر ما أغتم لمصيرك المؤلم عندما يأسرك أحد الأعداء فيأخذك معه وانت تبكين وتنوحين. وهناك فى بلاد اليونان تعيشين تحت امرته تغزلين وتحملين الماء . وعندما يراك الناس والدمع ينهال من عينيك يقولون هاهى ذى زوجة هكتور بطل الطرواديين فى المعركة ، يقولون هذا فتتجدد أحزانك لحاجتك الى رجل مثلى ينقذك من العبودية ويرد اليك حريتك فليتنى أموت أو أدفن حيا . فهذا أحب الى من ان أراك باكية مستعبدة .

ثم يأخذ ابنه بين ذراعيه ويضمه الى صدره ويدعو الآلهة ان ترعاه ، فيقول :

« أى زيوس ، أى أرباب السماء ! حققوا رجائى ! ليت ابنى يشتهر بين الطرواديين مثلى ! ليته يكون قويا عزيز الجانب ، يحكم حكما وطيدا ليتهم يوما يقولون عنه ؛ وهو راجع من ساحة الوغى ، انه أعظم من أبيه وليته يعود بأسلاب أعدائه تقطر منها الدماء ، فيسعد أمه ويشرح صدرها » .

ثم يضع الطفل بين ذراعى أمه ويلاطفها قائلا :

« لا تحزنى من أجلى ! فلن يسوقنى الى الموت رجل قط اذا لم تشأ الأقدار ، لكن اذا حكم القضاء ، فلا مفر منه ، اذهبى الى المنزل وانصرفى الى شئونك » .

عظمة الالياذة وتأثيرها

أنزل اليونانيون أشعار هوميروس منزلة مقدسة ، واعتبروها المرجع الأول لتعاليمهم الدينية والخلقية ، وقرروا تدريسها وحفظها في المدارس، وفاق الاثينيون جميع اليونانيين فى تقديرهم لهذه الأشعار ، حتى قرر المشرع « سولون » انشادها فى أعياد « البانأثينا » واهتم الطاغية « بيسستراتوس » بجمعها والمحافظة عليها ونشر أول نسخة لها ٠

لقد تركت الملحمة على الأدباء والفنانين بعد هوميروس آثارا واضحة ، فاستلهموا منها أشعارهم وفنونهم ، حتى وصف « أيسخولوس » مسرحياته بأنها فتات مائدة هوميروس ٠ ويروى أن بيتا من الالياذة هو الذى أوحى الى « فيدياس » صنع تمثال « زيوس » وهو من أروع آيات الفن اليونانى ٠ وأجمع القدماء والمحدثون على أن الالياذة والأوديسة هما أجمل ما نظم شعراء الملاحم وأن بعض أجزائهما تعد أجمل ما قيل فى عالم الشعر حتى اليوم ٠

ومن طريف ما يذكره المؤرخون أن الالياذة أثرت تأثيرا بالغا فى الاسكندر الأكبر ، فكان يتلوها مرة بعد مرة ، واتخذ بطلها « اخيليوس » مثالا يحتذى ، ويقال انه كان يحتفظ بنسخة من الالياذة فى غلاف مرصع بالجواهر ، ولعل اعجاب الاسكندر بهذه الأشعار ، جاء نتيجة طبيعية لاهتمام أستاذه أرسطو بها ، فقد كتب أرسطو لها شرحا وافيا ، وأشاد بها فى كتابه « فن الشعر » (٢) ٠

وكيف لاتكون هذه الدرة ساحرة رائعة ؟ انها تفيض بألوان من التنوع : تنوع فى المناظر ، وتنوع فى الوصف ، تنوع فى العواطف ، وتنوع فى الاسلوب وتتصف ، رغم طولها الشديد ، بتماسك الأجزاء وتسلسل الحوادث ، مما يدل على وحدة الموضوع فى ذهن الشاعر ، ووضوح الفكرة التى لا يشوبها غموض ولا اضطراب ٠

لقد طبعها هوميروس بطابع من الفخامة لأنه كان يضع نصب عينيه المثل الأعلى فى كل ما يصف من مناظر وأشخاص ، وكل ما يصور من أحداث ومغامرات وكل ما يروى من قصص وأساطير ، ومع انه كان يرمى الى بلوغ هذا المثل فانه كان لايبعد عن دنيا الواقع فمعاركه الدامية ليست

معارك عمالقة أو شياطين . وأبطاله ليسوا مردة خرافيين ، ولكنهم جنود بواسل وفرسان شجعان لايتكلفون فى مواقفهم ولايتصنعون فى تصرفاتهم يشعرون بقوتهـم ويعترفون بضعفهم الذى حاطهم به الاله ليجعلهم فى مستوى التاس أجمعين ، ويرفعهم أحيانا الى أعلى السمو وينزل بهم أحيانا الى أسفل سافلين ٠

ولقد خلع هوميروس على الآلهة أنفســـهم صفات البشر ، فمع انهم خالدون أبدا فانهم يشبهون الناس جميعا ، يكثرون فى الطعام ويسرفون فى الشراب ، قساة غلاظ القلب لايحترمون المبادىء الخلقية ، ولا يتمسكون بالفضائل ، يسود بينهم الخصـــام وينقسمون الى أحزاب ومعسكرات ، يتصفون بالمكر والخـداع ، منهـــم القوى الذى يبطش والضعيف الذى يرتجف ، ومنهم الشجاع الباسل والجبان الرعديد ، لايجلون زيـوس ولكن يخافون بأسه ، وهكذا لم يصـــورهم هوميروس ، كما يصـــورهم أسلافه ، فلم يؤمن بما كان ينسج حولهم من أساطير أو بما ينسب اليهم من معجزات أو بما يقام لهم من عبادات ولذا خلت أشعاره من النظريات الدينيـــة ٠

وعلى ذلك لم يحلق هوميروس فى دنيا الخيـــال بل عاش مع الناس وصور حياتهم وجعل الانسان محورا لاشعاره يقوم فيها بالدور الأول ، فيتصل بكل شىء ويتأثر به أو يؤثر فيه ٠ فحتى فى المعارك الدامية التى يخوضها الآلهة مع الأبطال لاينسى الشاعر الرجـل العادى ولا يهمله ، فيشاركه عواطفه ويرثى لضعفه ويثور معه ضد القوى الجبـــار ، فيبكى فرحا مع أطفال شفى أبوهم من مرض عضال ، ويشـــارك الفلاح سروره عندما يرى أغصان الزيتون مزهرة ، ويتألم لجوع العامل الذى يكد طول النهار ، ويشعر بتعب الملاح الذى أنهكه التجديف ، ويرثى لحال المرأة التى تكافح لتكسب قوتها ، ويحزن مع الشيخ الذى مات أبناؤه فى ســاحة الوغى ، ويحسد الأغنياء المترفين الذين يملكون مزارع القمح الواسعة ، ويعجب من أصحاب الثروات الضخمة والضيعات الشاسعة ، وينفر من جشعهم وقسوتهم نحو العامل الفقير والأجير المعـدم ويشبههم بالحيتان الضخمة التى تبلع صغار الأسماك والنسور الجارحـــة التى تنقض على مستضعف الطير ٠

ولقد امتازت الالياذة ، فوق ذلك ، بوضوح الاسلوب الذى امتدحه علماء البلاغة واعتبروه أول سبب لتفوق هوميروس الأدبى ، فهو فى رأيهم أعظم كتاب اليونان ، وأوضحهم أسلوبا ، ويعزى وضـوحه الى عنايته بترتيب الأفكار ونقاء التعبير واختيار أســـهل الألفـاظ وأدقها وأكثرها

انتشارا وأحسنها وقعا على النفس وأعذبها نغمـــا فى لأذن • ومع ان الوضوح فى رأى بعض النقاد· قد يبعث الملل أو يقلل من أهمية الموضوع أو يؤدى الى سطحية الفكرة ، فان شاعرنا ، استطاع ، بفضل عبقريته ، تجنب هذه العيوب بأن نوع فى أسلوبه ، فكان مرة يركن الى الايجاز فى الشرح ويختصر فى التفاصـــيل ، ومرة يسهب فى الوصف ويبلغ حد الكمال • وكان لايهتم بالزخرف اللغوى ولا يميل الى المحسنات اللفظية ، بل كان يتعمد فى تشويق ســـامعيه على روعة الحوادث التى يعرضها ، والأحاديث التى يرويها والخطب التى يستخدمها القواد لحث الجنود فى ساحة القتال ، ويلجأ اليها الزعماء لمناقشة المسائل السياسية ، ويستعين بها الرسل فى أداء مهمتهم ، وكان هوميروس يحب التكرار ويعتمد عليه فى الاستيلاء على انتباه الجمهور ، ولقد بلغ مجموع الأبيات المكررة من الالياذة ثلث طولها ، ومع ذلك فاننا لم نسمع عن ناقد قديم أو حديث ضـــاق بهذا التكرار ، بل لقـــد اعتبره أرســطو ظاهرة طبيعية لم تفقـــد الاسلوب شيئا من جماله ولم تبعث الملل لأن الشاعر كان بارعا فى تهيئة النفوس وتمهيد الجو لسماع ما يردده •

ولكن الالياذة تمتـــاز أولا وقبل كل شىء بدقة الوصف وبراعة التصوير ، فما من نشيد فيها الا وقد احتوى على مقطوعات تصف الطبيعة أو لوحات فنية تصور مظاهرها أو أوصاف مفصلة لبعض الأدوات الحربية، ولقد أظهر هوميروس مقدرة فائقة فى وصف كل ما رأى وسمع لأنه. كان قوى الملاحظة محبا للاستطلاع ، فوصف الجروح وآلامها وطريقة معالجتها، وتكلم فى المعارك الحربية وقيادة الجيوش ، وصور الحدائق والبساتين ، تحدث عن كل ذلك حديث خبير ماهر ، ووصفه وصف عالم دقيق حتى قال بعض النقاد عنه : « انه كان جراحا » وقال آخرون : « انه كان قائدا » وقال غيرهم « انه كان فنانا أو عالما » ولكنه كان فى الواقع جراحا وقائدا وفنانا وعالما لأنه كان شاعرا ينطق عن موهبة قدسية أتته من لدن الآلهة •

ليس بكثير ، اذن ، على ناظم هذه الأشـــعار أن يعتبره اليونان البداية والنهاية وزميل الصبا والشباب والشيخوخة ، لا نستطيع مفارقته مطلقا ، نتغذى بأشعاره كما يتغذى الرضيع بلبن أمه : واذا شغلنا عنه ، شعرنا بظمأ لايمكن اطفاؤه الا بالرجوع اليه •

لقـــد كان هوميروس لليونان معلمـــا ورسولا ، جمع شملهم وتغنى بتاريخ أسلافهم ، فبعث نهضتهم وخلق منهم أمه قوية يؤمنون بدين واحد ويستخدمون لغة واحدة ، يحتفلون بأعياد قومية جامعة ، ويشتركون فى مباريات ·عامة شاملة •

قلده شعراء الملاحم اليونانية [illegible]
ورددوا عباراته ، وحاكوا أسلوبه ، ونقلوا أفكاره ، ولكنهم ، لم ينظموا ملحمة واحدة فى روعة الاليـاذة ، وجـاء الشعراء الغنائيون واستعملوا صفاته وكناياته وتغنوا بآلهته ، وأعجبوا بقصائده اعجابا فائقا ، خاصة بنداروس زعيم الشعر الغنائى الذى تغنى بالالياذة ورفعها الى السماء • أما شعراء المسرح فقد اعترف أستاذهم ايسخولوس « بأن مآسيه كانت فتاتا من موائد هوميروس الحافلة » • وشهد أفلاطون بأن شاعرنا كان احكم الحكماء وانه معلم اليـونان الأول ، ولقبه أرسطو بأمير الشعراء واثنى عليه ثناء عاطرا فى كتابه فن الشعر كما أسلفنا القول •

كذلك كان هوميروس نموذجا لشعراء الرومان أيضا ، بدءوا بترجمته الى لغتهم واعتبروا ملاحمه أول عمل أدبى يجب تلاوته ، ولم يبدأ القرن الأول قبل الميلاد حتى أصبح تأثير هوميروس شاملا فى الأدب اللاتينى • واضحا فى جميع المؤلفات • ولكنه يتضح وضوحا تاما فى شعر ثلاثة من أعظم أدباء الرومان هم : فرجيل وهوراس وأوفيد • ولقد أصبح هوميروس فى عصر أوغسطس ، معروفا للجميع ، كان الطلاب يحفظونه ويقتبسون منه فقرات فى كتاباتهم ، وبدأ الشعراء يكثرون من الاشـارة اليه فى قصائدهم ، وأخذ النقاد ينصحون بتلاوة أشعاره وتلقينها فى المدارس • المختلفـة ••

وزالت دولة الرومان وظهرت المسيحية وتبعتها النهضـة الأوربية ولم تستطع القرون العديدة أن تضعف من تأثير هوميروس لأن شعره بقى يحتل أسمى منزلة حتى فى عصور الجهالة والظلمة التى انقرضت فيها اللغـة اليـونانية ، فكان النـاس يتلونه فى الترجمات اللاتينية ويعجبون بأفكاره ، وبذلك لم تنقطع صلتهم به ولم يتوقف تأثيره عليهـم • ومنذ بداية القرن الرابع عشر بدأ علماء ايطاليا وأدباؤها يرجعون من جديد الى المخطوطات اليونانيـة لملاحم هوميروس ، ويرجـع الفضـل الى بترارك وبوكاشـيو فى تشجيع الايطاليين على تلاوة الالياذة فى اللغة الأصلية • ولم تكن انجلترا أقل اهتماما بدراسة هوميروس ، ولم يكن أدباؤها أقل تأثرا بشعره • فلقد صوره شوسر فى قصـائده وتغنى بأشعاره ومجد عبقريته ، ولقد اعترف « ملتـون » بانه اقتفى أثـر هوميروس وقلده ، واستخدم تشبيهاته واستعمل صفاته ، أما نقاد انجلترا امثال « دريدن » و « بوب » فكانوا من عشاق هوميروس ، قضوا كل حياتهم فى نقد أشعاره واظهار محاسنها وترجمتها ترجمة رائعـة جديرة بالأصـل اليونانى ، وما حدث فى انجلترا ، حدث فى فرنسا وألمانيا •

منها الكثير من موضوعات أعمالهم ، بل ان آدبـاء أوروبا مازالوا ينهلون منه ويعدونه المصدر الأول لالهامهم ، وليس ذلك بعجيب لأن نقاد أوربا أجمعوا ومازالوا يجمعون على ان الاليـاذة هى أروع ما جادت به قريحة اليونـان .

كما انه مما يدلنا على مكانة هوميروس فى الأدب والفكر العالمى حتى العصر الحديث انه في عام واحد تم تسجيل خمسة وثلاثين كتابا ، اضافة الى ثلاثة وأربعين مقـــالة تحدثت عن هوميروس صاحب معجزة اليونان « الاليـاذة » .

محاورات سقراط

٤٠٠ ق.م

● يعد سقراط من كبار الفلاسفة وشيوخ الحكمة الذين أثروا فى تطور الفكر البشرى ، وتقدم الفلسفة رغم انه لم يكتب شيئا ، وليست له مؤلفات يرجع اليها ويعتمد فى تحديد مواقفه الفكرية عليها ، ولكن ما خلفه تلاميذه الذين أخذوا عنه ، واقتدوا به ، يعد من أنفس الآثار الفلسفية ، وأبقاها على الدهر ، وقد قدم سقراط للعالم مثلا نادرا فى سمو التعاليم ، والوقوف الى جانب ما اعتقد انه الحق ، والتضحية بالذات فى سبيل حرية الرأى ، والاستهانة بالأخطار الراصدة والمخاوف المحدقة ٠

ولم تتعرض شخصية سقراط للشك الذى تعرضت له بعض الشخصيات التاريخية ، فحياته فى أثينا من المسائل المسلم بصحتها ، ولكن الآراء مع ذلك مختلفةفى تحديد معالم شخصيته ، ووصف مواقفه ، وتحرى أخبار حياته ونشأته ٠ وفى مدى علمنا أنه يمكن القول بأن البحث التاريخى لم يصل بعد الى نتائج حاسمة ومقررات نهائية لا يعتورها الشك فى هذا الصدد ، وتسمو على المراجعة والتفنيد ٠ والمحاكمه التى ختمت بها مأساة حياته تعد من المحاكمات التاريخية التى طالما غنى بها المفكرون ، وشغل بها الناس ، مثل محاكمة جان دارك وغيرها من المحاكمات التاريخية المأثورة ٠

وأهم المراجع التى يعتمد عليها فى تعرف أخبار سقراط ومطالعة آرائه هى « المحاورات » الخيالية التى كتبها أفلاطون ، أعظم تلاميذه ، وأبعدهم شهرة ، وأسماهم مكانة فى عالم الفكر ، وكذلك ما كتبه عنه اكسانوفون (٣) ، وان قصر عن مدى أفلاطون ولم يبلغ مبلغه فى الدقة وصحة الفهم ، وأفلاطون فى محاوراته يوضح لنا الجوانب المختلفة لشخصية سقراط ، وحقيقة أن هذه المحاورات خيالية ، ولكن أفلاطون كتبها فى عهد قوم عاصروا سقراط وعرفوا الكثير عن حياته واتجاهاته الفكرية ، فاذا كان اعجابه الشديد بأستاذه قد دفعه الى تجميل الصورة

ونسبه بعض افكاره الخاصة الى افكار سقراط فانه مع ذلك يمكن الى حد ما التحقق من صدق الصورة وصحة الآراء بشيء من الرجـــوع الى ما كتبه اكسانوفون وما رواه بعض المعاصرين عن ســقراط ، واذا كان أصدقاء سقراط وتلامذته قد غالوا فى الاشادة بمزاياه وفضـــائله فان خصومه قد بالغوا كذلك فى تسفيه آرائه ، وانتقاص قدره ، وعلى رأسهم شاعر الملهاة الكبير أرستوفانيز Aristophanes فقد قدم لنا صورة فى مسرحية السحب ، ملأى بالسخرية من سقراط ، واهدار مكانتـــه ، وتشويه آرائه ٠ وقد كان سقراط مثل الكثيرين من عظماء الرجال وأفذاذ الانسانية يبعث الحب والاعجاب والتقدير فى قلوب بعض الناس ، ويثير العداوة الصماء والحقد الشـــديد فى قلوب فريق آخـــر منهم ٠ وكان ارستوفانيز من هؤلاء الذين أســاءوا فهم سقراط ، ولم يستطيعوا أن يتبينوا حقيقة رسالته ، وخالوه من السفسطائيين (٤) الذين حفل بهم عصره ٠

مولد ســــقراط

أكثر الرجال حكمة

وقد ولد سقراط سنة ٤٦٩ قبل الميلاد على مقربة من آثينا بعـــد موقعة سلامير بعشرة أعوام ، وهى الموقعـة التى انتصر فيهـا الأثينيون بمســـاعدة أسـبرطة وقضت على قوة اكسرسيز الفارسى ، وفى أكثر الروايات أن أباه سوفرونيسكاس Sophronisus كان مثالا ، وان والدته فينـــاريت Phaenarete كانت قابلة ٠ ويروى انه هو نفســـه بدأ حيـاته باتخاذ صفة أبيـــه ، وانه نحت تمثالا لهرمس وآخـر لربات القدر الثلاث أقيم قرب مدخل الاكروبوليس ، وكان من الفكاهات التى لاينفك ينطق بها عن نفسه قوله انه لم يفعل أكثر من مواصلة حرفة أمه ، ولكنه نقلها الى مجال الأفكار فكان يساعد غيره من الناس على أن يخرجوا للعالم أفكارهم الكامنة فى بواطن نفوسهم

وفى أكثر الروايات انه كان فقيرا ، وقد عنى عناية كبيرة بصـــحة جسمه ، وكان فى أغلب أيامه قوى البنية ، جيد الصحة ، وتجلت شجاعته وقوة صبره واحتماله فى أثناء حرب البلوبنيز ، وقد حـارب فى بوتيديا سنة ٤٣٢ وفى ديليوم سنة ٤٢٤ وفى أمفبوليس سنة ٤٢٢ ٠ وأنقذ فى بوتيديا حياة السبياديز وهو من الشخصيات اللامعة فى تاريخ أثينا ومن اشهر تلاميذ سقراط الذين أساءوا الى سمعته وكانوا من أسباب محاكمته

ونكبته ، وقد نزل له سقراط عن جائزة الشجاعة ، وقد بز سقراط الجميع فى قوة الاحتمال والصبر على المتاعب دون أن يشكو ، ولم يكن سقراط كلفـا بالأسفار والرحلات ولذلك لم يترك أثينـا الا فى الحملات الحربية وأوقات الجهاد ٠

وكان سقراط يقنع بثوب بسيط رث طوال السنة ، ويؤثر أن يسير بغير حذاء أو خف ، وكان مثلا شرودا فى امتلاك زمام النفس ، والسيطرة على الأهواء ، والقناعة والزهد ٠ وبرغم ذلك لم يسلك فى حياته مسلك القديسين ، ولم يحرم على نفسه طيبات الدنيـا ٠ وكان يستطيع أن يتناول الشراب كما يفعل أى رجل مثقف دون أن يفقد اتزان عقله وحسن خلقه ، وكان لا يأبى الدعوة الى ولائم الأثرياء ، ولكن دون أن يفرط فى كرامته ، أو أن ينزل عن آرائه ٠ وكان يرفض هدايا الكبراء والملوك ٠ ولم يكن يفارق ميله الى الدعابة ورقة الحاشيه ، قال عنه أفلاطون « كان بحق أعقل وأعدل وأحسن من عرفت من الناس فى حياتى كلها » ٠

وقد كان سقراط بطيعته ميالا الى النقاش والجدل ، وقد عمد الى دراسة الفلسفة ، وأعجب حينا ما بالسفسطائيين الذين تكاثروا فى أثينا أيام شبابه ، وقد التقى فى الأغلب بيارمنيدس ويرونا غوراس وغورغياس وغيرهم من فلاسفة عصره ، وليس ببعيد أن يكون قد رأى زينون (٥) حينما زار أثينا حوالى سنة ٤٥٠ قبل الميلاد ، ويرجح انه عرف انكساغورس ٠

وقد تحول من علم الطبيعة الذى مال اليه فى مطلع حياته الى علم الأخلاق ، وأخذ يختبر معتقدات الناس ليرى الأسس التى قامت عليها هذه المعتقدات ، وكان يطلب ممن يوجه اليهم الأسئلة اجابات دقيقة محددة لايشوبها التناقض ، ويخيف من يعجز عن أن يكون واضحا فى تفكيره ، منطقيا فى حديثه ٠ وكان يصارح الناس بانه لايعرف شيئا ، وانه ليس سوى هاو من هواة الفلسفة ، وحينما سأل صاحبـه كريفون عـرافة دلفى (٦) عن من هو أكثر رجال أثينا حكمة ، قالت العرافة انه ليس هناك من هو أكثر حكمة من سقراط ٠ وقد عزا سقراط وصفه بالحكمة الى أنه كان لايعرف شيئا ويجهر بذلك ، والفرق بينه وبين غيره من الناس انه يعلم جهله ، وهم يظنون أنفسهم عقلاء وحكماء ، ويعرفون كل شئ ٠

وما قالته الكاهنة بعث سقراط على التفكير العميق ، وعده شبه أمر له ليعمل به ويقوم بتنفيذه ٠ وهكذا صار سـقراط ، الفقير الذى لا مال له ولا جاه ولا سـيطرة سوى نفوذ بعض أصـدقائه من معاصريه الممتازين ، صـار يعتقد ان له رسالة مقدسة ٠ وكان الرجل يؤمن بالله

وبالقيم الروحية ، وكان بطبيعته دينى النزعة ، ولكنه كان لايؤمن بحرفية الأساطير الشائعة ، ويعتقد انها وليدة أخيلة الشعراء ، ولا يرى مع ذلك بأسا فى انتقالها من جيل الى جيل • وصار سقراط يعتقد أن عمله فى حياته هو أن يختبر ويحلل ويكشف اذا اســـتلزم الأمر حكمـــة غيره المزعومة ، وكان هذا بدء المتاعب !

فاخوانه المواطنون لم يستريحوا لهذا الكشف الذى يظهر تهافت أفكارهم ، وأصبح سقراط فى رأيهم رجلا مولعا بالأسئلة المعقدة ليشبع حب الاستطلاع الذى سيطر على نفسه ، فما هدفه ؟ انه لا يعمل شيئا ، ولا يقدم جوابا ، وانما يثير شكوك الناس فى آرائهم ، ولا يستطيع أحد أن يجاريه فى ميدان الجدل والنقاش •

وعرف سقراط انه سيثير عداء الكثيرين ، ولكن هذا لم يثن عزمه ، وحاول فى بادىء الأمر أن يجرى تجربته على أحد السياسيين البارزين فى عصره ، وكان هذا السياسى يخال نفسه غاية فى سداد الرأى وحسن السياسة ، ولم يجد سقراط عند هذا السياسى صحة المعرفة واتســـاق الآراء وتماسك المنطق ، وأدرك انه الأحسن منه حالا لأن هذا الســـياسى لا يعرف شيئا ويحسب أنه يعرف كل شىء ، فى حين أن سقراط يقر بجهله وقلة معرفته • وقد صار هذا السياسى يمقت سقراط أشد المقت لأنه أربكه وأوقعه فى حيرة من أمره •

وكان هذا هو حال الكثيرين ممن حاول سقراط ان يبلو علمهم ، ويختبر حكمتهم ، وكشف بعد ذلك سطحية آرائهـــم ، وتفاهة تفكيرهم • وبرغم كراهة بعض معاصريه له وتحاملهم عليـــه فقد أدركوا انه رجـــل ثاقب الفكر ، ولم يكن هو يريد ذلك ، مما ســـبب له الحيرة ، وكان سامعوه يعدونه حكيما ، وهو يعتقد أن الله وحده هو الذى تفرد بالعلم والحكمة وأما نحن البشر فخير ما نعلمه ان نعرف اننا لا نعرف شيئا !

ولسنا نعرف التاريخ الذى بدأ فيه سقراط يشعر بصوت وحى داخلى أشبه بصوت الضمير بل أقوى منه ســـيطرة ، وهو كثير الاشـــارة الى هذا الهاتف الداخلى ، وقد تعود طاعته والخضوع لنواهيه ، وكان هذا الهاتف سلبيا يخبره بما يمسك عن فعله لا بما يمكن ان يفعله •

اتهام سقراط والحكم باعدامه

ولم يكن سقراط يميل الى المشاركة فى الاتجاهات السياسية ، ولا ينطلع الى المناصب الادارية ، وقد شاء القدر ان يكون عضوا فى مجلس الخمسمائة من سنة ٤٠٦ الى سنة ٤٠٥ قبل الميلاد ، وكان دائما فى مواقفه السياسية يتحرى جانب الاعتدال والرفق ، وكان هو الوحيد الذى دافع عن القواد المنتصرين فى معركة أرجنوسى البحرية ، فقد اتهم ثمانية من هؤلاء القواد المنتصرين بانهم تركوا بحارة خمس وعشرين سفينة من السفن التى أغرقها العدو يموتون غرقا على أثر عاصفة بحرية ولم يعملوا على انقاذهم . وحكم عليهم بالاعدام ، ولم تجد معارضة سقراط ، ونفذ الحكم فى ستة من هؤلاء القواد ·

واستولى بعد ذلك على الحكم فى أثينا ثلاثون من الالجاركيين ، وكان حكمهم ارهابيا ، فصادروا أموال الكثيرين من أغنياء التجار ، ونفوا من المدينة الكثيرين من الديمقراطيين ، وأعدموا ألفا وخمسمائة آخرين ولم يتورعوا عن قتل من خالفهم ومن كانوا غير راضين عنهم سواء لأسباب سياسية أو لدوافع شخصية محضة ، وقضوا على حرية الاجتماع ، وحرم اكريتاس - الذى كان يوما ما من تلاميذ سقراط - على سقراط مواصلة أحاديثه فى الأسواق والأماكن العامة · وأراد الثلاثون ان يعرضوا الفيلسوف للشبهات ويشركوه فى آثامهم ، فأمروه بالذهاب مع أربعة آخرين للقبض على التاجر الديمقراطى ليون ، فاطاع الأربعة الأمر ، وأبى سقراط الاشتراك فى ذلك معرضا نفسه للانتقام والأخذ بالشدة ·

وازدادت جرائم الالجاركيين ، وأمعنوا فى الاضطهاد والطغيان مما أدى الى سقوط حكمهم ، وزوال دولتهم · وعاد الحكم الديمقراطى الى أثينا فى سنة ٤٠٣ ق·م ، وسارت الجمعية التى تولت الحكم سيرا معتدلا ، فلم يصدر حكم بالاعدام الا على بعض زعماء الثورة على النظام الديمقراطى ، وسمح لهم بالنجاة من هذا الحكم بطريق تيسير الخروج من المدينة ، وأعلن بعد ذلك العفو العام عن جميع من ساعد الالجاركيين من غير هؤلاء الزعماء ، وكان من شأن هذه السياسة الحكيمة ان تعيد الى أثينا

الاستقرار والأمن والسلام الذى كانت فى أشد حاجة اليه بعد الحروب الدامية وعواصف الخلافات العاتية ٠

ولكن هذه الديمقراطية السمحة لم تلبث ان تورطت فى خطأ من أكبر الأخطاء التى تورطت فيها حكومة من الحكومات ، وهذا الخطأ البالغ هو محاكمة الفيلسوف سقراط بعد ان نيف على السبعين واصـــدار الحكم باعدامه ٠

وكانت التهمة الأولى التى وجهت الى سقراط هى انه لا يؤمن بآلهة المدينة ، ويدعو الى عبادة غيرها من الآلهة ٠ وكانت التهمة الثانية هى انه افسد أخلاق الشباب ، وجرأهم على الاستهانة بالتقاليـــد والخروج على طاعة آبائهـم ٠

وكان من زعماء الحزب المنتصر « انيتوس » وكان شديد الحقد على سقراط لاعتقاده انه أفسد عليه ابنه ، ولم يشفع لسقراط عند انيتوس انه أبى ان يطيع أمر الطغاة الثلاثين فى ابان سطوتهم ، وعلو كلمتهم ٠ وأخذ مليتوس وليكون وأنينوس على عاتقهم رفع الدعوى على سقراط ، وأحيلت القضية على محكمة مشكلة من قضاة منتخبين من عامة الشعب بطريق الاقتراع ، وليس للكثير منهـم نصيب من الثقافة أو المعـــرفة المستفيضة ، وكان عددهم خمسمائة وبعضهم من النوتية والتجار وغيرهم من أصحاب الحرف والمهن المختلفة ٠

وقد أكد سقراط للمحكمة أنه يؤمن بألوهية الشمس والقمر ، واظهر لمتهميه تناقضهم فى اتهامه قائلا لهم : « انكم تقولون أولا انى لا أومن بالآلهة ثم تتبعون ذلك بقولكم انى أومن بانصاف الآلهة ٠٠ ان مثلكم هذا كمثل من يؤكد وجود البغال ثم ينكر وجود الخيل والحمير » ٠

وأشار الى اتهام أرستوفانيز له بالمروق وتأثير هذا الاتهام فى نفوس قضاته ، وقال لهم انه مكلف بالقيام بأعباء رسالة الهية مضمونها ارشاد الناس الى الحياة الصالحة ، وانه لايثنيه شىء عن القيام بما تتطلبه هذه الرسالة ، وانه لا يخشى الموت فى سبيل أدائها ٠ وصارحهم قائلا « اذا قلتم لى ، ياسقراط ، انا سنعفو عنك الآن ، ولا نشترط عليك الا ان تكف من هذه الســاعة عن متابعـة البحث والتفكير على هذا النمط ، فاننى ساجيبكم قائلا انى أحبكم يا أهل أثينـا وأحبكم ، ولكنى ســأطيع الله ولا أطيعكم ، ولن أمتنع مادمت حيـا وما دامت لدى قوة عن الاشـتغال بالفلسفة ، وتعليمها للناس ، وعن القيام بوعظ كل من ألقاه على طريقتى الخاصـــة » ٠

وساء ذلك القضاء بطبيعة الحال ورأوا فيه ما يمس كرامتهم ، وينال من كبريائهم ، فأمروا بأن يكف عن الاسترسال فيما رأوا فيه استهانة بشأنهم ، ولكنه مضى فى دفاعه غير عابىء بما أظهروه من الضيق والتبرم واسترسل قائلا : « أحب ان تعرفوا انكم اذا أقدمتم على قتل رجل مثلى أسأتم الى أنفسكم أكثر من اساءتكم لى ٠٠ لأنكم ان قضيتم على لن يتيسر لكم ان تجدوا رجلا آخر مثلى ، فأنا اذا سمح لى ان ألجأ الى هذا التشبيه المضحك السخيف كذبابة بعثها الله الى الدولة ، والدولة شبيهة بجواد عظيم كريم بطىء الحركة لضخامة جسمه ، وهو فى حاجة الى ما يبعث فيه الحياة ٠٠ واذا كنتم لن تجدوا مثلى فنصيحتى لكم أن تبقوا على » ٠

وفوض أمره لقضائه بعد أن أكد لهم انه يأبى أن يستعطفهم ويستلين قلوبهم ، ويتلمس منهم الرحمة ، ولم يعجب القضاة هذا الترفع والاباء ، وعدوه لونا من ألوان التحدى لهم والاستهانة بهم ٠

وأعلنت نتيجة المحاكمة بعد اجراء الاقتراع فاذا بالأغلبيـــة تقـــرر ادانته وتعده مذنبا ، وكان القانون يخول له حق مناقشة العقوبة المطلوبة ، واختيار العقوبة التى يرضاها لنفسه ، ولكن سقراط أصر على رفض أى نوع من أنواع العقوبة لأن قبوله أية عقوبة يتضمن الاعتراف بالذنب ، وهو بحسب تقديره برىء من الذنوب ، ومن حقه أن يثاب على ما يبذل من النصيحة وحسن التوجيه ، ومن حقه على الدولة أن يعيش على نفقتها ٠ والح عليــه أفلاطون وغيره من الأصدقاء أن يقبل تادية غرامة فى نظير العقوبة ، وتكفل أفلاطون وسائر الأصدقاء والأتباع بأن يضمنوا تعهده ، ولكنه كان قد أغضب القضاة ، وأثار نقمتهم عليه ، فلما أخذ الرأى للمرة الثانية زاد عدد أصوات الذين حكموا باعدامه !!

حينئذ ٠٠ عمـــل تلاميذه على أن يمهدوا له السبيل للفـــرار ٠٠ والراجح ان قضاته كانوا يؤملون ان ينتهى الأمر على هذا النحو ، لأن هدفهم الأصيل كان ابعاده عن أثينا والتخلص منه ، ولكنه أبى الفرار ، وعده نوعا من الخروج على قوانين بلاده التى يحترمها ، وقد نشأ وعاش فى ظل تلك القوانين فكيف يرضى لنفسه أن يستهين بها ويخرج عليها ؟ وجاءته زوجته باكية وبين ذراعيها أصغر أطفالها فأخذ يواسيها وطلب الى اكريتون أن يصحبها الى دارها ، ولما قال له أحد تلاميذه المتحمسين « انك لاتستحق هذه الميتة » أجابه سقراط : « وهل تريد ان استحقها ؟ » ٠

ولما حان موعد الأجل ، وبكر تلاميذه بالحضور ٠ واتفق ان أفلاطون كان مريضا فى ذلك اليوم فلم يستطع الحضور ، وكان سقراط يبـــدو

منشرح الصدر ، مطمئن النفس ، واثقا كل الثقة ان الموت انتقال من عالم الدثور والفنـاء الى عالم الخلود والبقاء • ودار حديث بينه وبين بعض أصدقائه من الشبان أبدوا فيه ما خالجهم من الشكوك عن بقاء الروح بعد فناء الجسد ، فاكد لهم ان الروح لاتولد مع الجسـد ولاتفنى بفنائه ، وانما تشارك فى الأبدية الحق والخير •

وعند غروب الشمس ودعه حاكم السجن وهو يبكى لأنه لم يجد فى حياته سجينا أرق منه حاشية وأثبت جنانا • وجاء الحارس الذى يحمل جرعة السم ، فتناول سقراط الكأس فى هدوء وشرب كل ما فيها دون أن يبدى أى تردد أو تقزز ، وهكذا كانت خاتمة هذا الفيلسوف الكبير الذى ظل اسمه على كل لسان منذ خمسـة وعشرين قرنا من الزمان ، يضرب به المثل فى الحكمة والمعرفة •

الحوار السقراطى
اعرف نفسك

المأثور أن سقراط لم يتناول أجرا على التعليم لأن نظريته تذهب الى أن المعرفة موجودة فى النفس يستطيع المرء أن يستنبطها بالتوليد ، فكيف يأخذ المعلم أجرا على شىء ليس فى ملكه ، قد يكون الأجر جائزا فى حالة تعليم الحرف والصناعات ، أما فى تعليم الفضائل فهذا لا يجوز • ومع ذلك فنحن نرى أرستوفان ، شاعر الملهاة المشهور ، يصــوره فى تمثيلية السحب صــاحب مدرســة ، لها باب يقفل عليها ، ويتجه اليها الطلبة للتعلم ، وقد كتبت هذه التمثيلية ولعبت بالفعل قبل وفاة سقراط بعشرين عاما ، ويقال انها كانت من جملة الأسباب التى أشــاعت عن سقراط تهمة افساد الشباب • والمقصــود بذلك تحويل آراء الشباب واثارتهم على العــادات الجارية والتقاليد الموروثة • وحقا كان سقراط يغشى الشباب ويغير أفكارهم . ولكنه لم يكن صاحب مدرسة ولا تناول أجرا على التعليم ، كما لم يعلمهم التغلب بقوة البيان لو كانت الغلبة فى سبيل الباطل ، فقد كان هدفه على الدوام بلوغ الحقيقة •

وقد بدأ سقراط فيلسوفا طبيعيا ، ففى محــاورة فيدون انه قرأ كتاب انكساجوراس فى العلم الطبيعى ولم يعجبه ، لان صاحبه يصف الواقع كما هو عليه ويبين الأسباب الآلية للظواهر ولا يتعرض لأسبابها الغائية • ولذلك هجر مذهب فيلسوف العقل فى العلم الطبيعى ، وطور قوله بالعقل علة للأمور الانسانية • لقد كان الاتجاه فى الفلسفة قبل سقراط نحو البحث فى الطبيعة ، أى فى العالم الخارجى ، سواء أكان عالم السماء أم عالم الأرض حتى جاء سقراط ، فوجه هذا الاتجاه نحو البحث فى الانسان ، وفى أخلاقه ، وفى نفسه ، وهو هو الذى تمثل بالحكمة المشهورة التى كانت مدونة على باب معهد دلفى : « اعرف نفسك »• ولذلك قيل ان سقراط هو الذى أنزل الفلسفة من السماء الى الأرض ، بمعنى تحويل الفلسفة نحو البحث فى عالم الانسان لا عالم الطبيعة •

ولا شك ان البحث الطبيعى شىء يختلف عن البحث فى الانسان ، فللبحث الأول منهج يناسبه وهو الملاحظة الخارجية والتجربة ، وللبحث الثانى منهج آخر ، هو التأمل ، أو التفكير ، أو الجدل أو الحوار • وكان الحوار بوجــه خاص هو المنهج الذى اتبعه سقراط ، وهو عبــارة عن

مناقشة تدور بين شخصين أو أكثر ، فى هيئة سؤال وجواب ، وقد يكون السؤال سؤال استنكار أو تهكم أو استفسار أو تسليم ، فان سلم المستفسر بما يقال ترتبت على ذلك أمور ، وان سلم بما يناقضها ترتبت أمور أخرى ، ولكن لابد من التسليم باحدهما على أية حال • وهذا النوع من الحوار كان يستخدمه السفسطائيون ، وهو صالح للبحث فى الأمور الانسانية من تقاليد وأخلاق وعقائد دينية وتشريعات دنيوية ومصالح سياسية • ويبدو أنه كان مستخدما فى أكاديمية أفلاطون ، الى ان أبطله أرسطو بمنهجه فى القياس المنطقى والبرهان •

والحوار السقراطى من هذا القبيل غير أنه اتخذ طابعا معينا تميز به ، من حيث ان سؤاله تهكم يوقع محاوره ، أو خصمه فى الارتباك ، ولا يبادر سقراط بالجواب ، ولكنه يستخرجه من محاورة نفسه ، أو بعبارة أخرى « يولده » من هنا سمى منهجه بالتهكم والتوليد • والنماذج من المحاورات التى كتبها أفلاطون كثيرة • بل ان أحد الموازين التى بها تميز المحاورة السقراطية التى تمثل آراء سقراط من المحاورة الأفلاطونية التى تعكس فكر أفلاطون هو اتباع هذا المنهج • ان وجد واضحا كانت المحاورة سقراطية ، مثل محاورة أوطيفرون وأقريطون وبروتاجوراس وغيرها ، وان اختفى هذا المنهج وحل محله السرد ، والرواية المتصلة كما هى الحال فى « القوانين » ، كانت المحاورة أفلاطونية • هذا المنهج اذن يدعو الى أن يفكر الانسان بنفسه فى نفسه ، وأن ينعم النظر فى الآراء والمعتقدات ولا يأخذها قضايا مسلمة ، فان فعل المرء ذلك ذهبت القداسة التى تخلع على العادات والتقاليد والآراء الذائعة والمعتقدات الموروثة ، وتبين للمرء أن بعضها صحيح وبعضها الآخر فاسد ، وانها ليست كلها حقا بل بعضها باطل ، والقول بأن قوانين الدولة ومعتقداتها باطلة يعد « ثورة » عليها ، وأكثر من يتأثر بهذه التعاليم السقراطية هم الشباب ، لأن الشيوخ بعد اتباعهم التقاليد الجارية طول عمرهم يجمدون عليها ويصعب عليهم تغييرها أو الثورة عليها • فلما أخذ يثير التفكير ، ويسعى وراء الحق ، ويبتعد عن الباطل ، اتهمه أصحاب المصالح السياسية بأنه يؤلب الشباب ويفسده وانه كما جاء فى عريضة الاتهام مصدر متاعب للدولة ••

ومن الموازين التى يعتمد عليها النقاد فى الفصل بين المحاورة السقراطية والمحاورة الأفلاطونية ، ان الأولى لا تنتهى الى نتيجة حاسمة ، وانما تظل المناقشة مفتوحة الأبواب • حقيقى ان المنهج السقراطى باعتباره الطريق الفلسفى لا يمكن ان يصل الى نتيجة ، وانما يستمر فى البحث حتى آخر حياة المفكر ، ولا يزال المفكرون منذ سقراط الى الوقت الحاضر يقلبون الأنظار فى هذه المسائل الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والجمالية •

على هذا الأســـاس اعتبر المؤرخون محـــاورات هيباس ، وأيون ، وخرميــدس ، ولاخس ، وليسيس ، وجورجـــاس ، وبروتاجـوراس ، واطيفرون ، والدفاع ، وأقريطون ، من المحاورات السقراطية • ولم يعدوا فيدون كذلك • غير ان القدماء رتبوا المحاورات ترتيبا آخر • فجمعوا كل اربع منها بحسب موضوع متقارب في « رابوع » ، وأول هذه المجموعات اوطيفرون والدفاع وأقريطون وفيدون ، وهى تدور حول اتهام سقراط بانكار الآلهة ، ودفاعه عن نفســه فى المحكمة ، وسجنه ورفضه الهرب وفى معنى الشجاعة ، ثم فيدون وتبحث فى خلود النفس

ولما كان أرسطو قد اعتبر أن فلسفة سقراط تدور حول أمرين ، طلب الحد الكلى ، وان الفضيلة علم ، فجدير بنا النظر فى هذين الأمرين ، بالاضافة الى محاكمته لأهميتها فلسفيا •

والحد هو التعريف • والأصل فى الحد انه يضع نهاية حول شىء معين فلا يكون هــذا الشىء مبهما غامضـــا ، ومن أجل ذلك سمى الحد تعريفا ، وليس المقصود بالتحديد وضــع حدود رياضية كالخطوط أو الدوائر التى تبين معالم الأشياء المادية بل التحديد الذهنى للمعانى • فنحن نستخدم فى حديثنا ألفاظا كثيرة ، تشير الى مسميات ، ولها دلالات ذهنية • والأصل اننـا ندرك الأشياء الحسية فيكون لها صورة ذهنية موازية للكائن الحسى الموجود خارج الذهن ، ولكن الانسان بعد أن تحضر وتقدم لم يقف عند ادراك المحسوسات بل ارتفع الى المعانى الكلية التى يصف بعضها الأنواع والأجناس للموجودات الطبيعية مثل الانسان والفرس والطائر وغير ذلك ، ويصف بعضها الآخر معانى مجردة ، وبخاصة المعانى الخلقية ، كالعفة والشجاعة والصداقة وغير ذلك • ولكن تحديد الكائنات الطبيعية أو الرياضية ، أمر سهل ، لأن الصفات المحددة للنوع واضحة المعالم • خذ مثالا لذلك لفظ « المثلث » فهو « معنى كلى » ينطبق على آلاف بل ملايين المثلثات • وبحكم تعريف المثلث من انه : سطح مستو محوط بثلاثة أضلاع لا نجد عسرا فى تطبيق هذا التعريف على الأشكال الهندسية ومعرفة ما ينطبق عليها • ولوضوح الأمور الرياضية ضرب بها المثل دائما ، وبخاصة فى الزمن القديم عند اليونانيين ، وبوجه خاص عند سقراط وأفلاطون • وهل يغيب عن بالنـــا أن أفلاطون كتب على باب مدرسته : من لم يكن مهندسا فلا يدخل علينا ؟! •

الجمال والحق

تبحث محاورة هبياس الكبرى فى الجمال ما هو ، على حين تبحث هبياس الصغرى فى الحق والباطل وقد اختلف النقـاد فى صحتها ،

والأرجع ان الكبرى صحيحة النسبة لسقراط ، ويعد هبياس مثالا للسفسطائى ، فهو غريب عن أثينا من مدينة « اليس » حسن المظهر ، يجيد صناعة البيان ، كما يجيد كثيرا من الصناعات الأخرى · انه ماهر بكل شيء · يسأله سقراط عن الجميل ما هو ، وهذه اللفظة فى اللغة اليونانية تصف الشيء المادى والمعنوى معا · فنحن نسمى فعلا ما من أفعال الشجاعة انه فعل « جميل » وكذلك الفعل العادل نسميه جميلا ، ففى الحالتين توجد « صورة » واحدة تنطبق عليهما معا · اذن ما هى هذه الصورة الجميلة التى تعد الماهية الحقيقية لما نسميه الجمال ؟ · يجيب هبياس الفتاة الجميلة ، والفرس الجميلة والآلة الموسيقية ، والآنية وغير ذلك · ولكن الفتاة الجميلة ، فان جمالها نسبى وليس مطلقا وذلك بالاضافة الى جمال الآلهة · يقول هبياس ان كل شيء « ذهبى » جميل ، ولكن سقراط يعترض بأن الملعقة الذهبية لا تناسب شرب الحساء الساخن، بل الملعقة الخشبية ، وكذلك فان فيدياس لم يصنع تماثيله من الذهب ، وهو الفنان الأصيل ·

فالجميل اذن هو المناسب أو الملائم · وينتقل البحث بعد ذلك الى المجال الأخلاقى ، فمن الجميل أن يعيش المرء فى صحة ، وثروة ، وشرف ، وأن يدفن أبويه بما يليق بهما · غير ان هذه الأمثلة كلها لا تحدد التعريف الصحيح الجامع المانع · والواقع ان الدرس الذى نستخلصه من هذه المحاورة وغيرها من المحاورات السقراطية ، هو كيفية امتحان التعريف ومحاولة الوصول اليه ·

وليس الأمر كذلك فى التعاريف الرياضية · فالمساواة مثلا كما تعرض فى محاورة فيدون لا خلاف عليها ، بل هى فى الواقع بديهية موجودة فى النفس بالفطرة بحيث يستطيع المرء ان يحكم على الأشياء بأنها متساوية فيما بينها بمقتضى « مثال » المساواة فاذا كانت الرياضيات قائمة على البديهيات والمسلمات والتعريفات ، فان المعانى الانسانية ليست كذلك ، ويصعب جدا الوصول الى تعريف متفق عليه بشأنها ، بحيث ينطبق على جميع الأحوال · وهذا الطريق هو الذى سار فيه سقراط ، محاولا أن ينتهى فيه الى غاية الشوط ·

وقد جرت عادة بعض المؤرخين أن يقسموا المحاورات السقراطية قسمين ، الصغيرة من مثل هبياس الكبرى والصغرى وايون ومنكسنيوس وخرميدس وليسيس ، ثم المحاورات السقراطية الكبيرة ، يقصدون بها المعبرة عن مذهبه ، وهى جورجياس ومينوس وأوطيفرون والدفاع وأقريطون ، ويضيف بعض المؤرخين الكتب الثلاثة الأولى من الجمهورية وهى الباحثة فى معنى العدالة · مهما يكن من شيء فالخلاف حول تحديد المحاورات السقراطية والأفلاطونية شديد ·

ومحاورة جورجياس من أطول المحاورات وأهمها · وجورجياس سوفسطائى مشهور ، وخطيب ذائع الصيت ، أصله من ليونتينى وذهب الى أثينا واكتسب ثروة كبيرة من صناعة الخطابة · وحيث ان سقراط كان يعارض السفسطائيين ، فلا جرم تعد هذه المحاورة من أهم المحاورات لأنها توضح بين فلسفتين ، احداهما تقوم على العدل والحق والحكمة ، والأخرى تستند الى القوة · وهذان المبدآن موجودان منذ أن وجد الانسان ، بل ان الانسانية الحقة هى السمو على شريعة الغاب وعلى سلاح القوة كما يسود الجماعات الحيوانية فلما سما الحيوان الناطق على حيوانيته ، ابتكر صفات انسانية جديدة كالعدل والحكمة والحق وهى معان تحقق للانسان انسانيته بمعنى الكلمة وهذا ما فعله سقراط ودافع عنه ··

جاء جورجياس الى أثينا يحمل معه اسلوبا جديدا فى الحياة هو فرض ارادة القوة ، وفى المدينة تتجلى هذه القوة فى الخطابة ، والخطابة هى فى الاقناع · ونهض سقراط يدافع عن أسلوب آخر هو طلب الخير لذاته ، الذى يخضع للعدل والاعتدال ، لا للقوة وشريعة الغاب ، فالقوة هى الخير الاسمى · ومن هنا كان السلاح الذى ينبغى أن يتسلح به حاكم المدينة ليسيطر على اتباعه ويخضع خصومة هو القوة ، وقوة الاقناع بوجه خاص · وليس من المهم الوصول الى الحق فى ذاته بمقدار ما يصل الخطيب الى اقناع الجمهور بأن ما يقوله هو الحق · ينبغى اذن ان يحسن الخطيب استخدام الأسلحة التى تفيده فى تحقيق أغراضه والرجل القوى هو الذى يعرف كيف يسوس المدينة · ولكن لكى يبلغ الحاكم السلطان على الجماهير ، ينبغى أن يكون صاحب سلطان على نفسه أولا ، فالقوة الحقيقة هى كبح جماح النفس وأن يسيطر عليها ويحسن توجيهها

لم يكن جورجياس مموها يبغى التزييف والمغالطة ، كما انتهت اليه السفسطة فيما بعد ، وانما كان مؤمنا بمذهب معين ، واسلوب فى الحياة يؤمن به ، هو ان حياة الانسان تتوقف على ارادته وكفاحه ، والقوى هو الأصلح للحياة ، وهذا المذهب كان موجودا من قديم وتجدد على أيدى فلاسفة القرن التاسع عشر مثل نيتشه وشوبنهور · وفى مقابل حياة الكفاح والعمل والارادة ، يقف سقراط فى الجانب الآخر وهو الحياة الفلسفية التى تعتمد على العقل والحكمة والاعتدال ، على حين تستند الحياة التى ينادى بها جورجياس الى السعى وطلب اللذة ·

وقد كانت نظرية جورجياس سائدة فى أثينا يأخذ بها كثير من الناس ، حتى انه فى أول الجمهورية عند تعريف العدالة نجد من جملة

التعريفات أن العدالة هي مصلحة الأقوى • ولكن سقراط يرفض هذا التعريف ، كما يرفض تعريفات أخرى ، ثم يمضي أفلاطون بعد ذلك فيحل مشكلة العدل في نظرية شاملة للمجتمع بأسره ، وذلك في باقي أجزاء محاورة الجمهورية ، ويعدل أفلاطون أيضا عن نظريته التي بسطها في الجمهورية والتي كانت توفر العدل بوحي من الضمير الحي والتربية والتعليم ووضع كل امرىء في مكانه الصحيح من المجتمع ، الى المناداة بنظرية جديدة في محاورة القوانين ، تستند الى وجوب احترام القانون •

وفي القدر الذي ذكرناه عن محاولة سقراط بلوغ الحد الكلي ومناقشة التعريفات للمعاني الأخلاقية والسياسية والاجتماعية ما يكفي •

وننتقل الى الموضوع الثاني الذي وصف به أرسطو فلسفة سقراط وهو نظريته الأخلاقية •

الفضيلة علم ، والرذيلة جهل ، هذه هي نظرية سقراط •

لو علم الانسان ماهية الفضيلة ، فلا شك سيعمل بها ، ولو علم ماهية الرذيلة فلا جرم يتجنبها • وانما سادت الرذائل لجهل الناس بها وحقيقتها • ويكفي أن يكون المرء عالما بالفضائل والرذائل العلم الصحيح حتى يقبل على الفضائل ويتجنب الرذائل •

ويترتب على ذلك عدة أمور ، على رأسها وجوب البحث عن الفضائل ومعرفتها ، وهذا ما فعله سقراط ، وتجلى في المحاورات • وكذلك النظر في الفضائل هل اذا كانت علما يمكن تعليمها كما تعلم الحرف والصناعات • ثم بعد ذلك هل الفضيلة جنس واحد له وجوه مختلفة ، أم هناك فضائل مختلفة كل منها يباين الفضيلة الأخرى •

المأساة السقراطية

بقي ان نبحث المحاورات الثلاث التي تعد ذروة المأساة السقراطية ، اتهامه ودفاعه عن نفسه وامتناعه عن الهرب من السجن ، وهي المعروفة باسم أوطيفرون والدفاع وأقريطون • وقد جرت العادة ان يضاف اليها محاورة رابعة هي فيدون تبحث عن خلود النفس ، ولكن كثيرا من النقاد يعدها محاورة أفلاطونية لا سقراطية ، ولو انه من العسير فصلها عن الثلاث الأولى ، من وجهة انها تكملة طبيعية لهذه المأساة •

يلتقي سقراط بأوطيفرون في دهليز المحكمة ، حيث جاء

أوطيفرون يتهم أباه بالقتل ، وجاء سقراط ليدفع عن نفسه تهمة الالحاد وافساد الشباب ويدور البحث فى هذه المحاورة حول الدين ما هو ، وما طبيعته ، وما الالحاد ، وما التقوى ، وما الفجور · وللمحاورة صلة قوية بالأخلاق لأن الرجل الصالح هو الذى يفعل ما يرضى الآلهة · وهنا تدخل المحاورة فى بحث الدين والآلهة اليونانية ، وهل ينبغى أن نصدق ما يروى عنهم من أساطير · وتدور مناقشه حول التقوى ، فيسأل سقراط على طريقته التهكمية ويجيب أوطيفرون ، وتتعدد الاجابات · الجواب الأول أن التقوى ان يصنع المرء كما فعل أوطيفرون بأن يتهم أباه بالقتل ، وكما نجد فى أساطير الآلهة أنفسهم ·· والجواب الثانى ان التقوى · هى فعل ما يحبه الآلهة ، والفجور فعل ما يبغضونه ولا يرضون عنه ، غير انه لما كان الالهه مختلفين فيما بينهم ، فقد يسخط بعضهم عن أمر ، ويرضى بعضهم الآخر عنه ، وبذلك لا يكون التعريف صحيحا · وعندئذ يجرى تعديل للتعريف بحيث ينص على اجماع الالهة على حب الشىء ، وهذه هى التقوى · ويتضح تناقض هذا التعريف على أساس وجود مرحلتين للتقوى ، الأولى محبة الآلهة للشىء ، والثانية ان يكون مقدسا لديهم · فهل يحب الآلهة الشىء لأنه مقدس ، أم يقدسونه ومن أجل ذلك يحبونه · بعبارة أخرى هل التقوى فعل ما يحبه الآلهة أم يقدسونه ؟

تنتقل المحاورة بعد ذلك الى شىء من السخرية والفكاهة ، حين يسلم أوطيفرون ان كل تقى عادل ، وينكر أن كل عادل تقى ، ثم يسأل عن أى أجزاء العدل ، فيجيب بأنها خدمة الآلهة ، وذلك بتقديم القرابين واقامة الصلوات ، بعبارة أخرى ، التقوى علم الأخـذ والعطاء ، انها لون من « التجارة » بين الناس والآلهة ، فالناس يقدمون الصـــلوات والقرابين للآلهة ، ويأخذون فى مقابل ذلك رضاهم · ولا شك ان مناقشة سقراط تنتهى الى زعزعة الثقة بالأفكار الســائدة عن الدين وعن الآلهة ومن هنا جزع أصحاب السلطان والدولة على انهيــار الأسس التى يقوم عليهـا المجتمع ، والدين أساس مهم جدا أو دعامة قوية لاستمرار الجماعة ·

اتهم سقراط بتهم ثلاث ، انكار آلهة اليونان ، والمناداة بآلهة جديدة ، وافساد الشباب · وليس دفاع سقراط أمام القضاة من اختراع أفلاطون فان زينوفون يتحدث فى مذكراتــه عن هـــذا الدفاع ، ولكن المحاورة الأفلاطونية فيها صبغة فن أفلاطون ، وتعد من أقدم ما كتبه · وقد صور فيها سقراط ، فيلسوفا متهكما ، ســاخرا ، حتى فى هـذا الموقف الذى يوشك فيه أن يحكم عليه بالاعدام · وكان القضاة على استعداد ان يصدروا حكمهم بالعفو ، لو ان سقراط تذلل لهم ، وأظهر الندم ، ولكنه لم يبال وهو فى سن الشيخوخة أن يخون عهد الفلسفة ، وهى طلب الحقيقة واعلان الحق والجرأة فى اعلان الرأى ، والصراحـة فى ابداء ما يؤمن به المرء

ويعتقده ، لأن المداهنة والرياء مدعاة الى افساد الدولة ، والتعامي عن الحقيقة يبعد عن رقي الانسانية · وكان سقراط يعتقد فى نفسه انه مكلف برسالة الهية عليه أن يبلغها للناس ، مثله فى ذلك مثل الأنبياء والرسـل · وبالفعل صور سقراط فى محاورات أخرى انه يستمع الى هاتف باطني يتلقى منه ما يشبه الوحي السماوى · ولذلك انبرى يكذب فى دفاعه ما شاع عنه من تهمة هو منها براء ، ذلك ان شريفون أحـد تلاميذه المخلصين ذهب الى كاهنة معبد دلفى وسألها من أحكم رجل فى أثينا ، فأجابته انه سقراط · ولكن سقراط باسلوبه الساخر نفى عن نفسه أن يكون حكيما لأن الحكمة صفة من صفات الآلهة ، أما هو فانه مؤثر للحكمة وصديق لها ، وهذا هو معنى الفيلسوف فى اللغة اليونانية ، فان « سوفوس » تدل على الحكيم ، على حين ان « فيلوسوفوس » تعنى محب الحكمة ، فالآلهة حكماء ، أما البشر فانهم مهما تبلغ معرفتهم فلن يبلغوا مرتبة الآلهة ·

ولقد قيل فى معرض الاتهام ان سقراط يعلم شباب أثينا أن الشمس والقمر قطعتـان من حجر ، وليسا الهين كما يعتقد الأثينيون · ويجيب سقراط أن هذه المقالة تنسب الى انكساجوراس ، دونها فى كتابه ، وكان انكساجوراس يعيش فى بلاط بركليس (٧) ، وكان بركليس يحميه بنفوذه وسلطانه ، ومع ذلك هرب انكساجوراس من أثينا ، ويقال ان بركليس سهل له سبيل الهرب حتى لا يحاكم وينفذ فيه حكم الاعدام ·

رفض سقراط استرحام القضاة ، ورفض أن يتقدم بعض تلاميذه بدفع غرامة عنه بدلا من الحكم بالاعدام ، وأقبل على الموت راضيا ، لأن الفيلسوف هو الذى يطلب الموت ليخلد فى الآخرة ، ولكى تتخلص النفس من سجن البدن ، وتنعم بالمعرفة فى عالم المثل ·

والفصل الثالث فى ماساة المحاكمة ، هو وضع سقراط فى السجن حتى تحين ساعة تنفيذ الحكم ، حيث بقى حوالى شهر حتى تعود السفينة المقدسة من رحلتها الى معبد ديلوس ، وهو شهر حرام لا يعدم فيه مجرم · وجاء أقريطون قبل الفجر يغرى سقراط بالهرب من السجن · غير انه رفض الهرب ، اذ فى نظره أن الخضوع لقوانين الدولة حتى لو كانت ظالمة أفضل من الهرب منها انقاذا لمصلحة الفرد · لقد عاش سقراط طيلة حياته ينادى باصلاح الدولة ، وايثار مصلحتها على مصالح الفرد ، وتمجيد القوانين التى بها تستقر الأمور فى المجتمع ، والدعوة الى احترام القانون واتباع النظام ، وبهما يتوفر العدل · ذلك ان الخير والشر هما فى الواقع أمران نسبيان بالاضافة للمجتمع ، فالخير خـير اذا عادت فائدته على المجتمع ، وتعود فائدته فترجع على الفرد ، والشر شر اذا أساء الى المجتمع

وعندئذ يصاب الفرد بالضرر ٠ وهذه هى النظرية التى نماها أفلاطون فى الجمهورية ، حين أجاب على السـؤال الذى بدأه فى تلك المحاورة عن العدالة ما هى ، فجاء الجواب بأن الدولة كلها ينبغى اصلاحها بجميع أجزائها ، وان يوضع كل فرد الموضع اللائق به ٠ فالعدالة لا تتحقق فرديا بل اجتماعيا ، ولذلك سميت جمهورية أفلاطون بأنها شيوعية ، أو اشتراكية والحقيقة أن أفلاطون يعد هو المبشر الأول بالاشتراكية من قديم ، بتقديم مصلحة المجتمع على مصلحة الفرد ٠

ولو أن سقراط قبل الهرب لكان موقفه متعارضا تماما مع فلسفته التى استمر على التبشير بهـا واذاعتها فى تلاميذه ٠ وكيف يهرب وقد رفض فى المحكمة أن يخضع لشتى الاغراءات التى قدمت له لتفادى الحكم المحتوم ٠ ومن هذا يتضح أن فلسفته تتلخص فى انقاذ المدينة من الفساد ، والابقاء عليها خشية الانهيار ٠ وقد ارتفع شأن أثينا فى زمانها ، وبقيت خالدة على مر العصور ، بتمسكها بهذه التعاليم التى نادى بها سقراط ، من حرية ابداء الرأى ، والدعوة الى الديمقراطية فى مقابل حكومة الطغيان والاستبداد ، والدعوة الى الفضيلة والخير ، لأن الأخلاق الفاضـلة هى الأساس الذى ينبغى أن تقوم عليه الدولة ٠

وقد كانت محاكمـة سقراط ، ودفاعه عن نفسـه ، وامتناعه عن الهرب ، وموته ، كل ذلك مثالا حيا على التفانى فى سبيل العقيدة الفلسفية الصحيحة ٠

مقتطفات من محاورات سقراط

١ ـ التقوى والفجور

(من محاورة اوطيفرون)

سقراط : وما التقوى وما الفجور ؟

أوطيفرون : التقوى ان تفعل ما أنا فاعل ، أعنى أن تقيم الدعوى على كل من يقترف جريمة القتل أو الزندقة أو ما الى ذلك من الجرائم ، سواء أكان أباك أم أمك أم كائنا من كان ، فذلك لا يبدل من الأمر شيئا ٠ وأما الفجور فهو ألا تقيم على هؤلاء الدعوى ٠ وأرجو أن ترى يا سقراط الدليل الساطع الذى أقيمه لك على صدق ما أقول ، وهو دليل سقته بالفعل الى سائر الناس برهانا على مبدأ ان الفاجر لا ينبغى أن ينجو من العقاب كائنا من يكون ٠ ألا ترى الناس كيف يعدون زيوس أفضل الآلهة وأقدمهم مع اعترافهم بأنه كبل سلفه كرونوس لأنه مزق أبنـاءه تمزيقا مروعا ٠ بل انهم ليقرون انه أنزل العقاب بأبيه نفسه أورانوس لسبب شبيه بهذا عقابا يفوق الوصف ، ثم يغضبون منى اذا أنا أقمت الدعوى على أبى ٠ وهكذا ترى الناس يتناقضون فى موقفهم ازاء الآلهة وازائى ٠

٢ ـ احترام القوانين

(من محاورة الدفاع)

سقراط : أينبغى للانسان أن يفعل ما يراه حقا ؛ أم ينبغى له ان ينقض الحق ؟

أقريطون : يجب على الانسان أن يفعل ما يظنه حقا ٠

سقراط : ولكن ما تطبيق هذا ان صح ؟ هل أسىء الى أحد ان تركت السجن رغم ارادة الاثينيين ؟ أو بعبارة أخرى ، هل أخطىء فى حق أولئك الذين ينبغى أن يكونوا أبعد الناس عن الاساءة ؟ ألا يكون فى ذلك هجران للمبادىء التى اعترفنا جميعا بعدالتها ؟ ماذا تقول فى هذا ؟

أقريطون : لست أدرى يا سقراط ، فلا أستطيع أن أقول شيئا ٠

سقراط : اذن فانظر الى الأمر على هذا الوجه : هبنى هممت بالأبواق فجاءت الى القوانين والحكومة تسائلنى : حدثنا يا سقراط ، ماذا أنت فاعل ؟ أتريد بفعلة منك أن تهز كياننا ، أعنى القوانين والدولة بأسرها بمقدار ما هى فى شخصك ماثلة ؟ هل تتصور دولة ليس لأحكام قانونها قوة ، ولا تجد من الأفراد الا نبذا واطراحا ان تقوم قائمتها فلا تندك من أساسها ؟ فبماذا نجيب يا أقريطون عن هذه العبارة واشباهها • وسيكون مجال القول متسعا لكل انسان ، وللخطيب البليغ بنوع خاص ، عندما يهاجمون هذا الشر الذى ينجم عن اطراح القانون الذى لابد لحكمه من النفاذ • وربما أجبنا نحن : « نعم ، ولكن الدولة قد آذتنا ، وجارت علينا فى قضائها » هبنى قلت هذا •

أقريطون : جميل جدا يا سقراط •

سقراط : سيجيب القانون : « أفكان ذلك ما قطعته معنا من عهد ، أم كان لزاما عليك أن تصـــدع بما حكمت به الدولة » • فان بدت على علائم الدهشة من قولهم هذا ، فربما أضـــاف القانون قوله : « أجب يا سقراط بدل ان تفتح لنا عينيك وقد عهدناك سائلا ومجيبا • حدثنا : ما شكاتك منا ، تلك التى تسوغ لك محاولة هدمنا وهدم الدولة معا ؟ وفوق كل شىء ألم نأت بك الى الوجود ؟ ألم يتزوج أبوك من أمك بعوننا فأعقباك ؟ قل ان كان لديك ما تعترض به على أولئك الذين ينظمون الزواج منا » • وهنا لابد من اجابتى أن لا • « أو على أولئك الذين منا ينظمون طرائق التغذية والتربية للأطفال وفى ظلها نشأت أنت • ألم تكن القوانين التى نهضت بهذا على حق عندما طلبت من أبيك أن يدربك على الموسيقى ورياضة البدن » • وهنا يلزم أن أجيب انها كانت على حق • « حسنا فان كنا قد أتينـــا بك الى العالم ، ثم أطعمناك فانشأناك ، أفأنت جاحد انك قبل كل شىء ابننا وعبدنا كما كان آباؤك من قبل ؟ فان صح هذا فلسنا واياك سواسية ، حتى تظن من حقك أن تفعل بنا ما نحن بك فاعلون • وهل يكون لك أدنى حق فى أن تنال أباك أو سيدك ، ان كان لك أب أو سيد ، بالضرب أو الشتم أو بغير ذلك من السوء ، اذا وقع عليك منه ضرب أو شتم ، أو أصابك منه غير ذلك من الشر • لا نخالك قائلا بهذا • واذا كنا قد رأينا ان من الصواب اعدامك ، أفتظن ان من حقك ان تجازينا اعداما باعدام » •

فكر سقراط

جعل الحكمة فنا جميلا

ولكن ·· وبعد ان استعرضنا المحاورات السقراطية والتى خلدت اسم سقراط طوال القرون الماضية ·· ما هى أهمية سقراط فى تاريخ الفكر الانسانى ؟

لقد كان فى حياة سقراط جانب « أثينى » وجانب انسانى · وقد بلغت أثينا هذا الجانب الانسانى فيما خلقت عقول الأكثرين من بنيها : فقد تجاوزوا فى خلقهم حاجة العـــمة الى افاق الكاملين ، فلا يكادون يصورون شيئا حتى نرى الانسان الحى فى كل أرض ولا يتحدثون عن شىء حتى يصغى الى ضمير الانسان النبيل فى كل دهر · ولكن هذا الجانب الانسانى الكامل فى حياة سقراط انما كان ـ لو تفكرنا ـ سببا الى غاية عزيزة على الأثينيين وهى سعادة أثينا نفسها · فالانسان كائن سياسى كما يقول أرسطو : فهو يعيش بآماله وأعماله لمجد المدينة ، ولا تسعد المدينة الا بفضائل الصالحين من بنيها · وكانت غاية سقراط أن ينهض الى خلق من يسميهم « حراس المدينة » ـ أى حاكميها ـ حراسا ساهرين على سعادة أمنهم ·

وقد شغف سقراط حبا بمدينته وعاش لا يخبو فى قلبه هذا الحب ولا ينصرف عنه لناحية من نواحى المنافع الدنيا ، وقد استأثرت أثينا بأفئدة العالمين وآمال الصالحين من بنيها ، واشرأبت أعناقهم الى المجد الذى يسمو بأمتهم الى الخلود · وقد رأيناهم يؤمنون بهذا الخلود ايمانا لا ريب فيه ، وقرنوا هذا الخلود بمـا تصنع أيديهم من صور الجمال والخير · ولا سبيل لأمة أن تبلغ ما بلغت أثينا حتى يجاوز بنوها نطاق الهوان ويحطموا فى أنفسهم أغلال المادة ويمضوا مصعدين لا يلوون على شىء من دون الكمال · ولو انهم قنعوا بما يقنع به عامة الناس من رضا ومرت بهم الحياة دون أن تخرج الأنفس كنوزها من الجمال والعقل ما قدست أمتهم فى أفئدة العالمين · وما كان عبثا ان تحج الانسانية العالمية الى أثينا وتطأ مواقع أقدام الحكماء والشعراء والخطباء والمصورين ، فلم تقنع أثينا من بنيها الصـــالحين بشىء دون أن يحملوا نور الجمال والخير الى

العالمين · وقد طوت الأقدار أرض أثينا لحراب الغالبين غير مرة لكنهم انه تكشفرا ما تضمر هذه المدينة من نور كمال انسـانى تبعوا عنه شعاعها كالطفل الجاهل السامع المطيع · وصغرت عليهم حرابهم واعزوا هـذه الأرض التى غطت بتراثها الأبطال والحكماء · وما كان عبثا ان يقول قائل منهم « ان أرواح الأبطال حراس للوطن » · وفى أرض هؤلاء الأبطال تخر الجباه سجدا للجمال المفرد العلم الذى سما بالانسان الى آفاق الخير والكمال ، وفى آثار هؤلاء الأبطال تمتد آمال الصالحين من كل أرض وفى كل زمان لتتلقى نور الانسانية وتسمو بالانسان الى ما خلق له حقا من الكرامة والخير ··

● وكان سقراط يصغى فى ضميره لدعاء أمته التى تدعوه فى صحوه وفى منامه « خذ نفسك بالفنون الجميلة » ثم يتلو عليه هاتفها نداءه غير مرة « خذ نفسك بالفنون الجميلة » · ويحار هذا الحكيم فى تأويل هذه الأحلام فما كان سقراط بشاعر ليمضى فى الشعر ، وما كان سقراط بموسيقى ليمضى فى الموسيقى ، وما كان مصورا ولا مثالا ليخلق مثل ما خلق « فيدياس » وتلاميذه من الصور والتماثيل ··· وقنع سقراط بأن يجعل الحكمة فنه الجميل الذى يعيش ويموت له ··· فلم يعمل أبناء أثينا عملا مفاجئا متقطعا تمليه صحوة فى ساعة من ساعات العمر ، وانما كانت أعمالهم أعمارا ، وكانت أعمارهم أعمالا يحيون ويموتون لأمل مفروض لا تحيد عنه نفوسهم ·· ومن وراء أعمارهم تمتد ايمانهم بمشاعل الخير والجمال الى الناس ·· حتى اذا قضت أمتهم فلم ينهض من بنيها ناهض يتلقى هذه المشاعل باليمين مكثت هذه الأيدى تمتد الى الانسانية جمعاء وما تزال تمتد بنور الانسانية الى أن يشاء الله

وكان الفن الجميل الذى وهب له سقراط نفسه حيا وميتا هو ان يعلم أمته فن السياسة الحق وكانت قد أغفلته ساعة غابت معالم الحق فى نيل المطامع والفتن ···

لا تصلح هذه السياسة الا بما صلح به أولها وهو الفضيلة والعدل ·· وستستمع اليه طائفة ولا تعى نداءه طائفة · وتغرب ساعة أثينا بعد ساعة سقراط ، ولكن حكمة الأقدار قد صيرت أثينا شيئا أشبه بأبطالها فلا يكاد يطويها الغروب حتى تشرق من ناحية أخرى شمس ليست أدنى بهجة من شموس الحياة ، وتضىء معالم السبيل للانسانية جميعا · وتمتد آفاق أثينا فتحتضن آفاق الانسان من كل جنس ، وتكون حياة بنيها الصالحين أسوة للصالحين ، وتسمع نداءها ونداءهم فى الخالدين ···

ونادى سقراط قومه فقـال يا قـوم انه لا يصلـح لسياسة أمة الا الفاضلون ، والفضيلة الاجتماعية السياسية هى العدالة ·· وهى جامعة

لسائر الفضائل ، وما كان أمرها بيسير على كافة النفوس لأنها تكليف في سبيل سعادة الآخرين ٠

وقد حسب أرسطو ان نداء سقراط لا يفسر معنى الفضيلة السياسية الحقة ، لأن الفضيلة اذا أخذت على علاتها قد تلقى فى أذهان الناس معنى الفضيلة السلبية التى تعتزل ولا تشارك فى سياسة الأمة ٠ فليس يكفى أن يكون السياسى فاضلا كاملا دون أن ينهض الى سياسة أمته ، وليس يكفى أن يقبع فى عزلة هادئة طيبة لا تتلاطم من حولها الأمواج ولا تعصف بها الأعاصير ، وان ينعم هنالك بنعيم فضله وعقله فى صفاء السكون ٠٠٠ ولا قدر لهذه الفضيلة السياسية من دون نضال وجهاد ٠٠ حتى يجاهد المرء نفسه فى نشوة الحكم ٠ ولا قدر لهذه الفضيلة السياسية من دون نضال فى سبيل الخير العام ٠ حتى يناضـــل المرء ما يلقى من أهــواء وما يعوقه من معوقات الأشياء والأحياء ، وحتى يحمل العبء حكيما عادلا صالحا نقيا عالما شجاعا ٠ وما تغنى هذه الفضيلة عن أحد ان اعتزل لأمر وخلى السفينة للمفسدين ٠ « اننا لا نجعل بطولة الاولامب الا للمصارعين الذين يصارعون فى ساحة البطولة بأنفسهم وما يكفيهم أن يكونوا أجمل الناس ولا أقوى الناس ولكنهم لا يبلغون تاج البطولة حتى يصارعوا فى سبيل هذا التاج » ٠

ومن أجل ذلك فليس يحل لأحد أن يكون فاضــلا حقا حتى يولى فضيلته وكماله شـــطر صالح أمته ٠٠ وقد ظهر فى الفلاسفة من بعـد سقراط مذهب المعتزلين الذين يجتنبون السياسة فى ســبيل الحكمـة ويؤثرون العافية على النضال ٠٠٠ وقد حسب كثير من الأثينيين سقراط من المعتزلة لأنــه لا ينهض الى منبر الخطابة فى « الأجورا » كســـائر السياسيين ، ولام الأثينيين الذين لم يستمعوا اليه ولم يعلقوا هذا المذهب العجيب ، اذ يرونه شيخا كبيرا منبثا بين أطفال أثينا يقضى بينهم نهاره وطرفا من الليل وخالوه مجنونا ٠٠ غير ان سقراط شاء ان يدفع السيل من منبعه وانبث بين الناشئين من حياتهم الأولى ليعصمهم من سيئات المطامع وليصيرهم حراسا وحكاما صالحين ، وكان بعد ذلك جنديا شجاعا لا يزلزل أركان نفسه خوف ولا يحرص على شىء من أنفال الحرب ويلقى الى أصدقائه ما يقسم له من مغانم القتال ٠ وكان اذا قضى لا يحسب حسابا لأهواء الأثينيين وان غضبوا وان سخطوا ، ولا يحكم الا بالعدل وبما ينفع الناس ، وكان يمشى الى الصالحين العالمين فيحرضهم على أن يحملوا أمانة السياسة ٠

وهذا دليل على ان سقراط كان يدعو الى فضيلة ايجابية علما وعملا ، فيحض الصـــالحين ويثبط الجاهلين ويحارب مواطن العلة فى نفوس

الأثينيين • وقد أثرت عنه عبارة ما تزال أصدق حكمة المعلمين : « ان أكبر ما على المعلم ان يضيء جذوة المجد فى نفس المتعلم ، فان علم الطلاب انه لا خير لهم حتى يكونوا رجالا صالحين هان عليهم فى سبيل العلم كل جهد وبلغوا بأنفسهم غاية السبيل » • ولا سبيل لمعلم ان يوقد فى أفئدة المتعلمين جذوة المجد ، حتى يكون فى نفوســهم كاملا ، وحتى يكون عالما مؤمنا ، وحتى يبصروا خلال حياته وعلمه شعاعا من قبس المجد الذى تولى اليه آمالهم • وهيهات ان يبلغ هذا المجد كل معلم ، والذين بلغوا هذا المجد كانوا هداة رسلا ، وكانوا بعد ذلك « ورثة الأنبياء » • وكانت اثينا تعد الشاعر معلما ولا يكون الشاعر شاعرا حقا حتى يجعل أمته أمة صالحة • وكانت تعد الحاكم معلما ، ولا يكون الحاكم حاكما حقا حتى تضير أمته أمة صالحة • وكانت هذه غاية المعلمين فى كل فن • فليس التعليم بقاصر على طائفة تبيع معرفتها بمال قليل أو كثير ، ثم لا تستطيع أن تحيى قلبا ولا تستطيع أن تسمو بنفس ، ولا تستطيع أن تخلص لرسالتها اخلاص المؤمنين • كان سقراط لا يبيع علمه بمال ، وكان مؤمنا برسالته خالصا لها لا يريد جزاء على ما أنفق فيها سوى أن يبصر تلاميذ خيرين صالحين ، والا أن يستمتع بوفائهم لأن الصداقة الوفية الطيبة أطيب متاع الحياة •

ولا يقنع سقراط بان يغشى ســاحات الرياضة ليلقى تلاميذه وأن يصحبهم الى أحضان الطبيعة الجميلة لينعموا واياه بجمال النسيم ما يحمل النسيم من عبق الزهر ومن أصـداء الهوام ، ثم يزودهم بعدئذ بحكمته ولم يخرج فى ذلك عن بساطة الصديق، ولا يلقى تلاميذه بعلم مأثور محفوظ وانما كانت معرفته « مذاكرة » • وأوتى سقراط مقدرة معجزة من احياء ما نسيت نفوس سامعيه من قيم الخير وأصول الجمال ، ولا يغمرهم بأثر محفوظ معلوم وانما يسألهم وهم يجيبون دون أن يعتمدوا فى جوابهم على رأى محفوظ موروث • وشاء سقراط بذلك ان يحيى ما أغفل تلاميذه من معانى الفضيلة التى اعتزت بها أثينا من قبل ، وأقامها بالحوار على ضوء العقل •

« اعرف نفسك بنفسك » ذلك كان مبدأ مدرســة سقراط ، أى استخراج ما بطن من صور الجمال والخير من نفسك • وعرف سقراط كيف يستخرج هذه المعانى مما كمن فى أفئدة ســامعيه ، وعلمهم كيف يشعرون ويتفكرون بمنطق صارم شديد •

وكان يتخذ كل سبيل فى اغرائهم بالفضيلة ، وكان يحب أن يحفظوا قول « برودكوس » عن الفضيلة :

« انه لمن اليسير ان تبلغ الرذيلة زرافات ووحدانا ••• فسبيلها

معبدة قريبة المنال · وأما الفضيلة فقد فرض الآلهة الخالدون من دونها عرق الجبين ، وسبيلها قائمة شاهقة عصية أول الأمر فاذا بلغنا شرفها رأيناها هينة يسيرة رغم عنائها » ·

ويذكرهم بقول « أبيكاروس » : « إن الآلهة آتتنا الفضيلة لقاء ما ننفق في سبيلها من نصب » ثم يمضي سقراط يلقي عليهم نبأ الأولين في الفضيلة : فقد ذكر الحكماء ان « هراقليس » (٨) قد شب عن الصبا ووقف لدى الشباب لا يدرى ما يفعل ، فان للحياة سبيلين لمن أراد أن يمضي فيها : سبيل الفضيلة وسبيل الرذيلة · فاتخذ مكانا قصيا لا يدرى ما يختار ، فأقبلت عليه امرأتان جاءته احداهما تمشي على استحياء ، وهي ذات وجه حر نبيل وهي متئدة عاقلة ، وتلبس ثيابا بيضاء ·· وأما الأخرى فهي رخوة غضة بضة تغطى وجهها بطلاء أبيض وتحمر خديها بطلاء أحمر لتبدو أجمل مما خلقها الله · تتخاطر في مشيتها متعالية لتبدو أعلى مما هي ، ولا تسبل جفنيها حياء ولا تكف عن النظر الى نفسهـا تريد أن ترمقها الأبصار ولا تفتأ تنظر الى ظلها ·· اقبلتا الى هراقليس فأما الأولى فقد سارت متئدة ثابتة الخطى وأما الثانية فقد أسرعت تهرول الى ذلك الفتى ، وقالت : « يا هراقليس ·· انى أجدك حائرا لا تعلم ما تختار فان صحبتني فسأمضى بك في سبيل اللذات والهوى فلا تغنى بشيء من العيش ولا تهتم بحرب ولا تشغلك السياسة ، ولكنك تقضى زمانك سعيدا متمتعا بمتاع الطعام والشراب ولذة السمع والبصير وحلاوة اللمس والحس وشهوة الهوى وتستمتع بالفراش الناعم ، وستجد كافة هذا المتاع هنيئا مريئا ، ولا تخف ان أسالك يوم ينضب معين هذه اللذات ان تنفق في سبيلها هما ولا عناء ·· ولكنك ستعيش على ما أنفق الآخرون من جهد ، ولا تتورع عن نفع يجيئك من ناحية من النواحي ، وأنا أهيىء لرفاقي أن ينالوا المنافع حيث كانت » ·

فلما استمع اليها هراقليس قال لها : أيتها المرأة ما اسمك ؟ فقالت ان رفاقي يدعونني « الهناءة » وأما أعدائي الذين يكرهونني فانهم يسبونني ويسمونني « الرذيلة » · ثم جاءت الأولى وقالت : « وأنا أيضا أتقرب اليك يا هراقليس فأنا أعـرف أبويك وأعلم نفسك منذ الصبا ، فان سلكت طريقي فستبنى ما يمجدك ويبقيك ثم تجعل لى فى الصالحين ذكرا عاليا وبهاء ونورا ، ولست بباسطة لك في مغريات المتاع ولكنى اقص عليك الأمر بالحق كما خلقته الآلهة ··· ان الآلهة لم تقدر لأحد مجدا من دون مشقة ولا عناء ، فان أحببت ان يبارك الله سعيك فيجب ان تعبده ، وان شئت ان يحبك أصدقاؤك فيجب أن تحسن اليهم ، وان أردت أن يمجدك

وطنك فيجب أن تنفعه ، وان ابتغيت أن يتمدح اليونان جميعا بقدرك فيجب أن تعمل صالحا ، وأن أردت ان تؤتيك الأرض ثمارها فيجب أن تثمرها وان أردت أن تكثر رعيتك فيجب أن ترعاها . فاتبعنى اذن ولا تتبع سبيل الشهوات » .

واختارت الآلهة لهراقليس سبيل الفضيلة وجنبته سبيل الهوى



الموسوعة الأبقراطية

أبقراط

٣٧٥ ق.م

الاســـاطير الاغريقية القديمـة تعتبر ان « اسـكليبيوس » (٩) ابن أبوللو ــ هو اله الطب • ولهذا فقد أقيمت في شرفة المعابد والهياكل التي يحضر اليها المرضى والمصابون ليقدموا القرابين ويقيموا الصلوات طلبا للشفاء والصحة • وقد وجد الكهنة الملحقون بهذه المعابد فى ذلك فرصتهم ، فألفوا فيما بينهم رابطة متماسكة ، وأطلقوا على أنفسهم لقب « الاسكليبديون » نسبة الى اله الطب • واقتصرت الخبرات والممارسات الطبية عليهم ، فهم يحتفظون بالمعارف الطبية ويخبئونها ويعدونها أسرارا مقدسة ، ولا تنتقل الا من الأب للابن • ولعل من المناسب أن نسمى أعضاء هذه الرابطة « بالاطباء الكهنة » أو « الأطباء الفلاسفة » ، فهم يربطون ويخلطون ما بين الممارسات الطبية وبين مهنتهم الأساسية بالمعابد والأفكار الفلسفية السائدة عن الكون •

والقاعدة المعروفة عندما تكون للمعارف والمعلومات فى أى مجال من المجالات سرية ، هى انها تكون دائما فى خدمة الطبقات المسيطرة • وهذا ما حدث فعلا فى اليونان القديمة ، بل وفى الحضارات التى سبقتها أيضا ، فقد كان الكهنة الأطباء لا يعالجون الا السادة والأغنياء • اما العامة من الشعب فكان علاجهم محصورا فى نطاق المسنين والمسنات الذين يستخدمون أساليب الشعوذة والسحر بشكل أساسى •

والاتجاهات العامة التى كانت تسود دائرة الطب والعلاج فى اليونان القديمة قبل أبقراط كانت اتجاهات تخمينية غيبية وفلسفية فى الغالب الاعم •• أما المشاهدة الدقيقة والتجربة فلم تكن تشكل الأساس الضرورى ، والأمثلة التالية توضح ذلك :

ــ فنحن نجد « فيلا لاوس » من المدرسة الفيثاغورية يؤسس تصنيفه لأجهزة جسم الانسان على الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت بأهمية الرقم

اربعة ٠٠ فالأجهزة الأساسية عنده هى : أجهزة التكاثر ، والبطن ، ولعله يقصد « الجهاز الهضمى » والقلب كمركز للاحساس ، والمخ كمركز للعقل ٠

ـ ونجد مدرسة « امبذوقليس » متأثرة بالتأملات الكونية الفلسفية تفسر حالة الحمى على انها زيادة فى العنصر الساخن عند المريض ، والزكام مثلا على انه زيادة فى العنصر البارد ٠٠٠ وهكذا ٠ والمريض فى الحالة الأولى يحتاج الى تبريده ، وفى الثانية يحتاج الى زيادة حرارته ٠٠٠ وهو ما يؤدى بالطبع الى نتائج سيئة ٠٠

ـ ونجد أيضا هذه المدرسة الأخيرة تقول ان الانســان يكون أحد اربعــة :

دمويا أو صفراويا أو مخاطيا أو سوداويا ٠ وواضح تاثرها أيضا بالاعتقاد فى الرقم أربعة ٠

وخــلال القرنين الخامس والرابع قبل الميــلاد كان العصر الذهبى للتنوير فى اليونان القديمة ، حيث ظهرت الأسماء الكبيرة من الباحثين عن المعرفة مثل سقراط وسوفوكليس وأفلاطون ٠٠ الذين تمعنوا وتأملوا فى طبيعة الانسان والكون ٠ ورغم بعض التمزقات فى المجتمع الاغريقى الذى ينقسم الى سادة وعبيد ويتسم بالتخلف الصناعى بالمقارنة بمجالات النشــاط الفكرى ، الا أن الوقت كان مهيئا والحاجة ملحة لظهور عقل علمى ليحرر الممارسة الطبية من القيود الاسطورية والخرافية والفلسفية ، ويؤسسها على مزيد من المشاهدات ٠

وظهر أبقراط « وهى فى الأصل هيبوقراط » بجزيرة « كاوس » فى بحر ايجه ، حيث ولد عام ٤٦٠ قبل الميلاد أى قبل ظهور الاسكندر الأكبر بحوالى مائة عام ٠ ولم يعرف الا القليل عن حياته الخاصة ٠ ويبدو أن والده كان عضوا فى رابطة « الأطباء الكهنة » بمعبد جزيرة « كاوس » ٠ وكالعادة فى ذلك الوقت ، اكتسب الابن أسرار فن الشفاء والعلاج من أبيه ، وأبدى تفوقا فى التحصيل ، مما دفع الأب الى البحث عن أفضل المدرسين الموجودين فى ذلك الوقت ٠ ومن المعتقد أن « ديموقريطس » صاحب النظرية المادية الذرية كان أحد معلميه ٠ وكما كان «ديموقريطس» متجولا فى أنحاء العالم لاكتساب المعــارف الواسعة عن العلوم الطبيعية والفنون الجميلة والفلسفة ، أصبح أبقراط الصغير زائرا هو الآخر لكثير من مراكز التعلم فى العالم القديم ٠ لقد ذهب الى أثينا ولعله قد التقى بأفلاطون أعظم المعلمين فى عصره ٠ والواقع أن أفلاطون قد أشار فى بعض كتاباته الى أبقــراط كمعلم طبى عظيم ، كمــا نقل عنه بعض أقواله المهمة فى مجال الطب ٠٠ مثل : « ان أحدا لا يستطيع فهم طبيعة جزء من أجزاء الجسم دون أن يفهم طبيعة كل الكائن الحى » ٠ وهى توضح مدى احساسه بالعلاقة بين الجزء والكل ٠

مؤلفات ابقراط

ويذكر المؤرخون أن أبقراط قد ألف ما يقرب من ثلاثين كتابا أهمها :

الأول : كتاب الأجنة • ويتناول فيه كون المنى وكون الجنين وكون الأعضـــاء •

الثانى : « طبيعة الانسان •

الثالث : « الأهوية والمياه والبلدان •

الرابع : « الفصـــول •

الخامس : « المعرفة • وضمنه تعريف العلامات التى يقف بها الطبيب على أحوال المرضى •

السادس : « الأمراض الحادة •

الســابع : « أوجاع النساء •

الثــامن : « الأمراض الوافدة •

التــاسع : « الاخلاط •

العــاشر : « الغذاء •

الحادى عشر : « القاطيطرون أى حانوت الطبيب •

الثانى عشر : « الكسر والجبر •

هذا وقد فسر جالينوس معظم كتب أبقراط وشرحها ونقل المترجمون العرب والسريان هذه الشروح الى اللغة العربية • وما زالت لهذه الشروح مخطوطات موجودة فى أياصوفياوينى جامع بتركيا •

قسم ابقراط

كان لأبقراط ولدان هما « ثاسلس وذواقن » وتلميذ فاضل جاد هو « فولويس » فعلم ابنه وتلميذه صناعة الطب مع الافضاء اليهم بأسرارها ودقائقها • ولما رأى أن هذه الصناعة ــ التى يكبرها ويجلها ــ أوشكت

أن تخرج منهم الى غيرهم ، وضع عهدا : استحلف فيه المتعلم لها : أن يكون ملازما للطهارة والفضيلة · وعرف فيه جميع ما يحتاج اليه طالب الطب ·

لقد أقسم أبقراط بأبللو الطبيب وباسكلييوس ، وبهجيائيا Hygiaea وباناسيا Panacea وبكل ما هو مقدس ، وأشهدهم جميعا على أن :

- أنفذ هذا القسم وأوفى بهذا العهد بقدر ما تتسع له قدرتى وحكمتى ·
- وأن أضع معلمى فى هذا الفن فى منزلة مساوية لأبوى ، وأن أشركه فى مالى الذى أعيش منه ، فاذا احتاج الى المال اقتسمت مالى معه ، وأقسم أن أعد أسرته اخوة لى ، وأن أعلمهم هذا الفن اذا رغبوا فى تعلمه ، من غير ان أتقاضى منهم أجرا أو ألزمهم باتفاق ·
- وأن ألقن الوصايا والتعاليم الشفوية وسائر التعاليم الأخرى لأبنائى ولأبناء أستاذى وللتلاميذ المتعاقدين الذين أقسموا يمين الطبيب ولا ألقنها لأحد سواهم ·
- وسوف أستخدم العلاج لأساعد المرضى حسب مقدرتى وحكمتى ، ولكن لا أستخدمه للأذى أو لفعل الشر ·
- ولن أسقى أحدا السم اذا طلب الى أن أفعل هذا أو أشير بسلوك هذا السبيل ·
- كذلك لن أعطى امرأة صوفة لاسقاط جنينها ، ولكنى سأحتفظ بحياتى وفنى كليهما طاهرين مقدسين ·
- ولن أستعمل المبضع ولو كنت محقا فى استعماله ، لمن يشكو حصاة ، بل أتخلى عن مكانى لمن يحذقون هذا الفن ·
- واذا دخلت بيت انسان أيا كان ، فسأدخله لمساعدة المرضى ، وسأمتنع عن كل اساءة مقصودة أو أذى متعمد ·
- وسأمتنع بوجه خاص عن تشويه جسم أى رجل أو أية امرأة ، سواء كانا من الأحرار أو من الأرقاء ·
- ومهما رأيت أو سمعت فى أثناء قيامى بفروض مهنتى ، وفى خارج مهنتى فى خلال حديثى مع الناس ، اذا كان مما لا تجب اذاعته ، فلن أفشيه · وسأعد أمثال هذه الأشياء أسرارا مقدسة ·

فاذا ما ألزمت نفسى بإطاعة هذا القسم ولم أحنث فيه ، فانى أرجو أن أشتهر مدى الدهر بين الناس جميعا بحياتى وبفنى ، أما اذا نقضت العهد وحنثت بالقسم فليحل بى عكس هذا » .

ويضيف أبقراط الى هذا ان من واجب الطبيب أن يحتفظ بحسن مظهره الخارجى ، وأن ينظف جسمه ويتأنق فى ملبسه . ويجب عليه أن يكون هادئا على الدوام ، وان يكون سلوكه بحيث يبعث الثقة والاطمئنان فى نفس المريض .

ويجب عليه :

« أن يعنى بمراقبة نفسه ، و ... وألا يقول الا ما هو ضرورى ... واذا دخلت حجرة مريض فتذكر طريقة جلوسك ، وكن متحفظا فى كلامك معتنيا بهندامك ، صريحا حاسـما فى أقوالك ، موجزا فى حديثـك ، هادئا ... ولا تنس ما يجب أن تكون عليه أخلاقك وأنت الى جانب فراش المريض ... واضبط أعصابك ، وازجر من يقلقك ، وكن على استعداد لفعل ما يجب ان يفعل ... وأوصيك ألا تقسو على أهل المريض ، وأن تراعى بعناية حال مريضك المالية ، وعليك أيضا أن تقدم خدماتك من غير أجر ، واذا لاحت لك فرصة لأن تؤدى خدمة لانسان غريب ضاقت به الحال ، فقدم له معونتك كاملة ، ذلك انه حيث يوجد حب الناس يوجد أيضا حب الفن » .

لقد مات أبقراط قبل ألفى عام . ولكن قسـمه خالد يذكره كل طبيب ولو مرة واحدة على الأقل فى حياته عندما ينتهى من دراسته . وانا لنرجو ان يظل هذا القسم العظيم عالقا بأذهان الأطباء . واذا كنا قد أتينا على ذكر هذا القسم فلكى يقف الناس جميعا على المثل العليا التى أرساها أبقراط فى الطب والتى يجب على الطبيب تعهدها والتمسك بها .

ولقد استطاع أبقراط أن يحافظ على هذا العهد طوال حياته ، فعاش سعيدا موفقا وترك تراثا خالدا لا ينسى .

أول مدرسة طبية علمية

وعندما توفى أبقراط عام ٣٧٠ ق.م عن تسعين عاما ، كان قد أنشأ أول مدرسة طبية لها اتجاه علمى حقيقى ، وكان قد خلف ثروة من المعارف والتوجيهات أصبحت أساسا جيدا للعمل فى ميدان الطب والعلاج لقرون طويلة من الزمان ، ولعل من أهم ملامح هذا الاتجاه وهذه الثروة ما يلى :

تأكيد أبقراط الشديد والمتكرر فى كل مناسبة على أنه ينبغى على الطبيب المعالج دراسة المريض ككل وليس مجرد مرضه فقط ٠ ولكى يكون التشخيص سليما ينبغى دراسة كل ما يمكن دراسته عن المريض ٠٠ تصرفاته اليومية الروتينية ، تاريخ أسرته ، وظيفته ، الظروف البيئية الطبيعية والاجتماعية التى يعيش فيها ٠٠٠ ومدى الحرية أو القهر الذى يحيط به ٠٠٠ الى هذه الدرجة !! وتأكيده على انه ينبغى على الطبيب أن يكون تشخصيه النهائى مستخرجا من مشاهداته ومراقبته الحريصة لحالة المريض ٠

اصرار أبقراط على أن كل مرض مهما كان بسيطا أو خطيرا ، لابد ان يكون له مسبب طبيعى ، ومهاجمته للممارسة الطبية الخرافية والخيالية والفلسفية ٠ فهو يقول : « ان الطب من بين كل الفنون هو أرفعها شأنا ، ولكن نظرا لجهل من يمارسونه فانه يتخلف كثيرا عن كل الفنون الأخرى » ٠

على الرغم من أن تشريح الجسم بعد الممات كان محرما عند قدماء الاغريق ، وعلى الرغم من أن المعارف عن التفاصيل التشريحية والفسيولوجية والمرضية كانت بدائية نتيجة لهذا التحريم ، الا أن كتابات أبقراط عن الكسور وخلع المفاصل تكشف عن معرفة متقدمة بتركيب ووظائف العظام والعضلات والأربطة بين بعضها البعض ٠ وهو أمر يثير الدهشة ٠

لقد كانت الحاجة الى التعقيم معروفة ، على الرغم من عدم فهمها وكانت لأبقراط تعاليم محددة فى تحضير غرفة العمليات والآلات الجراحية ، وتعاليم عن ضرورة تنظيف الجروح وتطهيرها بمزيد من الدقة قبل اغلاق حواف اللحم أو الجلد المجروح بالضمادات ٠ وعن وضع الأعشاب الطبية على الجرح بعد ذلك ثم تغطيته برباط نظيف ٠

ثم انه بعد ذلك يؤكد على أهمية نوع الطعام والتمريض والعناية بالمريض خلال فترة النقاهة والتئام الجروح وهو أمر يوضح مدى استنارة أبقراط وسبقه لزمانه ولتميزه بنظرته العلمية ٠ وهنا يقول الدكتور « جرين » فى كتابه عن « عظماء العلماء » : « ان أبقراط ابن القرن الخامس قبل الميلاد ، لن يكون غريبا اذا دخل أى مستشفى من مستشفيات القرن العشرين بل سيشعر انه فى بيته » !!

ان ما يسمى « بالمجموعة الأبقراطية » أو « الموسوعة الأبقراطية » كانت أول تجميع علمى منسق فى مجال الطب عرفه العالم ، فقد حوت أكثر من ثمانين مقالا طبيا كانت تغطى كل مراحل الممارسة الطبية تقريبا ، كتبها أبقراط وتلاميذه وجمعها تابعوه خلال القرن

الثالث قبل الميلاد لمكتبة الاسكندرية التى يرجع اليها الفضل فى حفظها من الاندثار ٠

★ ويجمع المؤرخون فى مجال تاريخ وفلسفة العلم ان أول اتجاه علمى فى الطب هو ما نشأ مع مدرسة أبقراط ٠ فالرجل كان يدرك بشكل واضح ان الطب كجانب من المعرفة التطبيقية ينبع من الممارسة العلمية ومن التكنيك ٠ ولهذا تعتبر أعمال وآراء وتوجيهات أبقراط اسهامات جديدة بالنسبة لوقته فى تشكيل صورة علمية عن البيئة أو عن جانب منها ٠

كان أبقراط يرى أن الطبيب الفيلسوف — فى ذلك الوقت — لا يصلح أن يكون طبيبا معالجا ، فالأول يركز اهتمامه على المعرفة ولا يهتم بالمريض ذاته ٠٠ المريض الذى يعانى ويتألم ، ولقد تميزت مدرسة أبقراط بالاهتمام المركز على المريض ذاته فروح هذه المدرسة اكلينيكية ، ولا يمكن أن نلومه على ذلك بل ينبغى أن نحترم الرجل ومدرسته ، فلم يكن فى الوقت متسع لأكثر من تصحيح مسار العلاج وتخفيف آلام ومعاناة الانسان ، وتخليه من تأثير الأفكار البعيدة عن الواقع ٠ ان عبارته التى جاءت فى بداية « الموسوعة الأبقراطية » توضح مدى شعوره بالمسئولية تجاه مهنته وتجاه المرضى ٠٠٠ فهو يقول : « ان الحياة قصيرة ، ودراسة فن الطب والعلاج طويلة ، وفرصة تحقيق الشفاء تمضى بسرعة ، والتجربة خطيرة ، والقرار صعب » ٠

ومع هذا فقد وضع أبقراط أيضا الكثير من الأسس السليمة للمدرسة الأكاديمية والبحثية ٠ فحديثه عن المشاهدة والتجربة وتأكيده على ضرورة اختبار الآراء فى الواقع للتأكد من مدى صحتها ٠٠ يوضحان ذلك ٠

ان القيمة العظمى « للموسوعة الأبقراطية » كانت فى تأكيدها واصرارها على حاجة الطبيب للأسس الصحيحة عند الاقتراب من مشكلات الصحة والمرض وهو أمر لا يزال من أساسيات العمل الطبى حتى اليوم ٠ وهناك بعض المقالات فى هذه الموسوعة لا تزال تجد مكانها فى التفكير الطبى العلمى فى أيامنا هذه ٠ يقول أبقراط فى مقالة تحمل عنوان « حول المرض المقدس » — والمقصود به هو مرض الصرع الذى يتميز بالرجفة وفقد الوعى — يقول : « ان بعض الأطباء الجهلة يعتبرون هذا المرض العنيف على انه زيارة يقوم بها اله غاضب أو شيطان لجسم المريض ، وهم يحاولون انهاء هذه الزيارة بالتعاويذ والرقى والسحر والتمائم ٠ ان هؤلاء الأطباء يقولون بأن هذا المرض مقدس ليخفوا بذلك جهلهم وعجزهم عن دراسة ومعرفة السبب الحقيقى للمرض » ٠

لقد أصر أبقراط دائما على القول بان كل مرض مهما كان مخيفا ، فلابد أن يكون له سبب طبيعى ، وعلينــا أن نبحث عن هذا السبب ، وكانت هذه الخطوة الهائلة نحو طب علمى ، لأنهــا فصلت الممارســة الطبية عن آخر أثر للأساطير الخيالية والخرافات ٠

القيمة العظمى للموسوعة الأبقراطية

وكان أكبر فضــل لأبقراط وخلفــائه انهم حرروا الطب من الدين والفلسفة ٠ نعم انهم يشيرون فى بعض الأحيان بأن يستعين المريض بالصلاة والدعاء ، كمــا نرى ذلك فى كتــاب « التنظيم » ولكن النغمة السارية فى صفحات الموسوعة الأبقراطية كلها هى وجوب الاعتماد الكلى على العلاج الطبى ٠٠

وكانت روح العصر البركليزى تتمثل أوضـــح تمثيل فى عقليــة أبقراط ، فقد كان واسع الخيال ولكنه واقعى ، يكره الخفاء ، ولا يطيق الأساطير ، يعترف بقيمة الدين ولكنه يكافح لفهم العالم على أساس العقل والمنطق٠ وانا لنحس بأثر السوفسطائيين فى الحرية التى تهدف الى تحرير الطب ، والحق أن الفلسفة قد أثرت فى طرق العلاج اليونانية تأثيرا بلغ من قوته أن قام النزاع بين العلم والفلسفة كما قام بينه وبين العقبات التى يضعها الدين فى ســبيله ٠ ويقول أبقراط ويصر على قوله ، ان النظريات الفلسفية لا شأن لها بالطب ولا موضع لها فيه ، وان العلاج يجب أن يقوم على شدة العناية بالملاحظة وعلى تسجيل كل حالة من الحالات وكل حقيقة من الحقائق تسجيلا دقيقا ٠ ولسنا ننكر انه لم يدرك كل الادراك قيمة التجارب العلمية ، ولكنه كان يصر على أن يهتدى فى جميع أعماله بالخبرة والتجربة العملية ٠

وكان أبقراط شــديد الولع بمعرفة العواقب فى الطب ويرى أن الطبيب الماهر يعرف بتجاربه نتائج أحوال الجسم المختلفة ، وفى مقدوره أن يتنبأ بسير المرض من مراحله الأولى ٠ ويقول ان معظم الأمراض تصل الى مرحلة يقضى فيهــا اما عليهــا واما على المريض ذاته ، وان تقديره الحسابى ــ الذى يكاد يبلغ فى دقته الحساب الفيثاغورى ــ الذى يصل فيه المرض فى أشدها لأنه لمن أخص خصائص النظرية الأبقراطية ٠ وهو يقول فى هذا المعنى انه اذا استطاعت حرارة الجسم فى هذه الأزمات أن تتغلب على سبب العلة وتطرده من الجســـم شفى المريض ، ويقول ان الطبيعة ــ أى قوى الجسم وبنيته ــ هى أهم علاج لكل مرض أيا كان نوعه ، وان كل ما يستطيع الطبيب أن يفعله هو أن يقلل أو يزيل العقبات القائمة فى طريق هذين الدفاع والشفاء الطبيعيين ٠ ولهذا فان

الطريقة الأبقراطيــة لا تستخدم العقــاقير فى العلاج الا قليلا ، واكثر ما تعتمد عليه هو الهواء النقى ، والمقيئات والأقماع ، والحقن الشرجية ، والحجامة ، والادماء ، والكمادات ، والمراهم ، والتدليك ، والمياه المعدنية · ومن أجل ذلك كان دستور الأدوية اليونانى جد صغير معظمه من المسهلات وكانت أمراض الجلد تعالج بالحمامات الكبريتية ، وبالتدليك بدهن كبد الدلفين · ويسدى أبقراط للناس هذه النصيح

عش عيشة صحية تنج من الأمراض الا اذا انتشر فى البلد وباء أو أصابتك حادثة · واذا مرضت ثم اتبعت نظاما صالحا فى الأكل والحياة أتاح لك ذلك أحسن الفرص للشفاء » ·

وكثيرا ما كان يوصى بالصوم اذا سمحت بذلك قوة المريض لأنه « كلما أكثرنا من تغذية الأجسام المريضة زدنا بذلك تعريضها للأذى » · ويمكن القول بوجه عام ان « الانسان يجب ألا يتناول الا وجبة واحدة من الطعام فى اليوم الا اذا كانت معدته شديدة الجفاف » ·

وكان تقدم علمى التشريح ووظائف الأعضاء فى بلاد اليونان بطيئا ، وكان أكبر العوامل فيما أحرزاه من تقدم هو الفحص عن أحشاء الحيوانات فى عمليات العرافة · وفى الموسوعة الأبقراطية كراسة صغيرة « فى القلب » تصف البطينين ، والأوعيــة الكبرى ، وصماماتهــا · وكتب سينيسس Syennesis القبرصى وديوجين الكريتى يصفان الجهاز الدموى ، وعرف ديوجين أهمية النبض · كذلك عرف أنبا ذوقليس أن القلب مركز الجهاز الدموى ووصفه بأنه العضــــو الذى يحمل النيوما أو الهــواء الحيوى « الأكسجين » من الأوعية الدموية الى جميع أجزاء الجسم · وفى كتاب الجسم Corpus يحذو أبقراط حذو القميون فيجعل المخ مركز الشعور والتفكير ويقول : « وبه نفكر ، ونبصر ونسمع ونميز القبيح من الجميل والغث من الثمين ·

أمر واحد فقط ، هو ما يمكن أن يأخذه بعض المغالين على أبقراط ، وهو انه فى الوقت الذى رفض فيه النظريات والآراء التأملية التى قال بها الفلاسفة ليفسروا بها السلوك الانسانى والصحة البدنية ، نراه يقبل عقيدة المبــدأ المزاجى الذى كان معروفا فى زمانه وقالت به مدرســـة أمبذوقلس » ·· فهو يصنف الناس أربعة ·· دمويا نشيط الحركة ، ومخاطيا فاترا عديم المبالاة وصفراويا حاد الطبع ، وسوداويا مكتئبا ، وذلك حسب نوع السوائل أو الأمزجة الموجودة فى جسم كل شخص ·· سوائل حارة أو باردة أو جافة أو رطبة · وكان يقول بأن الزيادة أو النقصان بشكل حاد فى أى من هذه السوائل ينتج عنه سلوك شاذ أو

صحة معتلة وربما الموت. وواجب الطبيب في رأيه كان هو المحافظة على التوازن بين أمزجة أو سوائل الجسم المختلفة . وأصبحت نظرية السوائل أساسا لتعاليم جالينوس الطبية فى القرن الثانى الميلادى . واستمرت مقبولة وتدرس للطلاب سنين طويلة .

وفى القرن السادس عشر الميلادى أكد « باراسيلسوس » (١٠) على أن لكل مرض سببه الخاص وعلاجه الخاص . ولكى يعبر عن رفضه واحتقاره لنظرية السوائل أو الأمزجة ، قام بحرق كتابات جالينوس فى اجتماع عام .

ومع هذا فانه بعد ثلاثمائة عام ـ بعد « باراسيلسوس » ـ جاء الفسيولوجى الفرنسى العظيم كلود برنار وأكد على دور سوائل الجسم فى المحافظة على وسط بيئى داخلى ثابت . فوجود توازن ديناميكى للكيماويات فى الدم والليمفاويات وسوائل الأنسجة قد أصبح الآن معروفا بضروريته لعمل الجسم الطبيعى وللصحة الجيدة .

لم يكن أبقراط يعرف شيئا عن الكيمياء والتحاليل الكيماوية فى وقته ، ومع هذا فقد احتوى تفكيره على بذرة صغيرة من الصدق فى هذا المجال ، ولكنها احتاجت لأكثر من ألفين من السنين لكى تنبت.

عن الصداقة

شيشرون

٤٤ ق.م

المبادىء الأخلاقية

لشيشرون

● يعد اسم « ماركوس توليوس كيكيرو » Marcus Tullius Cicero المعروف لنا باسم « شيشرون » رمزا للفصاحة وذلك كما يرمز اسم « هوميروس » للشعر الملحمى واسم « شكسبير » للدراما ·

ويمتدح البحاثة « فيريرو » شيشرون لتأسيسه سلالة من الخطباء والمحامين والأساتذة مثل سلالة قيصر ورغم أخطاء هذه السلالة فقد كان لها ولا شك تأثير كبير على مصير أوربا لا يقل عن تأثير القياصرة لفترة تقرب من ألفى عام ·

وعاش شيشرون فى عصر أخذت فيه روما مكانة بلاد اليونان باعتبارها مركزا للثقافة وكان لها المركز الأول بين أمم العالم ·

ولم يكن لشيشرون مكانة أدبية ممتازة فى عصره فحسب ، بل كان نموذجا ومعلما للأجيال اللاحقة ·

ومعظم شهرة شيشرون مرجعها خطبه ورسائله ، ولقد كانت أسس النقد الأدبى الرومانى توضع دائما على أساس أسلوب شيشرون فى خطبه ورسائله ، ذلك الاسلوب الذى اعتبر فى عصره والعصور التالية نموذجا للنثر الأدبى الرفيع للغة اللاتينية النقية ·

وقد قلد الانجليز اسلوب « شيشرون » فى عهد الملكة « اليزابيث الأولى » وكذا فى العصور المتأخرة ، فمثلا كان اسلوب القسيس الأكبر « ريتشارد هوكر » يشابه اسلوب شيشرون ، ومن الذين تأثروا باسلوب شيشرون من الانجليز John Milton وان كان اسلوب ميلتون أكثر تفككا ، وكذلك أثرت لغة شيشرون فى القرن السابع عشر فى كتابات الشاعر الانجليزى « بوب » ·

هذا من ناحية أسلوب شيشرون فى خطبه ورسائله ، أما من ناحية المبادىء الأخلاقية التى نادى بها فقد كان لها صدى قوى فى نفوس

الجماهير · فقد أخرجها للناس فى شكل واضح مبين ، ويمكن اجمال هذه المبادىء على حد تعبير شيشرون نفسه فى كلمة الانسانية Humanitas هذه الكلمة التى تتبلور فيها مبادىء وخصال الرجل المتحضر ·

واهم ما تتميز به هذه الانسانية من مبادىء هو « العطف » فلابد من أن يكون أساس معاملة الانسان لأخيه الانسان هو العطف والشفقة والحنو لأن الانسان نفسه جدير بالاحترام اذ يحمل فى نفسه بعض القيم الموروثة · وقد بنى شيشرون رأيه هذا على المبادىء الرواقية التى تنادى باخوة الانسان للانسان دون النظر الى موطنه أو جنسه أو مكانته ، وقد كان شيشرون هو الداعية لهذا المبدأ · وقد نالت أبحاث شيشرون شهرة كبيرة فى حياته وعقب موته ، وكان غرضه من أبحاثه تلك أن يقرب الفلسفة الرواقية الى الفكر الرومانى ، وقد أحرز فى ذلك نجاحا كبيرا فلقد ساعدت أبحاثه على نشر المبادىء الرواقية بين الرومان وخاصة الطبقة المثقفة فيهم ، حتى ان أباطرة الرومان أنفسهم أصبحوا يميلون الى الفلسفة الرواقية ،وكان أولهم الامبراطور أوغسطوس ·

وكانت كتاباته الفلسفية رائد النهضة الايطالية فى سعيها لتحرير الانسان الغربى من مفاسد واضطرابات العصور الوسطى ·

وكان شيشرون فى نظر علماء النهضة بطل الفكر الحر والارادة الحرة والحرية الشخصية تلك المبادىء التى كانت النهضة تنادى بها · وقد احتل شيشرون هذه المكانة فى نفوس علماء النهضة نظرا لمناهضته للأوتوقراطية ونظرا أيضا لتلك الروح المضيئة التى لمسوها فى أبحاثه الفلسفية · ·

كما كان لهذه الأبحاث أثرها فى القرن الثامن عشر ويظهر هذا الأثر فى اعلان الأمريكيين لحريتهم وحقوقهم كما يظهر أيضا فى برنامج الجمعية الوطنية الفرنسية الأولى

ان « فولتير » وفلاسفة بريطانيا أمثال « لوك » و « هيوم » يدينون بالكثير لفلسفة شيشرون ·

فلسفة شيشرون

ولد ماركوس توليوس شيشرون فى أربينوم سنة ١٠٦ ق·م · وتلقى العلم فى روما ، حيث استمع الى محاضرات فيدروس الأبيقورى حوالى سنة ٩٠ ق·م وفيلون الاكاديمى حوالى سنة ٨٨ ق·م · الا أن

أهم معلميه ابان شبابه هو ديودوتس الرواقى · الذى أقام [illegible] والده منذ حوالى سنة ٨٥ ق·م · وفقد ديودوتس بصره وتوفى فى منزل شيشرون سنة ٥٩ ق·م · وقد كان شيشرون محاميا عظيما ، وكان أعظم خطيب رومانى ، ومن أعظم الكتاب اللاتين · وفى سنة ٧٩ ــ ٧٨ ق·م ارغمته صحته على التجول ، فاستمع فى أثينا الى محاضرات الفيلسوف الاكاديمى أنطيوكس العسقلانى والفيلسوف الأبيقورى زينون الصيداوى· وكذلك استمع الى بوسيدوتيوس فى رودس ، رغم ان علاقته الرئيسية به نشات فى روما بعد ذلك بأمد طويل ، حوالى سنة ٥١ ق·م · واكمالا لقائمة معلميه نذكر انه حضر فى السنة نفسها أى ٥١ ق·م تقريبا وفى المكان نفســـه أى روما ، محاضرات الفيلســوف الاكاديمى أريســتوس العسقلانى ، والفيلسوف الأبيقورى باترون · وقد أثر فيه أسلافه أثرا بالغــا وسخر مؤلفــاتهم لمآربه الخاصة ، مثلا ، أفلاطــون فى كتــابه الجمهورية (١١) ، وأرسطو الذى أوحت محاورته المحرض Protrepticos بكتابه هورتانسيوس Hortensius ، والفيلسوف الاكاديمى كارنياديس البرقاوى ، الذى نسج شيشرون فى كتاب الجمهورية على منوال احدى رسائله وبانايتيوس الرواقى (توفى ١٠٩ ق·م) الذى اقتبس من آثاره مادة كتابه (فى الواجبات) وهيكاتون الرودسى ، تلميذ باناتيوس · وقد استمد كتابه حكم سكيبيو Somnium Scipionis من بوسيدونيوس ·

كان شيشرون محاميا وسياسيا تقلد عدة مناصب عامة ، وكانت له صلة بجميع التقلبات الاجتماعية فى عصره · ويستحيل وصف حياته السياسية دون التطرق باسهاب الى الحروب والفتن التى شهدها ، والمكايد والمنازعات التى ألجىء الى الاشتراك فيهــا · والقــراء الذى يرغبون فى الاطلاع على هذه الوقائع انما يجدونها فى كتب التاريخ السياسى المتداولة · ورغم مراسلاته العديدة ، يكاد يستحيل تقدير خلق شيشرون بتجرد ، فبعض المؤرخين ينددون به بمقدار ما يثنى عليه البعض الآخر · وينبغى أن نتذكر أنه كان بالمرتبة الأولى كاتبا لا سياسيا أو رجل دولة · وبحسب رواية بلوتارك (فى ترجمته له) كان شيشرون مكروها على وجه عام لغروره ودعواه المتواصلة · وأثرى ثراء فاحشا ، الا أننى أومن بنزاهته ، أى انه كان أنزه من معظم معاصريه الذين كتب لهم النجاح · وعندما عين حاكما على قيليقية سنة ٥٢ ق·م لم يعمد الى سلب الشعب الذى أوكل أمره اليه كما كان العرف ، بل نظر اليهم برفق ، فكان متعجرفا ، على عادته الا أنه كان سخيا ، أما مســاوئه فحفظت ، وأما فضيلته الخارقة فنسيت · وكانت أنبل لحظة فى حياته السياسية خاتمتها ، فقد اغتيل بأمر من الحكومة الثلاثية الثانية فى السابع من ديسمبر سنة ٠٤٣ ق·م فى فورميا ، على خليج كاتيا الجميل · وكان بوسعه أن ينقذ حياته لو كان

جبانا الا أنه تقبل الموت فقطع رأسا ويده اليمنى وحملا الى الساحة فى روما كى يعلقا بالمنصة ، وقد ساد الاعتقاد زمنا طويلا أن جسده (أو رماده) حمل الى روما ودفن فى جزيرة زاكسينثوس (زانتى) (١٢) ٠ ومن يدرى ؟

ولم تكن فلسفته مبتكرة ، بل كانت عرضا واضحا جدا لآراء يونانية شدد عليها تشديدا مبتكرا ٠ ان الفكرة نادرة جدا ومعظم ما صنعه الفلاسفة خلال العصور انهم ركبوها تركيبا جديدا ٠ أما ما صنعه شيشرون فهو اختيار ما حسبه خير نواحى الفلسفة اليونانية ولاسيما الآراء التى كانت تدرس فى الأكاديمية الجديدة وفى الرواق ٠

وأما أثره الرئيسى فى التراث الرواقى فينحصر فى نبذ الهراء والشعوذة ، وكان ذلك يتطلب صفاء وشجاعة فى ذلك العصر القائل بالخرافات ، وقد يقال للمنددين العديدين الذين ينعون عليه عدم الابتكار ان حملته على الخرافات كانت نهجا جديدا ، حظه من الابتكار مثل حظه من السداد ٠

ومهما تكن المساوىء والأخطاء التى نجمت عن طموحه وغروره ، ابان سنيه الأولى ، فمؤلفاته فى الفلسفة والدين بعد معركة فارسالوس (١٣) تثبت انه كان رجلا عظيما ، مثل قيصر وبروتوس ٠ ولم يكن بومبيى وأنطونيوس من العظمة بمنزلة هؤلاء الثلاثة ، حتى ولا أغسطس الذى جنى ثمار جهودهم ٠

كان شيشرون يفخر بخطبه ويدرك أن هذه الخطب تهيىء السبيل الى الأدب الرومانى ، ولذلك أحس بوقع انتقادات المدرسة الاتيكية ، فلم يسعه الا أن يدافع عن نفسه ، فكتب عدة رسائل طويلة فى فن الخطابة ، وقد لخص فى بعضها تاريخ البلاغة الرومانية فى حوار واضح بارع وضع فيه القواعد التى يجب اتباعها فى تأليف الخطب وفى الايقاع والالقاء . ولم يسلم فى هذه الرسائل بأن اسلوبه (آسيوى) ، وقال انه قد حذا فيه حذو دمستين Demosthenes واتهم « الاتيكيين » (١٤) بأن خطبهم الفاترة الخالية من العواطف تنيم السامعين أو تجعلهم يفرون منهم .

وتوضح السبع والخمسون التى وصلت الينا من خطب شيشرون جميع الحيل التى يلجأ اليها الخطباء الناجحون ، فهى توفى على الغاية فى عرض ناحية واحدة من نواحى الموضوع الذى يتحدث عنه الخطيب عرضا يفيض حرارة وحماسة ، وفى ادخال السرور على المستمعين بالفكاهات والنـوادر ، وفى اثارة كبريائهم وأهـوائهم ، وعواطفهم ووطنيتهم ، وتقواهم ، وفى عرض أخطاء المعارض له أو أخطاء من يواليه سواء كانت صحيحة أو مما يرويها الناس عنه ، وسواء كانت تمس الشئون العامة أو تمسه هو نفسه ، وبحذقه فى تحويل انتباه السامعين من النقط التى فى غير صالحه ، وغمرهم بفيض من الأسئلة الخطابية يضعها بحيث تكون الاجابة عنها صعبة أو مؤذية ، ثم يكيل التهم فى جمل موزونة عباراتها قوية قوة السياط ، وتيارها الجارف يغمر المستمعين ، ولا تدعى هذه الخطب انهـا عادلة منصفة بل ان فيها من التجريح أكثر مما فيها من التصريح ، وهى خلاصات يستغل من يلقيها حرية القذف التى كانت محرمة فى المسارح ، ولكنها مباحة فى السوق العامة وفى ساحات القضاء . ولا يتردد شيشرون فى ان يصف ضـــحاياه بألفاظ مثل « الخنزير » و « الوباء » و « الجزار » و « القذارة » ، ويقول « ليبزو » ان العذارى يقتلن أنفسهن ليتقين عهره ، ويصب اللعنات على أنطونيوس لأنه يظهر حبه لزوجته على ملأ الناس ، وكانت هذه المثالب تسر المستمعين والمحلفين ولم يكن أحد من الناس يأخذها مأخذ الجد ، ولم يأنف شيشرون نفسه من أن يكتب الى بيزو رسائل تفيض ودا وصداقة بعد بضع سنين من هجومه الوحشى عليه فى in pisonem . وجدير بنا فوق هذا أن نقر بأن فى خطب شيشرون من الانانية والبلاغة الخطابية أكثر مما فيها من

الاخلاص الخلقى أو الحكمة الفلسفية ، ولكنها بلاغة ليس كمثلها بلاغة قط ٠ ان خطب ديموستين نفسه لم يكن فيها هذا التصوير الواضح ، الحيوى ، وهذه الفكاهة الغزيرة ، وهذا القذف اللاذع لبنى الانسان ، ومما لا جدال فيه انا لا نجد أحدا قبل شيشرون أو بعده قد أكسب اللغة اللاتينية ما أكسبها هو من سحر وسلاسة فاتنة ، وقوة عاطفية وجمال ٠ لقد كانت خطبه اسمى ما وصل اليه النثر اللاتينى ، وقد كتب اليه قيصر الكريم وهو يهدى اليه كتابه « فى التشبيه » يقول : « لقد كشفت كل كنوز الخطابة ، وكنت أول من استخدمها ، وبذلك كانت لك اليد الطولى على جميع الرومان ، وكنت مفخرة وطنك ، لقد نلت نصرا دون نصر أعظم القواد ، لأن الذهن البشرى أنبل من توسيع رقعة الامبراطورية الرومانية ٠٠

وتكشف خطب شيشرون عن أخلاقه السياسية ، أما رسائله فتكشف عن انسانيته ، وتجعل المرء يعفو عن جميع عيوبه السياسية ٠ لقد أملى هذه الخطب كلها الا قلة منها على أمين سره ، ولم يراجعها بنفسه ، ولم يكن يفكر وهو يكتب معظمها انها ستنشر على الملأ ، ومن أجل هذا فان الناس لم تعرض عليهم نفسية انسان وسريرته كاملتين ، كما عرضت عليهم نفسية شيشرون وسريرته ، وفى ذلك يقول نيبوس: « ولا حاجة لمن يقرأ هذه الرسائل بقراءة تاريخ تلك الأيام » ، ذلك ان فى وسع قارئها أن يطلع على أهم الفصول الحيوية من المسرحية الثورية من داخلها ، والستائر كلها مرفوعة عنها ، واسلوبها فى الغالب صريح قديم ، خال من الفن والتكلف ، ملء بالملح والفكاهات ، ولغتها مزيج جذاب من الرقة الأدبية ، وسلاسة اللغه الدارجة ٠ وهى أكثر ما بقى من آثار شيشرون بل من النثر اللاتينى كله طرافة ومتعة ، ومن الطبيعى ان نجد فى هذه المجموعة الكبيرة من الرسائل (وهى تشمل ٨٦٤ رسالة تسعون منها كتبت لشيشرون) بعض المتناقضات وغير قليل من الشواهد الدالة على عدم الاخلاص ٠ وليس فيها كلها أثر واحد للتقى والايمان اللذين يطالعاننا كثيرا فى مقالات شيشرون أو فى تلك الخطب التى يجعل الآلهة فيها ملجأه الأخير ، ويتبين لنا من هذه الرسائل أن رأيه الخاص فى كثير من الناس ، وخاصة فى قيصر ، لا يتفق على الدوام مع ما يصفهم به جهرة ، وفيها يظهر غروره الشديد الذى لا يكاد يصدقه العقل ألطف وأحب الى النفس مما يظهر فى خطبه ، حيث يبدو لنا وكأنه يحمل معه تمثاله أينما ذهب ٠ وهو يقر مبتسما بأن « تقديرى لنفسى وثنائى عليها أعظم الأشياء قدرا عندى » ٠ ويؤكد لنا فى سذاجة ساحر : انه « اذا كان فى الناس من لا يتصف بالغرور فهو أنا » ٠

ولكن هل فى الناس من بلغت فضائله درجة تبقى معها سمعته اذا ما نشرت رسائله الخاصة ؟ والحق ان الانسان اذا أمعن فى قراءة هذه الرسائل يكاد يحب هذا الرجل ·· انه فى واقع الأمر لم يكن له من الاغلاط ، ولعله لم يكن له من الغرور ، أكثر مما لنا ، ولكنه اخطأ اذ خلد هذه الاغلاط وهذا الغرور فى نشر أوفى على الكمال · وخير ما نستطيع **أن نصفه به انه كان عاملا مجدا ، وأبا رحيما ، وصديقا وفيا ·**

مؤلفات شيشرون

دعنا نتناول الآن مؤلفات شيشرون الفلسفية بحد ذاتها ٠ فاذا أدرجنا فى عدادها رسائله فى الفلسفة السياسة قلنا انه شرع فى تاليفها بعد الخمسين من عمره ٠

١ ـ كانت الكتب الستة التى تتالف منها « الجمهورية » De republica وهى محاورة مبنية على محاورة أفلاطون معروفة سنة ٥١ ق٠م ، الا أنها بقيت مفقودة حتى القرن التاسع عشر ، باستثناء حكم سكيبيو (Somnium Scipionis) الذى حفظ فى ثنايا تفسير ماكروبيوس (أوائل القرن الخامس) ٠ وفى سنة ١٨٢٠ اكتشف أنجيلوماى جزءا هاما من النص فى مخطوطه محفوظة فى الفاتيكان ٠

٢ ـ De legibus (فى القوانين) شرع به سنة ٥١ ق٠م ، ولكنه لم ينشر الا فى أعقاب وفاة المؤلف ٠ وقد وصلنا ثلاثة من مجموع خمسة كتب ٠

ولم يشرع بمؤلفاته الفلسفية الأصيلة الا بعد سنين عديدة ، حين فت فى عضده انهيار الحرية السياسية ووفاة ابنته المحببة اليه « توليا » (فبراير ٤٥ ق٠م) ٠ والكتب التى سنسردها الآن كتبت جميعها بين تاريخ وفاتها ووفاته (ديسمبر ٤٣ ق٠م)

وفى اللائحة التالية يمكن ادراج الأرقام ٣ حتى ٧ تحت باب الأخلاق ، والأرقام ٨ حتى ١٣ تحت باب الفلسفة بمعناها الأعم ، والأرقام ١٤ حتى ١٦ تحت باب الدين أو الفلسفة الدينية ٠ ولا نشدد على هذا التبويب من ناحية أخرى ، لأنه غير حاصر ٠

٣ ـ Cato mojor sive De Senectute كاتو الأكبر أو فى الشيخوخة بداه سنة ٤٤ ق٠م لصديقه أتيكوس ٠

٤ ـ (De officiis) (فى الواجبات) ألفه سنة ٤٤ ق٠م لابنه ماركس ، الذى كان يدرس آنذاك فى الليقيوم أو يبحث عن المتعة فى أثنا ٠ وهو يقع فى ثلاثة كتب ٠ الأولان مستمدان من باناتيوس والثالث من هيكاتون ، والشواهد منتزعة من التاريخ الرومانى ٠

٥ ـ لا يليوس أو (في الصـــداقة) (Laelius sive De amicitia) حوالى سنة ٤٤ ق٠م ٠ كان ك٠ لاليوس الأصغر رواقيا ضليعا وصديقا حميما لسكيبيو ٠

٦ ـ فى المجد De gioria سنة ٤٤ ق٠م ٠ وهو مفقود ، الا أن بترارك كان يملك مخطوطا منه ٠

٧ ـ فى العزاء أو فى الحزن المتناقص (De consolatione sive de luctu diminuendo) ألفه بعد وفاة توليا بقليل (فبراير سنة ٤٥ ق٠م) وهو مفقود ٠

٨ ـ الاكاديميات (Academica) حوالى سنة ٤٥ ق٠م ٠ وهو يدور على فلسفة الاكاديمية الجديدة ٠ كما بسطها كارينادیس ٠

٩ ـ فى غايات الأخيار والأشرار De finibus bonorum et malorums ، ألفه سنة ٤٥ ق٠م وأهداه الى م٠ بروتس ـ قاتل الطاغية (توفى سنة ٤٢ ق٠م) وهو عبارة عن بحث فى الخير الاسمى والشر الاسمى ٠ فى الرد على الأبيقوريين والرواقيين ٠

١٠ ـ المناقشـــات التوســـكولانية Tusculanae disputationes (حوالى سنة ٤٥ ـ ٤٤ ق٠م) ٠ وهو خمس محاورات تدور على مسائل عملية ٠ أقيمت فى توسكو لانوم ٠ وهي داره الواقعة فى توسكولوم ٠ وهى مهداه الى بروتس أيضا ٠ الأولى : فى الخوف من الموت ، والثانية : هل الألم شر ؟ الثالثة والرابعة : فى الحزن ومخففاته والألم وعلاجه ٠ الخامسة : ان الفضيلة كافية فى ادراك السعادة ٠

١١ ـ مناقضات (Paradoxa) سنة ٤٥ ق٠م ، وهى ست مناقضات رواقية ٠

١٢ ـ هورتانسيوس (Hortensius) وهو اقتباس لمحاورة أرسطو فى المحرض Protrepticos ٠ وقد ألفهـا على أثـر دحر قيصر لاولاد بومبيى فى موندا (جنوب اســبانيا) فى مارس ٤٥ ق٠م ٠ ولم يبق منهـا الا شذرات ٠

١٣ ـ تيمايوس (Timaeus) ترجمات لتيمايوس أفلاطون ٠ شذرات فقط ٠

١٤ ـ فى طبيعة الآلهة (De natura deorum) وهـو فى ثـلاثة كتب (حوالى سنة ٤٥ ق٠م) مهداه الى بروتس ٠ وهو يدور على طبيعة الآلهة وصفاتها ، بحسب مذاهب الأكاديمية والرواق والحديقة ٠ ويوضح شيشرون فى هذا الكتاب أسس التنجيم ٠ فحركات النجوم ينبغى أن

تكون ارادية · وهكذا فوجود الآلهة بديهي بحيث لا يستطيع انكاره امرو عاقل · وقد وفق شيشرون بين تشكيكه وبين اعتناق ديانة الدولة الرومانية الرسمية ·

١٥ ـ في الكهانة (De divinat one) ألفه سنة ٤٤ ق·م وهو تكملة للبحث السابق · يدور على عدة أشكال من أشكال الكهانة · وقد حرص فيه على عزل الدين عن الخرافات ·

١٦ ـ في القدر (De fato) أهداه الى أولوس هيرتيوس ، أحد ضباط قيصر وأصدقائه واديب أبيغوري · التمييز بين القول بالقدر والجبرية · شذرات منه ·

لا يكاد يصدق المرء ان شيشرون ألف هذه الكتب الأربعة عشر (من رقم ٣ حتى رقم ١٦) في غضون ثلاثة وثلاثين شهرا ، حتى لو أخذنا بعين الاعتبار ، ليس الدراسات التمهيدية مدى عمر كامل وحسب ، بل تجرده الكامل لكتابتها·وهكذا قضى شيشرون آخر الأشهر الثلاثة والثلاثين من حياته الحافلة بالشغل والدأب · فهل تعرف سياسيا شهيرا استطاع أن يختم حياته بمثل هذا الرونق والوقار ؟ !!

عن الصداقة

أهدى شيشرون هذا الكتاب لصديقه أتيكوس ، والكتاب مكتوب على هيئة حوار ، وأهم المشتركين فى الحوار « لايليوس » صديق سكبيو أفريكانوس الأصغر ، والمفروض أن هذا الحوار قد دار عقب وفاة سكبيو (٢٩ ق٠م) بأيام قليلة ، عندما زار « فانيوس » و « موكيوس سكانيولا » حماهما « لايليوس « ٠ وقد قص « سكانيولا » على شيشرون هذا الحوار ٠

● الفصل الأول :

فى هذا الفصل الأول يهدى شيشرون بحثه لصديقه « اتيكوس » ، وفى هذا الاهداء اعترف شيشرون بفضل هذا الصديق الذى كان يحثه دائما على الكتابة فى موضوع الصداقة ويبين له مدى جدارة الموضوع بالدراسة فى ذاته ومن ناحية أخرى فان تناول موضوع الصداقة بالدراسة ملائم لتلك الصداقة الوثيقة التى تربط شيشرون بأتيكوس ٠

وقد أجرى شيشرون الحديث عن الصداقة على لسان « لايليوس » نظرا لأنه أجدر الناس بالحديث عنها فقد كانت الصداقة التى تربط بينه وبين سكبيو مضرب الأمثال ٠

ويذكر شيشرون أن « موكيوس سكانيولا » و « جايوس فانيوس » حضرا الى منزل صهرهما « لايليوس » ثم بدأت بينهم المناقشة ، «فانيوس» و « سكانيولا » يسألان ، و « لايليوس » يجيب ٠

ويقول شيشرون لصديقه اتيكوس بانه سوف يرى فى هذا الحديث صورة لشخصه ٠

● الفصل الثانى :

فى الفصل الثانى يتحدث شيشرون عن كلمة « الحكيم » Sapiens وكيف أن الناس يعدون لايليوس حكيما ، كما اعتبروا « ماركوس كاتو » حكيما من قبل ولم يكن تلقيبه بالحكيم لمجرد المزايا الشخصية والخلقية التى كان يتمتع بها فحسب ، وانما أيضا لثقافته ، ويرى ان « لايليوس » يختلف عن الحكماء السبعة عند اليونان (١٥) باستثناء سقراط ، اذ أن البعض لا يضعون هؤلاء الحكماء السبعة فى مرتبة فلاسفة الأخلاق

moral Philosophers ويقول « فانيوس » ان الناس يسألونه كما يسألون « سكانيولا » كيف استطاع لايليوس ان يتحمل ألم موت صديقه « سكبيو أفريكانوس » ، ويؤمن سكانيولا على كلام فانيوس ذاكرا ان لايليوس قد تحمل ألم موت صديقه فى شجاعة ورباطه جاش ويبدى لايليوس تواضعه حين يصفه فانيوس بأنه حكيم ·

● الفصل الثالث :

فى هذا الفصل يستمر لايليوس فى حديثه فيقول انه سيكون كاذبا لو أنه أنكر شعوره بالألم والأسى لموت سكبيو الذى لم يكن له صديق مثله ولن يكون ، وان كن يعتقد أن مبعث أساه وألمه انما هو حرمانه من صداقة سكبيو ، وليس هو حادث الموت فى ذاته ، فان الموت لا يعدو مؤلما بالنسبة لسكبيو الذى عاش حياة مجيدة ، بلغ فيها اقصى ما يمكن أن يبلغه مواطن رومانى بل أقصى ما يمكن ان يصبو اليه انسان سواء فى حياته أو مماته ، وما أهمية أن يطول عمره بضع سنين أخرى ؟! ، فلم يكن فى حياته محتاجا الى اضافة مزيد من السعادة والمجد ولقد جعلته نهايته السريعة لا يحس بألم الموت ·

كما ان تمجيد الشعب له واحتفاءه به جعله يبدو وكأنه صاعد الى السماء لا ذاهب الى العالم السفلى ·

● الفصل الرابع :

وفى هذا الفصل يستمر لايليوس فى حديثه ويقول انه يؤمن بخلود الروح وانه لا يوافق أولئك الفلاسفة المحدثين الذين يذهبون الى أن الروح تفنى بفناء الجسد ، وان كل شىء يتلاشى بالموت · وانه يتفق مع الفلاسفة القدماء سواء أسلافه الرومان الذين كانوا يبجلون الموتى ، أو فلاسفة اليونان الذين عاشوا فى جنوب ايطاليا أو سقراط الذى اشتهر بأنه أكثر الجميع حكمة ، هؤلاء الذين قالوا جميعا بخلود الروح وانه عندما تترك روح الشخص جسده تجد الطريق أمامها مفتوحا للعودة الى السماء ، حيث تعود روح الشخص الطيب والعادل بسرعة ·

ولقد كان سكبيو يؤمن أيضا بذلك ، وقد اشترك فى مناقشته مع سكبيو عن خلود الروح التى عرف سكبيو عنها الكثير من سكبيو افريكانوس الأكبر فى رؤيا عرضت له فى نومه ·

وقد صعدت روح سكبيو الى السماء فى سرعة ويسر لأنه كان من فضلاء القوم ، ولهذا فهو يخشى أن يكون حزنه على صديقه مبعثه الغيرة وليس مبعثه الصداقة ·

أما اذا كان الرأى الثانى القائل بأن الروح تفنى أيضا بفناء الجسم صادقا وان الاحساس ينعدم حقيقة بالموت فانه اذن لا يوجد نفع أو ضرر او ألم بعد الموت لأنه اذا ما انعدم الاحساس فان الانسان يغدو وكأنه لم يولد ، ورغم ذلك فاننا نفرح لمولده ، وسوف تسر الدولة أيضا طالما هى باقية ·

ويقول لايليوس انه سعيد بذكرى صداقته لسكبيو الذى سعد بصحبته والذى كان متفقا معه فى آرائه العامة والخاصة وكذلك فى رغباته وميوله ، لذلك لم يكن لقب « الحكيم » الذى أضفاه عليه فانيوس مبعث سرور كبير له ـ خصوصا وهو لا يرى نفسه جديرا بهذا اللقب ـ وانه سيكون أكثر سعادة لو ظلت ذكرى صداقته لسكبيو خالدة ·

ان أعظم شىء يسره هو أن يحتفظ التاريخ بذكرى تلك الصداقة التى تربطه بسكبيو ، كما احتفظ بذكرى الصداقات الأربع (١٦) ·

ثم يصدق فانيوس على كلام « لايليوس » وينتهز فرصة كلامه عن الصداقة ويطلب منه أن يحدثهما عنها ، ويشرح لهما طبيعتها ، وحكمتها وآراءه فيها ·

● الفصل الخامس :

فى الفصل الخامس يبدأ لايليوس حديثه عن الصداقة ، فيقول ان موضوع الصداقة من الموضوعات النبيلة التى يصعب عليه الحديث عنها ، لأن الحديث عنها يحتاج الى فيلسوف ، ولكنه يستطيع أن يطلب منهم أن يضعوا الصداقة فوق أى شىء فى العالم ، فليس هناك ما هو أنسب ولا أحب للانسان منها سواء فى الرخاء أو فى الشدة ·

وهو يرى أن الصداقة انما تنمو وتتوثق عراها بين الأخيار ـ وهو لا يقصد بالأخيار ذلك المفهوم المثالى البالغ حد الكمال الذى ذهبت اليه الفلسفة الرواقية فهى تهوم فى أفق خيالى فترى انه ليس هناك رجل فاضل ما لم يكن « حكيما » وانه من العسير على البشر أن يصلوا الى معنى الحكمة والخير الأقصى عندهم ·

ويرى لايليوس انه يجب أن ننظر الى الأشياء الواقعية التى نلمحها من واقع حياتنا لا الى تلك الأشياء الخيالية التى تخلقها مخيلاتنا وأوهامنا وهو لا يؤكد أن المواطنين الرومانيين ـ الذين يعدهم أجداده حكماء ـ كانوا حكماء بالمفهوم الذى يذهب اليه فلاسفة الرواقية ، ذلك المفهوم الذى يصعب ادراكه ·

ولكنه اذا ما سلك الانسان طريقه فى الحياة بشرف وأمانة وعدل ، دون أطماع أو غطرسة أو استهتار ، مثل أولئك المواطنين الذين امتدحهم

الاجداد». كان جديرا أن يعد فى الحقيقة من الأخيار فان الذين يسلكون فى حياتهم مثل هذا المسلك انما يسيرون فى أعمالهم ـ قدر استطاعتهم ـ على مقتضى الطبيعة التى هى خـــير مرشد الى الحيـــاة الفاضـــلة « optima dux bene vivendi »

ويرى لايليوس اننا نأتى الى هذه الحياة وبيننا نوع من الترابط ، وانه كلما قويت الصلة بين شخص وآخر ازداد هذا الرباط الذى يجمع بينهما قوة ومتانة ، ولذلك كان مواطنونا أفضـــل لدينا من الأجانب ، والأقارب أعز علينا من الغرباء ، ان الطبيعة نفسها هى التى تخلق الصداقة بين هؤلاء الناس ، ولكن مثل هذه الصداقة لا تقوم على أساس متين .

وانما تفوق الصداقة القرابة لأن الشعور الطيب بين الأقرباء قد يزول وبزواله يزول معنى الصداقة بينما تبقى صلة القرابة ، فى حين أن ذلك الشعور الطيب يظل قويا بين الأصدقاء .

فيمكننا أن نتعرف على قوة الصداقة من الحقيقة التالية : وهى انه من بين تلك الروابط العديدة التى لا حصر لها والتى أوجدتها الطبيعة بين البشر ، من بين تلك الروابط العديدة رابطة واحدة وثيقة ومتينة ضيقت الطبيعة من حدودها فجعلتها شعورا متبادلا بين اثنين أو ثلاثة على الأكثر وتلك هى رابطة الصداقة .

● **الفصل السادس :** .

يتحدث لايليوس فى هذا الفصل عن مفهوم الصداقة ، ويرى انها توافق فى جميع الأمور الدنيوية والدينية ممتزج بالمحبة والشعور الطيب .

وباستثناء الحكمة ، فان الآلهة لم تمنح الخالدين من الناس شيئا أروع من الصداقة فى رأيه .

وهناك من يفضل عليها الثروة أو الصحة أو النفوذ أو الجاه أو اللذة ولكن هذه الأشياء ـ فى مجملها ـ سريعة الزوال والفناء ، اذ تتحكم فيها ظروف الدهر وتقلباته .

أما أولئك الذين يجدون فى الفضيلة خيرهم الاسمى فانهم بلا شك يختارون الجانب الاسمى والأكثر نبــلا ، اذ أن الفضيلة تخلق الصداقة وتعمل على رعايتها والحفاظ عليها ، ولا يمكن أن توجد صداقة على الاطلاق بدون فضيلة ، وهو يفسر الفضيلة بما يمليه من واقع الحياة ، والدلالة اللغوية العادية من المبادىء ، ولا يدخل فى مفهومه للفضيلة أولئك الرجال الفضلاء الخياليين الذين لا يوجدون فى عالمنا ، والذين يتحدث عنهم بعض الفلاسفة .

وان الصداقة لتؤدى كثيرا من الخدمات فى هذه الحياة ·

وكيف يمكن ان توجد حيـــاة جديرة بأن نحياها ـ كمـا يقول اينيوس (١٧) ـ اذا لم تشتمل على شعور طيب من صديق ، ما أروع ان يكون لك صديق تبثه ذات نفسك وكأنك تتحدث الى نصفك الثانى ! ·

ان الانسان يحتاج للصداقة سواء فى رخائه أو شدته ، فهو محتاج الى صديق يشاركه سعادته وسروره كما هو محتاج الى صديق يقاسمه متاعبه وآلامه ·

ان كلا من الثروة والجاه والصحة واللذة ، لها مناسبتها الخاصـة وميزتها الخاصة فميزة الثروة أن تنفق منها ، وميزة الجاه أن تغدو مبجلا بين الناس وميزة اللذة أن ترفه عن نفسك وميزة الصحة أن تصونك من الأمراض ، وتمكنك من أداء أعمالك الجسمانية ـ وكل ميزة من هذه الميزات وقتية وجزئية ، لها مناسبتها الخاصة التى تستغل فيها استغلالا وقتيا فى حين أن الصداقة تجمع بين كل هذه المزايا ·

● **الفصل السابع :**

يستمر لايليوس فى حديثه عن الصداقة فيقول انها تضىء الطريق أمام الأمل فى المستقبل ، وترفع من الروح المعنوية ، واذا ما زالت المحبـة من العالم تفككت الروابط بين أفراد الأسرة ، وأعضاء الدولة ، فالصداقة نوع من الروابط التى تجمع بين أفراد الأسرة ، وأعضاء الدولة ، بل هى نوع من الروابط فى العالم الطبيعى ·

ان الفيلسوف « أمبيذوكليس » يعتقد أن العـــالم محكوم بقوتين رئيسيتين وهما المحبة والكراهية ، والمحبة فى نظره هى القوة الحافظة فى الطبيعة ·

ما أجمل أن يشارك صديق صديقه فى مواجهة الأخطار ! ·

● **الفصل الثامن :**

يناقش لايليوس فى هذا الفصل مبعث الصداقة وأصلها ، وهل هى ناشـئة عن احتياج الشـخص لعون الآخرين ، أو هى ميل طبيعى فى الانســان ؟

وهو ينتهي الى انها ميل طبيعي ، ان كلمة الصداقة « amicitia » مشتقة من كلمـة الحب وانهـا القوة الرئيسية في جعل المحبة « amor » متبادلة

وحقيقة أنه قد يترتب عليها نوع من النفع ، ولكن المنافع المترتبة على الصداقة مختلفة تماما عن تلك المنافع المؤقتة التي يسديها شخص ما بدافع المجاملة وتحت ستار الصداقة ، فالصديق الحق يسدى المعروف لصديقه بدافع الاخلاص لصداقته والشعور الودى الطيب نحوه ٠

واننا قد نحب شخصا ما اذا ما وجدناه على خلق نبيل ، لأننا نرى في هذا الشخص مثالا بارزا للشرف والفضيلة ، فليس أحب الينا من الفضيلة ، والفضيلة تجذبنا بقوة الى المحبة وقد تخلق روحا من المودة بيننا وبين الأشخاص الذين لم نتعرف اليهم قط ، بسبب ما كانوا عليه من فضيلة واستقامة ٠ وللصداقة أصلها في الطبيعة ٠

● الفصل التاسع :

ثم يتابع في الفصل التاسع حديثه عن الصداقة الحقة الأصلية ، والصداقة الزائفة المؤقتة التي تزول بزوال المنفعة المترتبة عليها ٠

وكلما كان الشخص متسلحا بالفضيلة والحكمة بحيث يكبح جماح نفسه ويعف عن الدنايا أمكنه ان يكتسب الصداقة ، ويجنى ثمارها ٠

والصداقة الحقة هي التي لا تبنى على توقع النفع ، فانـنـا حين نسدى لأصدقائنا معروفا ، فلا ينبغي أن نتوقع منهم رده الينـا ، كما لو كان دينا من الديون ٠ اننا لا ننشد الصداقة انتظارا لما يترتب عليها من منافع ، اذ أن كل نفعها وثمارها تكمن في المحبة ذاتها ٠

واذا ما كانت الصداقة مبنية على المنفعة فانها تتلاشى بتلاشى هذه المنفعة ٠ ولما كانت الطبيعة أبدية لا تتغير ، فان الصداقة الحقة كذلك خالدة وأبدية ٠

● الفصل العاشر :

في هذا الفصل يشرح لايليوس العوامل التي تؤدى الى فصم عرى الصداقة ومجملها :

١ ــ اختلاف المنافع والآراء السياسية بين الأصدقاء وتناقضها ٠

٢ ــ ما يحدثه مرور الزمن من تقلبات وتغييرات مثل المحن ومشكلات الحياة ومسئولياتها ٠

٣ ـ التنافس على الجاه والشهرة والمناصب ٠

٤ ـ الطموح الى المنافع غير المشروعة التي تأباها الأخلاق والعدالة ، والتي تؤجج نيران العداوة في الصدور اذا ما رفض الصديق أداءها ٠

● الفصل الحادى عشر :

يعرض هذا الفصل للمطالب المشروعة التي لا ضير في طلبها من الصديق ، والمطالب غير المشروعة التي لا ينبغي أن تطلب من الصديق ٠

فلا بأس في أن يطلب الصديق من صديقه كل ما هو فاضل ونبيل ، ولكن ليس له الحق في أن يطلب منه ما يحيد عن سبيل الفضيلة ، أو كان مخزيا ومعيبا ، اذ لا يمكن الصداقة أن تدوم اذا ما تنكب الشخص طريق الصواب ، والشخص النبيل الخلق يربأ بنفسه عن أن يضعها موضع الخزى نزولا على نزوة صديقه ودفع الصديق الى أداء عمل ضار يساوى تماما ما لو فعله بنفسه ٠

● الفصل الثانى عشر :

فليكن اذن من مبادىء الصداقة ألا نطلب الى أصدقائنا أداء أعمال مخزية ، أو أن نقوم نحن بهذه الأعمال اذا ما طلبوا منا القيام بها ٠

ثم يورد أمثلة من التاريخ الرومانى واليونانى ، ويرى انه من العار أن يلجأ الشخص الى تبرير أخطائه ، ليس فقط الأخطاء العامة ، وانما أيضا الأخطاء التي يرتكبهـا في سبيل الصداقة ، كما لو حاول تبرير جريمة الخيانة ضد الدولة بأنها كانت من أجل صديقه ، وينبغي لنا أن نرشد الصديق الطيب الصالح اذا ما أوقعته الصدف في صداقة من هذا النوع ، نرشده الى هجران صديقه اذا ما ارتكب جناية الخيانة ، اذ انه ينبغي معاقبة الخونة كما ينبغي معاقبة أعوانهم بدرجة لا تقل قسوة عن عقوبة مدبرى الخيانة أنفسهم ٠

● الفصل الثالث عشر :

فليكن اذن من المبادىء الأساسية للصداقة ، ألا نطلب من أصدقائنا الا كل ما هو شريف ونبيل ، وألا نفعل من أجلهم الا كل ما هو شريف ونبيل ، وألا ننتظر حتى يطلب منا ذلك وان نكون دائمـــا مستعدين لمساعدتهم دون تردد أو تقاعس ، وان نقدم لهم نصحنا دون أن يطلبوا منا ذلك ، وأن نقيم لنصيحتهم المخلصة وزنها ٠

ولا ينبغى أن ننأى بأنفسنا عن الصداقة المتحمسة المتفانية ، كما ينادى بذلك بعض فلاسفة اليونان ـ حتى لا يرهق الشخص نفسه فى سبيل الآخرين اذ أن لدى كل شخص ما يشغله من مشاكل وأموره الخاصة والاهتمام بشئون الآخرين وقضاياهم سوف يحمله عبئا ثقيلا وينبغى للانسان أن ينأى بنفسه عما يرهقها ويقلقها ليحيا حياة سعيدة ـ ان الصداقة ليست كما يرى البعض لمجرد نشدان الحماية والعون ، وليست ناجمة عن مجرد العاطفة والرغبة الصادقة ، ولو كان الأمر كذلك لبحثت المرأة الضعيفة عن الصداقة أكثر مما يبحث عنها الرجال لأنها أكثر احتياجا منهم للحماية ، وكذلك لبحث عنها الفقراء أكثر من الأغنياء والرجال التعساء أكثر من السعداء ·

ولا ينبغى لنا أن ننأى عن الأعمال النبيلة ضنا بأنفسنا على العناء والارهاق ، واذا ما وضعنا فى اعتبارنا ما يكلفه العمل النبيل من تعب وعناء ، فلا ينبغى أن ننسى الجانب الآخر وهو الفضيلة فاننا اذا ما هربنا من المسئولية فاننا فى الوقت ذاته نهرب من الفضيلة التى تحتقر الصفات التى تضادها وتعارضها ، فالشفقة تمقت الأذى وضبط النفس يمقت التهور ، والشجاعة تمقت الجبن ·

اننا لا ينبغى أن ننأى عن الصداقة لأنها تكلفنا بعض الجهد والعناء فلولا عواطفنا لما كان هناك فرق بيننا وبين الأحجار والأشجار ، وان الفضيلة تكمن فى العلاقات والروابط المختلفة خصوصا رابطة الصداقة · وان قلب الرجل الفاضل يسر برخاء صديقه ويأسى لتعاسته وشقائه ·

● الفصل الرابع عشر :

يعود فى هذا الفصل فيتحدث عن كنه الصداقة وأصلها ، فيرى انها تنجم عن ميل طبيعى متبادل بين الصديقين ، وانه لا شىء أروع من الحب المتبادل ·

● الفصل الخامس عشر :

فى هذا الفصل يقول لايليوس انه لا ينبغى لنا أن نلقى بالا الى أولئك الذين أفسدهم الترف حين يتكلمون عن الصداقة التى لا يعرفون عنها أى شىء سواء من الناحية النظرية أو العملية ·

من هو بحق السماء الذى يفضل أن يعيش غارقا فى النعيم محاطا بكل أنواع الترف على أن يكون محبا أو محبوبا ، ان مثل هذه الحياة

الخالية من الحب هى حياة الطغاة التى تخلو من الولاء والمحبة والثقة والصلات الوثيقة ، حيث يظللها دائما الشك والتوجس وعدم الاطمئنان وحيث لا يكون هناك محل للصداقة ·

فمن ذا الذى يستطيع أن يحب رجلا يشعر بالخوف منه ، أو رجلا يترقب منه السوء ، والدليل على ذلك هو أن أمثال هؤلاء الطغاة يهجرهم أصدقاؤهم بعد أن تتهاوى عروشهم ·

وكذلك حال الرحل الغنى اذ ليس له أصدقاء حقيقيون ، ان الثروة ليست عمياء فحسب ، بل انها تصبب أيضا بالعمى أولئك الذين يبتلون بها ·

اننا نلحظ ان الجاه والنفود والسلطه والغنى تغير نفوس الذين كانت تتميز أخلاقهم بالسماحة فيحتقرون أصدقاءهم القدامى ، وينشدون أصدقاء جددا ، انهم قد يستطيعون بنفوذهم وسلطتهم وثروتهم أن يشتروا أى شىء ماعدا الصداقة التى يمكن أن تسمى عدة الحياة ·

ان الحياة المجردة عن الصداقة لا يمكن أن تعد حياة سعيدة ·

● الفصل السادس عشر :

فى هذا الفصل يتحدث عن حدود الصداقة ، فيعرض ثلاثة آراء فى هذا المجال :

الأول : أن نشعر نحو أصدقائنا بنفس الشعور الذى نشعر به نحو أنفسنا

الثانى : ان عطفنا على أصدقائنا ينبغى ان يتساوى وعطفهم علينا ·

الثالث : أن يقدر الشخص صديقه بمقدار ما يقدر نفسه ·

ولا يوافق شيشرون على واحد من هذه الآراء الثلاثة ·

فبالنسبة للرأى الاول يرى أن خطأه نابع من اننا قد نفعل أشياء لصالح أصدقائنا لا نفعلها أبدا لصالحنا الخاص ، فاننا من أجل الصديق قد نتوجه بالطلب أو الرجاء الى شخص ما ، وقد نخاطبه بحدة أو نهاجمه ، ومثل هذه الأشياء قد لا تكون مشروعة ولا مناسبة فيما يتعلق بنا من امور ، أما بالنسبة لما يتعلق بأصدقائنا فهى مناسبة ومشروعة جدا وفى كثير من الأحيان يحرم الرجال النبلاء أنفسهم من المنفعة ويؤثرون بها أصدقاءهم أو يسمحون لأصدقائهم أن يتمتعوا بهذه المنافع أكثر مما يتمتعون هم أنفسهم بها ·

المتبادل فى الأعمال والرغبات المخلصة بين الأصدقاء فان هذا الرأى ينحدر بالصداقة الى لون من ألوان الحساب ، ويوجب تعادل كفتى الميزان بحيث لا يرجح الشىء المبذول مقابله ولا ينقص عنه ، ان الصداقة الحقة أكثر غنى وتسامحا من هذا ، فلا ينبغى ان نأسف لأن الجانب الأرجح كان من نصيب الصديق ولا ينبغى أن تتوقع انك سوف تحصل على أكثر مما أعطيت ·

أما الرأى الثالث القائل بتقييم الشخص لصديقه بمقدار تقييمه لنفسه فهو أسوأ الآراء الثلاثة اذ كثيرا ما يكون أحد الصديقين خائر العزيمة ، ضعيف الطموح الى تحسين وضعه فمثل هذا الصديق لا ينبغى لصديقه أن يقيمه كما يقيم نفسه ، بل يجب عليه أن يبذل ما فى وسعه كى يقوى من روحه وعزيمته وأن ينمى آماله وأفكاره ويقويها ·

● الفصل السابع عشر :

فى هذا الفصل يتحدث عن الحدود الحقيقية للصداقة ، فيرى انه من الواجب تقديم العون للصديق اذا ما تعرضت حياته أو سمعته للخطر ، ولو أدى الأمر الى أن يتنكب الانسان الطريق السوى قليلا ، ما دامت النتيجة فى النهاية غير مشينة ·

ولما كانت الصداقة هى أهم ما يمتلك الانسان ، لذلك ينبغى عليه أن يعنى بها أكثر مما يعنى بالأشياء الأخرى التى تدخل فى ملكيته ، هناك من يستطيع أن يخبرك عن عدد ممتلكاته من الماعز والأغنام ، ولكن ليس فى وسعه ان يخبرك عن عدد أصدقائه ، انه يهتم بالأولى ويهمل اختيار الأصدقاء ، وليس لديه من الدلائل والعلامات ما يساعده على معرفة الأصلح للصداقة ·

ويجب علينا أن نختار أصدقاءنا من بين أولئك الأشخاص الذين يتصفون بقوة العزيمة وبعدم التردد والذبذبة ويتحلون بالخلق السوى ، أولئك الذين يندر وجودهم وانه يصعب على المرء فى الحقيقة أن يحكم على الصديق ما لم يجربه ، لذلك ينبغى ان نجرب الصداقة نفسها لنستمد منها الحكم على الأصدقاء ، وان الصديق لا يعرف الا فى وقت الشدة ·

● الفصل الثامن عشر :

ابتداء من هذا الفصل ، وحتى الفصل العشرين يتحدث لايليوس عن الصفات التى ينبغى توافرها فى الصديق · وأول هذه الصفات أن يكون

الصديق مخلصا اذ لا تستقر الصداقة بدون الاخلاص وثاني هذه الصفات سلامة الطوية ، فينبغي ان تراعي لدى اختيار صديق ان تكون شخصيته واضحة غير ملتوية ، وأن يكون صريحا في التعبير عن شعوره ، وأن يحس نحونا بمثل احساسنا نحوه ، فاذا ما كانت شخصية الصديق ملتوية أو لم يكن يتأثر بنفس الظروف التى تتأثر بها ولا يشاركنا مشاعرنا فانه لا يكون مخلصا ولا ثابتا على صداقته

كما يجب ألا يفرح الصديق للاتهامات التي توجه الى صديقه ، أو أن يصدقها اذا وصم بها شخص آخر صديقه ، بل عليه أن يرفضها وينكرها ، والا يخامره حتى مجرد الشك في كذب هذه الاتهامات • كما ينبغي أن يكون هناك نوع من الحديث الرقيق، العذب ، والسلوك المهذب النبيل بين الأصدقاء تلك المظاهر التى تمنح الصداقة دفئا من نوع خاص ، أما الجدية في كل الأحوال فانها تؤدى الى نوع من الثقل على النفس ، فيجب أن تكون الصداقة منطلقة غير مقيدة وأكثر طلاقة وجاذبية من أى شيء لطيف آخر •

● **الفصل التاسع عشر :**

في هذا الفصل يتحدث عن الصداقة القديمة • وكيف أن الشخص يفضل الصديق القديم على أن ينشيء صداقة جديدة ، وكيف يجب على الصديق اذا ما ارتفع عن طريق الجاه أو الثروة أو العبقرية ألا يتعالى على أصدقائه القدامى ، بل يجب أن يشركهم فيما وصل اليه من رفعة وأن يحاول أن يعلي من شأنهم •

● **الفصل العشرون :**

يواصل حديثه في هذا الفصل عن الصفات التي ينبغي توافرها في الصداقة ، فيرى انه ينبغي على الأصدقاء الذين يتفوقون على أقرانهم أن يحرصوا دائما على أن يشعروا أقرانهم بأنهم على قدم المساواة ، وعلى ذلك ينبغي لأولئك الأقران ألا يحزنهم تفوق أصدقائهم عليهم سواء في المواهب أو في الثروة أو في الجاه والمناصب ، ان أولئك الذين يكونون في مستوى أقل يشكون دائما من أن أصدقاءهم لا يهتمون بمصالحهم بالقدر الكافي ، أو يلومون أولئك الأصدقاء خصوصا عندما يتحدثون عما قاموا به من اجل أولئك الأصدقاء المتفوقين ، وليس مستحسنا من الصديق أن يمن على صديقه بما أسدى اليه من أياد ، ومن واجب الصديق الذى أسدى اليه المعروف أن يتذكر ذلك من تفسه •

وينبغى للأصدقاء المتفوقين أن ينزلوا قليلا من مستواهم ليرفعوا من مستوى أصدقائهم الذين هم أقل شأنا ، والصداقات تتكون فى مرحلة الرجولة وليست قبل ذلك ٠

وعلى الصديق ان يحذر الاستسلام لعواطفه اذا ما تعارضت هـذه العواطف مع مصلحة صديقـه وتسببت فى تعطلها ، كما اذا لم يحتمن فراق صديقه اذا ما رغب هذا الصديق فى الرحيل لمصلحة تخصه ، ان اعاقته عن مثل هذا السفر دليل على الضعف ، يجب أن تقدر ما يطلبه منك الصديق وأن تقدر فى الوقت نفسه ما تعطيه له ٠

● الفصل الحادى والعشرون :

وفيه يتحدث عن العوامل المؤدية الى فصم عرى الصداقة ، وأهم هذه العوامل أن تبدو من الشخص نقيصة يضار منها صديقه ، وفى هذه الحالة يقاطع الصديق صديقه بالتدريج ، الا اذا كان الخطأ فادحا وغير محتمل ، ففى هذه الحالة تفصم عرى الصداقة فى الحال ، وكذلك اذا ما تبدلت طبائع الشخص وميوله ــ كما يحدث أحيانا ــ أو اذا ما حدث خلاف فى وجهات النظر السياسية فان ذلك يؤدى الى فصم عرى الصداقة ، ويجب فى هذه الحالة ألا يصل الأمر الى حد العداوة البغيضة بين الصديقين ، اذ ان أبغض شىء هو ان تدخل فى حرب ضد شخص كان يوما ما صديقك ، بل يجب على الانسـان أن يحتفظ بحلمه وهدوئه وأن يتحكم فى زمام أعصابه ولا يترك الزمام للغضب يشتط به ، وألا تتحول الصداقة الى عداوة وبغضـاء ويجب أن يتذكر الشخص المضـار أنهما كانا يـوما ما صديقين ، وألا يعالج الشر بالشر ، انه بذلك يجعل الشخص المسىء جديرا باللوم والتقريع ٠

وتفاديا لكل هذه العوامل المؤدية الى فصم عرى الصداقة ينبغى أن « لا نسرع فى اتخاذ الصديق » وتأكد قبل كل شىء ــ انه جدير بالصداقة ٠

● الفصل الثانى والعشرون :

فى هذا الفصل يعرض بعض الملاحظات العامة حول الصداقة ، فيرى ان الناس ينشدون أحيـانا أصـدقاء يتمتعون بمزايا لا تتوفر فيهم هم أنفسهم ، فى حين أن الواجب ان يتحلى الشخص أولا بالأخلاق الفاضلة النبيلة ، ثم بعد ذلك يبحث عن قرين تنعكس شخصيته هو فى طبـاعه وأخلاقه ٠ ان هذا يجعل أساس الصداقة متينا ، كما يؤدى الى أن يحترم كل منهما الآخر ، واذا فقدت الصداقة الاحترام المتبادل بين الصديقين فانها تفقد أعظم شىء يزينها ٠

وان من الخطأ ان يعتقد الانسان أن فى الصداقة متسعا للانغماس فى جميع أنواع السلوك المشين ، فقد منحنا الله الصداقة لتكون فى خدمة الفضيلة ، لا أن تكون من أعـوان الرذيلة ، واذا ما امتزجت الفضيلة بالصداقة فانه يتكون بينهما نوع من الارتباط القوى يحقق للانسان كل ما يصبو اليه من الشرف والمجد والطمأنينة والسرور ، هذه الأشياء التى بدونها يغدو الانسان تعسا ٠

لذلك ينبغى ألا ننساق الى الصداقة قبل أن نختبر أخلاق الصديق ونحكم عليها وألا نؤجل ذلك الى ما بعد الصداقة ، فكثيرا ما يكتشف أولئك الذين يعتقدون ان لهم أصـــدقاء حقيقيين انهم مخدوعون عندما تلم بهم كارثة تمتحن فيها صداقة أصدقائهم ٠

● الفصل الثالث والعشرون :

فى هذا الفصل يقيم الصداقة ، فيقول ان ما من أحد يشك فى مزايا الصداقة ، باجمـــاع الآراء ، فقد يأبه بعض الناس بشأن المال ، أو يقنعون بالقليل منه ، وقد لا يأبهون بشأن الجاه والمناصب التى نكون عادة مجالا للتطاحن وقد لا يأبهون بغير ذلك من الأشياء الأخرى التى يمكن أن تكون مثارا لاعجاب بعض الناس وطموحهم ، ماعدا الصداقة فانهـا تشغل ذهن جميع الناس ، يفكر فيها السياسيون والعلماء والأدباء ورجال الأعمال فى أوقات فراغهم ، وحتى أولئك الذين يكرسـون كل وقتهم للتسلية ، ان جميع هؤلاء يعتقدون ان الحياة الحقة لا تساوى شيئا بدون صداقة ٠ ان الصداقة تضم بشكل أو بآخر حياة كل شخص ، ولا تسمح لأية طريقة من طرائق الحياة ان تشذ عنها ، لا يمكن لأى شخص أن يعيش بدون صداقة ٠

ان الطبيعة البشرية لا تميل الى الوحدة ولا تجد فيهـا كفايتهـا وسرورها ٠

● الفصل الرابع والعشرون :

فى هذا الفصل يرسم الحدود التى ينبغى أن تلتزمها المعاملة بين الأصدقاء ٠ فيرى ان الصداقة قد تتعرض أحيانا لمواقف تكون فيها مثارا للشك ، أو مبعثا للغضب ، وينبغى للرجل العاقل الحكيم أن يتجنب مثل هذه المواقف ، أو يهون من شأنها أحيانا ، أو يتحملها ما استطاع ذلك ، ان من واجب الصديق على صديقه أن يخلص له النصح ، وأحيانا يتوجه اليه باللوم على بعض الأمور وهذا دليل عمق الصداقة والاخلاص ،

وعلى الصديق الآخر أن يتقبل مثل هذه الأشياء بروح طيبة وألا يؤولها تأويلا سـيئا ·

ان التملق والنفاق قد يخلق الصداقة ، كما أن الصدق قد يخلق العداوة ، فالصدق الذى يثير غضب الصديق قد يعرض الصداقة للخطر ، ولكن التملق ـ مهما كان شأنه ـ أكثر سوءا من هذا الصدق ، فان مدح أخطاء الصديق وتبريرها قد يؤدى به الى التمادى فى هذه الأخطاء التى تقوده الى التهلكة ·

وعلى كل فينبغى للصديق أن يكون حـذرا ، وأن يتجنب العنف والقسوة فى نصيحته وأن يخفف لومه من الكلمات المؤذية القاسية ، وحتى لو تملق صديقه فينبغى أن يكون حصيفا فى تملقه بحيث يتفق هذا التملق والأخلاق الدمثة المهذبة ·

ان الحياة مع صديق تختلف عن الحياة مع طاغية ·

وينبغى للصديق أن يصغى لصوت الحقيقة الصـــادر عن صديق مخلص ·

ويجب على الصــديق أن يبغض الرذيلة وينفر منهــا ، وأن يطرب للنصيحة ويهش لها ·

● الفصل الخامس والعشرون :

فى هذا الفصل يتابع حديثه عن التملق ، فيرى انه من الصفات الأساسية فى الصداقة أن تبذل النصح وتتقبله دون من أو استعلاء ، فعلى الصديق أن يمنح صديقه نصحه بروح كريمة دون عنف أو قسوة ، وأن يتقبل منه النصح برضا ودون اشمئزاز أو نفور ·

وانه لا شىء أسوأ فى علاقات الصداقة من المداهنة والكلام المنمق المعسول والتملق الكاذب ان هذه الأشياء تبعدنا عن الحقيقة والاخلاص فى القول التى لا معنى للصداقة بدونهما ·

ويجب أن نناى بهذه الرابطة المقدسة عن مثل هذه الصغائر التى هى من خصال الرجل المخادع المذبذب ، وعلينا أن نميز الصديق المتملق المداهن من الصديق الحقيقى المخلص ، كتمييزنا الشىء المطلى الزائف من الشىء الحقيقى الخالص ·

● الفصل السادس والعشرون :

فى هذا الفصل أيضا يواصل حديثه عن مساوىء التملق ، فيرى أن مثل هذا التملق الضار انما يسىء الى الشخص الذى يتقبله ويسر به ،

فالشخص الذى ينتشى بكلام المتملقين انما يتملق فى الحقيقة نفسه ويخدعها ، وان الشخص الذى يدعى الفضيلة والنبل يسره أن يتملق الناس ، وان الصداقة تموت عندما يعزف الصديق عن الاصغاء الى الحقيقة من فم صديقه ٠ وقد لا يجد الصديق أمامه مفرا من أن يلجأ الى طريق النفاق والمداهنة ، والمتملق يبالغ دائما فى ذكر الأشياء التى ترضى غرور الآخر وتسعده ٠

وبالرغم من أن التملق له أثره على أولئك المعجبين بأنفسهم الا أنه ينبغى لأقوياء الشخصية أن يحذروا ذلك التملق ، خاصة ذلك التملق الذكى الملفوف ، فان التملق المكشوف يمكن أن ينفضح بسهولة ولا ينخدع به الا الحمقى والأغبياء ، ولكن ينبغى أن نحذر ذلك التملق الخفى الحاذق ٠

● **الفصل السابع والعشرون :**

فى هذا الفصل يختم لايليوس حديثه ، فيبلور آراءه السابقة عن الصداقة ويلخصها فيقول :

١ ـ ان الفضيلة هى التى تخلق الصداقة وتهبها القوة وصفة الاستمرار ٠

٢ ـ انها ميل شخص لشخص آخر دون اجبار ، أو طمع فى نفع ،

ولو أن الصداقة قد تستتبع المنفعة ولكن دون سعى اليها أو انتظار لها ٠

٣ ـ التساوى فى العمر قد يساعد على الصداقة ، ولكن قد يصادق الانسان من هم أصغر منه سنا ٠

٤ ـ يجب أن ننشد أصدقاء نتبادل معهم المحبة ، والا فقدنا جميع مسرات الحياة ٠

٥ ـ لا شىء ـ باستثناء الفضيلة ـ يمكن أن يعادل الصداقة ٠

٦ ـ ان الصداقة أجمل نعمة منحتها السماء للأرض ٠

كليلة ودمنة

لابن المقفع

٧٥٠م

● لقد نال كتاب « كليلة ودمنة » من الشهرة والذيوع فى مشارق الأرض ومغاربها ما لم ينله كتاب غيره ، ويعد المعلم الأول لكل ذى حكمة وبيان · ذلك ان للكتاب قيمة كبيرة فى عالم الفكر والتاريخ والأدب فهو كنز من كنوز الحكمة البشرية ، وفيه فلسفة اجتماعية أخلاقية واسعة النطاق ، وفيه كذلك دروس تشريعية ذات قيمة ، وفيه نظرات ما ورائية جليلة وان موجزة ، وفيه على كل حال علم وعمل ، وعمل موجه الى العمل · ومن ثم يتضح لنا أن فلسفة الكتاب هى فلسفة الحياة العملية الشريفة ، هى فلسفه موضوعية مثالية ·

وفلسفة كليلة ودمنة موســومة بسمة المذهب العقلى الذى يجعل العقل مديرا وموجها لكل حركة · وقد كانت هذه الفلسفة مزيجا من أفلاطونية وأرسطوطالية وهندية شرقية ·

ونجد فى هذا الكتاب أن « ابن المقفع » قد وضع فيه نهجا قويما اذا تبعه الحاكم استطاع أن يسير بدفة بلاده نحو الأمام ، ويكفل لرعيته الخير والرخاء والسعادة والهناء : فبين له المواضع التى يشتد فيها اذا احتاج الأمر الى الشدة ، ووضح له المواقف التى يلجأ فيها الى اللين اذا احتاج الأمر الى اللين ، كما طالبه بأن يكون حليما لا يستأثر به الغضب ، ولا تدركه العجلة ، فلا يتنبه الى عواقب الأمور ، لأن الغضب يغشى العقل بغشاوة كثيفة لا يستطيع معها الانسان أن يتبين حقائق الأمور واضحة جلية ·· فاذا تحلى الحاكم بهذه الصفات والأخلاق ، تجنب الفوضى أن تدب فى بلاده · وطالب الملوك أن يكونوا أصــحاب عهد ووفاء : فاذا عاهدوا وفوا بعهدهم ، واذا قالوا صدقوا فى قولهم ·

وبعد فالكتاب الذى بين أيدينا ــ بتعليمه الحكمة والأخلاق ، وحسن التدبير ، والسياسة فى قالب أقاصيص قصيرة خرافية جرت على ألسنة الحيوان والطير ، ليوافق رغبات الناس ــ يعد أول الكتب المطولة التى ظهرت من هذا النوع فى اللغة العربية ، بل فى اللغات الأوربية ·

ابن المقفع في تاريخ الفكر العربي

في كل دور من أدوار حياة الانسان طائفة من المفكرين ، يعجب بهم ، ويحذو حذوهم ، حتى اذا ما اجتاز ذلك الدور ، تضاءلت قيمهم امامه ، واخذ يضحك من نفسه لأنه كان يوما ما معجبا بهم يردد آراءهم و ينشد أشعارهم . ولكن هناك قلة من المفكرين يعجب بهم الانسان في مختلف أدوار حياته ، وكلما تقدمت به السن وازداد نضجه العقلي ازداد إعجابه وتضاعف . ومن هؤلاء الأفذاذ القلائل عبد الله بن المقفع (١٠٦ هـ ـ ١٤٥ هـ) .

ظهر ابن المقفع في عصر يتطلع الى كل جديد ، وينزع الى التحرر والى تلقف الثقافات الجديدة . فظهر على عصره بقوة ثقافته واطلاعه على الثقافات الأخرى وهكذا كان قوة سيطرت على مجتمعه وكان لها أصداء واصداء عبر الدهور والأزمان .

وان من تتبع الحركة التي قام بها الرجل وجد لها أثرا ضخما في الفكر الأدبي والفلسفي والسياسي والتشريعي والقضائي عند العرب .

أما في الفكر الأدبي فكان لما نقله ابن المقفع من آراء ومذاهب أثر واسع في تفكير الأدباء والشعراء وفي توجيه التاليف عند العرب . وقد عني الشعراء عناية كبيرة بكتب ابن المقفع فنظموا بعضها كما فعل أبان اللاحقي وغيره بكليلة ودمنة . واغترفوا من حكمتها وآرائها ما ظهر بوضوح في شعر كلثوم بن عمرو بن أيوب المعروف بالعتابي ، وفي شعر المتنبي وأبي العلاء وغيرهم ، وقد انبثت آراؤه في العقل والمرأة والحيلة والرأي والمال في الأدب العباسي كله تقريبا ، وعرف الكتاب من ابن المقفع طريقة الترجمة الفنية ، وضرورة الأخذ بثقافات مختلفة وتوسيع نطاق المعارف والوقوف على ما للغير من علوم وآداب ، واستناروا بابن المقفع في ما هو من طريقة التحليل والجدل والكتابة الفنية الراقية ، وراحوا يقتفون آثاره في ما هو من الجمع لأقوال الحكماء والعلماء وغيرهم ، حتى ان نفرا من العلماء من مثل ابن قتيبة في « عيون الأخبار » . وابن عبد ربه في « العقد الفريد » ، والطرطوشي في « سراج الملوك » ، وابن حزم في « كلمات في الأخلاق » ، وغيرهم ساروا على خطى ابن المقفع . ثم لم يقفوا عند هذا الحد بل أخذوا منذ عهد ابن المقفع تقريبا يحذون حذوه في تاليف ما يماثل كليلة ودمنة ، فوضع سهل بن هارون « ثعلة وعفرة » ،

وابن الهبارية « الصادح والباغم » ، وابن عربشاه « فاكهة الندماء ومناظرة الظرفاء » ، وأبو العلاء المعرى « القائف » . وفى اخوان الصفاء رسالة فى المناظرة بين الحيوان والانسان فيها ألوان من كليلة ودمنة ، هى الرسالة السابعة عشرة من الجسمانيات الطبيعيات . زد على ذلك أن ابن المقفع فتح باب القصص على السنة الحيوانات وفصله تفصيلا لم يكن معهودا لدى العرب .

وأما فى الفكر الفلسفى فقد ظهر أثر ابن المقفع فى ما كتبه الفارابى وابن سينا وغيرهما فى الفلسفة المدنية ، فأقوالهما فى السياسة والولاة والأصدقاء وما الى ذلك تذكر بأقوال كليلة ودمنة . ولقد استعار اخوان الصفاء اسمهم من باب الحمامة المطوقة ، كما انهم اقتبسوا طائفة من الأفكار المبسوطة فى كتب ابن المقفع وقد جاء فى الرسالة الرابعة من العلوم الناموسية والشرعية شيء كثير من آراء ابن المقفع فى الصداقة .

وأما فى الفكر الاجتماعى فقد دعا ابن المقفع الى الاصلاح فى البلاط وفى القضاء وفى الخراج وفى كل ما يتعلق بالراعى والرعية ، فنرى الخلفاء بعد المنصور يعنون باختيار صحابتهم ، فتصبح البطانة بعد قليل – ولا سيما فى عهدى الرشيد والمأمون – معروفة بالعلم وحسن الرأى ، ومؤلفة فى كثير من عناصرها على ما كان ابن المقفع يرمى اليه .

دعا ابن المقفع الى اصلاح القضاء فاذا المحاولات تبذل بعده لايجاد قانون يسير عليه القضاة .

ودعا ابن المقفع الى الاصلاح فى أمر الخراج ، فاذا الخلفاء يسمعون صوته ، واذا الرشيد يدعو أبا يوسف الفقيه لوضع كتاب فى الخراج .

وهكذا كان لابن المقفع فضل جم على العقل العربى وأثر بليغ فى عالم الفكر .

نشاة ابن المقفع وعصره

لم تبلغنا أخبار ابن المقفع الا مضطربة ، مقطعة الأوصال ، وجيزة الى حد يصعب معه تتبع الرجل فى مختلف مراحل حياته ، وجل ما عرف عنه ان حياته مرحلتان : مرحلة أموية دامت نحوا من خمس وعشرين سنة ، ومرحلة عباسية دامت نحوا من عشر سنوات ، والمرحلة العباسية هى مرحلة الانتاج الفكرى فيما أن المرحلة الأموية هى مرحلة التحصيل والتأمل والمراقبة ·

ولد روزبه بن دازوبه نحو سـنة ٧٢٤ م ـ ١٠٦ هـ فى قرية بفارس اسمها « جور » وهى فيروز أباد الحالية · ومعنى اســمه بالفارسية « المبارك » · وكان اسم أبيه دازوبه وكان دازوبه متوليـا خراج فارس من قبل الحجاج فضربه الحجاج بالبصرة لمال احتجنه حتى تقفعت يده فعرف بالمقفع ـ وهناك روايه أخرى تقول ان اسمه : ابن المقفع بكسر الفاء المشددة لأن أباه كان يعمل القفاع ويبيعها · والقول الأول والذى بفتح الفاء المشددة هو المشهور بين العلماء · وعرف ابنه بعده بابن المقفع · ولما أسلم روزبة سمى عبد الله وكنى بأبى محمد ·

هذا من جهة اسمه وأصله · أما نشأته فكانت فى فارس الى جنب أبيه ، يسعى فى تحصيل الثقافة الفارسية ويدين بالزرادشتية على مذهب المجوس ثم انتقل الى البصرة وكانت مباءة رجال العلم والأدب· وفيهـا المربد منتدى الأدباء والشعراء ، واتصل بآل الأهتم وهم أهل فصاحة ، فكان مولى لهم يغترف من بلاغتهم ويتصل بالأعراب ويقوم لسانه على نطقهم ، وهكذا تعلم العربيـة وتدرب على أساليب الفصاحة والبلاغة ، واجتمع عاملان مهمان : عامل الثقافة الفارسية وفيهـا ثقافة اليونان والهنود ، وعامل الفصـاحة العربية · فقابل العـالم الجديد بسلاحين قويين : سلاح الفكر وسلاح اللسان ·

وما هو الا زمن قصير حتى طار للشاب الفارسى صيت فى العلم والفصاحة ، وكان الأمويون من أشد الناس التجاء الى الموالى للاستفادة من أقلامهم وتوليتهم كتابة الدواوين ، فلجأوا الى ابن المقفع ، فكتب ليزيد ابن عمر بن أبى هبيرة والى العراق من قبل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وقيل انه كتب أيضا بعد موت يزيد لأخيه داود بن عمر بن أبى هبيرة وانه بقى مدة من الزمن يكتب لهذا الأمير فى دواوينه بكرمان ·

وهكذا شهد ابن المقفع عن كثب كيف انهارت الدولة الأموية ، فشهد السعايات والمؤامرات ، وعرف كيف تتقلب الأيام وتدول الدول ، وعرف الأدواء الخفية والظاهرة التى تفتك بجسم الأمم والدول . وكان أبدا عينا ترى ، وأذنا تسمع ، ولسانا ينطلق ، وقلما يسجل .

دارت الأيام دورتها فاذا العباسيون على عرش الخلافة ، واذا القسوة تضرب أطنابها ، واذا ابن المقفع يرى من الضرورى ، مجاراة للأحوال ، أن يلبس لباسا جديدا ، فيتصل برجال الدولة الجديدة ويعتنق الدين الجديد ليكون له من ذلك كله طريق سهل الى غايته التى يهدف اليها . فاتصل برجال الدولة الجديدة وكتب لعيسى بن على والى الأهواز ، ولزم بعض بنى أخيه اسماعيل عم المنصور يؤدبهم ويشتغل بتلعيمهم وتثقيفهم ، ثم كتب أيضا لسليمان عم المنصور .

واعتنق ابن المقفع الدين الجديد ، وقد روى فى ذلك انه « بينما كان يمشى ذات يوم فى طريق ضيق اذ سمع صبيا يتلو بصوت مرتفع قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا » فوقف منصتا حتى أتم الطفل قراءة السورة ، ثم قال فى نفسه « الحق انه ليس هذا بكلام بشر » . ولم يلبث بعدها أن ذهب الى عيسى بن على وقال له : « لقد دخل الاسلام فى قلبى وأريد أن أسلم على يديك » . فقال له عيسى : « ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس ، فاذا كان الغد فاحضر » . ثم حضر طعام لعيسى عشية،هذا اليوم، فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم على عـادة المجوس . فقال له عيسى : « أتزمزم وأنت على عزم الاسلام ؟ » فقال : « كرهت أن أبيت على غير دين » . فلما أصبح أسلم على يده وصار كاتبا له واختص به .

اتصل ابن المقفع برجال الدولة الجديدة واعتنق الدين الجديد الا انه لم يخلص لتلك الدولة ولم يمل اليها الا مجاراة وســياسة . وحدث فى تلك الأيام أن خرج على الخليفة المنصور عمه عبد الله بن على مدعيا انه أحق بالخلافة من ابن أخيه فوجه اليه أبا مسلم الخراسانى فكسره وشرد جماعته وفر عبد الله الى أخيه سليمان وهو اذ ذاك بالبصرة مع أخيه عيسى بن على ، فكاتب الشقيقان ابن أخيهما المنصور فى أن يؤمنهما على عمه عبد الله ، فرضى الخليفة . وكان ابن المقفع يكتب اذ ذاك لعيسى ابن على ، ويقال ان عيسى أمره بكتابه الأمان لعبد الله وانه كتبه وأفرط فى الاحتياط حتى لا يجد المنصور منفذا للاخلال بعهده ، وانه كتب فى جملة فصوله : « ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله بن على فنساؤه طوالق ، ودوابه حبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حل من بيعته »

مما غاظ المنصور فقال : « أما أحد يكفينيه ؟ » هذا الى جانب ما كان عليه ابن المقفع من قلة الاخلاص للدولة الجديدة ، وما كان عليه من النزعة الفارسية التى تسخر من العرب وتذيع شيئا من أخبار الفرس وديانتهم ، وما ذهب اليه من كتابه « رسالة الصحابة » التى هى أشبه شىء ببرنامج ثورة موجهة الى المنصور ، ومن ترجمة كتاب « كليلة ودمنة » وفيه حملة عنيفة على الطغاة ، هذا الى جانب نبوغ عند ابن المقفع أوغر صـــدور الحاسدين الى جانب أمور كثيرة أدت الى قتل الرجل سنة ٧٥٩ م .

تلك كانت حياة ابن المقفع وتلك كانت خاتمته .

آثار ابن المقفع

لم يعمر ابن المقفع طويلا ، ولم يتح له من الوقت ما يتصرف فيه الى ابراز كل ما فى عبقريته من غنى ، وقد ترك لنا مع ذلك من الآثار ما يشهد له بالنضج العقلى والعمق الفكرى ، وان كان أكثر تلك الآثار مترجما لا موضوعا . ونحن نستطيع أن نقسم آثاره الى ثلاثة أقسام :

أما القسم الأول ففى التاريخ وما اليه وهو يحتوى :

١ ـ كتاب « خداينامه » أو « خداينامك » أو كتاب الملوك أو « كتاب السادة » فى تاريخ ملوك الفرس .

٢ ـ كتاب « آيين نامه » فى عادات الفرس ونظمهم ومراسيم ملوكهم .

٣ ـ كتاب « التاج » فى سيرة أنوشروان .

٤ ـ كتاب « الدرة اليتيمة والجوهرة الثمينة » فى أخبار السادة الصالحين .

٥ ـ كتاب « مزدك » .

أما القسم الثانى من آثاره ففى الفلسفة ، وقد نقل ابن المقفع عن الفارسية أيضا ثلاثة كتب لأرسطو فى المنطق وهى :

١ ـ كتاب « قاطيغورياس » فى المقولات العشر .

٢ ـ كتاب « بارى أرمينياس » فى العبارة .

٣ ـ كتاب « أنالوطيقا » فى تحليل القياس .

ونقل كتاب « ايساغوجى » أو المدخل لفرفوريوس الصورى .

وأما القسم الثالث ففى الأدب والاجتماع والسياسة والاخوانيات ومرجعه الى :

١ ـ رسالة الصحابة : وهى واحدة من تلك الرسائل التى كتبها ابن المقفع وقد امتازت عنها جميعا بأنها وضعت للاصلاح الاجتماعى والسياسى . وجهها صاحبها الى أبى جعفر المنصور وتناول فيها قضية بطانته خاصة وجميع مقربى الولاة والأمراء والخلفاء عامة ، وجعلها تقريرا

فى نقد نظام الحكم ووجوه اصلاحه ، ودستورا من الدساتير الاجتماعية ٠

٢ – الأدب الكبير والأدب الصغير : وقد أطلق عليهما ابن المقفع اسم « الأدب » لأنهما يتناولان أمورا أخلاقية فى جوهرهما ٠ قال عبد اللطيف حمزة : « ان ابن المقفع يظهر فيهما كأنه معلم أخلاق ، يشرح هذه الأخلاق فى كتبه شرحا يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على الدين ٠٠٠ والخلق فى رأيه أمر يتصل بالعقل قبل كل شىء ، فالعقل يميز بين الحسن والقبيح ، يعرفهما بطبيعته ولو لم يدل عليهما شرع أو فضيلة أو أخلاق ٠٠٠ وابن المقفع فى كتابيه الأدبين كان ناقلا ومؤلفا معا ٠ فهو ناقل لأنه كان حريصا على أن يكثر من حكم الفرس وأمثالهم ، حتى يملأ أذهان الناس بهذه الحكم والأمثال ٠٠ وهو مؤلف لأنه كان يعمل عقله فى ما ينقله وكان له فى ما ينقله غرض يرمى اليه دائما » ٠

ويقول ابن المقفع فى مقدمة الأدب الصغير : « قد وضعت فى هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفا ٠ فيها عون على عمارة القلوب وصقالها ، وتجلية أبصارها ، واحياء للتفكير ، واقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ، ومكارم الأخلاق » ٠ ويقول فى الأدب الكبير انه « لم يجد الأولين غادروا شيئا ٠٠ وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور ، فيها مواضع لصغار الفطن ، مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم ٠ ومن ذلك بعض ما أنا كاتب فى كتابى هذا من أبواب الأدب التى يحتاج اليها الناس » ٠

وفى الأدبين حكم شتى وأمثال مختلفة لا يربط بينها رابط ، وهى من مصادر مختلفة : فارسية ويونانية واسلامية وغير ذلك ٠

ومن ثم يتضح لنا ان الأدبين الكبير والصغير من ذخائر الحكمة البشرية ، وان الحكمة فيهما قائمة على أساس عقلى لا يخلو من صبغة دينية ، وانها من ثم ذات نزعة فلسفية عميقة المرمى ، بعيدة الأغوار ، وانها عميقة العلم بالنفس البشرية ونزعاتها المختلفة ، وبالسياسة البشرية والاجتماع البشرى ، وانها ذات نزعة مثالية ٠

مضمون كليلة ودمنة

وضع كتاب كليلة ودمنة لأغراض عدة أوضحت فيه ، مرجعها الى تثقيف الملوك والوزراء باسلوب لطيف ، والتفكهة (وهذا ما قصد بوضعه على ألسنة البهائم والطير) ، واظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أنسا لقلوب الملوك ، وأن يصلح للملوك والسوقة فيكثر انتساخه وينتفع المصور والناسخ ، وأن يصلح للفيلسوف فيجد فيه حكمة ، وأخيرا الى الاصلاح الاجتماعى فى العلاقات بين السلطان والشعب وبين الأصدقاء ·

ويتضمن كتاب كليلة ودمنة تفصيلا لواجبات الراعى والرعية وما يجب على كل انسان أن يحافظ عليه من جهة الصداقة والصدق فى القول والعمل وأدب الضيافة · وهو موجه قبل كل شىء الى الملوك والوزراء يرمى الى تأديبهم والى تخطيط طريقهم حتى لا يعدلوا عن الحق والعدل والاستقامة · وها نحن أولاء نستعرض أبواب الكتاب موجزين مضمونها ، ثم نعود الى موضوعات الكتاب موضوعا موضوعا موضحين موادها ، مبينين قيمتها ·

● مقدمة على بن الشاه الفارسى : وهى مقدمة طويلة تتضمن بعض الأساطير التى خلفتها فتوح الاسكندر فى الشرق ، والابانة عن سبب وضع الكتاب ثم التعريف بدبشليم الملك وبيديا الفيلسوف اللذين تفتتح بهما أبواب الكتاب ·

● باب عرض الكتاب لابن المقفع : وفيه تفصيل لمضمون كتاب كليلة ودمنة وللفوائد التى تجنى منه ، ثم ايضاح لكيفية مطالعة الكتاب حتى تجنى فوائده ، ثم كلام على العلم وأهميته وضرورة اتمامه بالعمل لأن العلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر ·

● باب بعثة برزويه : وفيه خبر بعثة برزويه الى الهند ومحاولاته للحصول على الكتاب ، ونجاحه ، وعودته الى بلاده ·

● باب برزويه الطبيب : وفيه سيرة برزويه وآراؤه فى الدنيا وسعيه الى الآخرة ·

● باب الأسد والثور : يمثل السلطة العليا (الأسد) فى الملك ، والحياة فى البلاط وما يجرى فيها من مكايد وسعايات ، ويظهر غرور

الملوك فى تقريب الناس اليهم ، وقلة تبصرهم فى الاصغاء لوشاية المحتالين وما ينتج عن كل ذلك من جرائم وظلم ، فكان أن الكذوب المحتال « دمنة » قد قطع بين المتحابين « الأسد والثور » حتى حملهما على العدواة بعد الصداقة .

● باب الفحص عن أمر دمنة : يمثل السلطة القضائية ، فيظهر لنا ما كان من أمر دمنة بعد أن أفسد بين الأسد والثور بالنميمة والاحتيال ، وكيف حوكم ، وكيف سارت الدعوى ، وكيف كان دفاع دمنة ، وكيف هلك أخيرا ؟

● باب الحمامة المطوقة : يدور حول الصداقة وامكانها بين المتنافرين .

● باب البوم والغربان : يمثل السياسة الخارجية والحرب بين الملوك وبين الامم ، واستطلاع أخبار العدو ، ويوضح مكان الحيلة من السياسة وكيف يعامل العدو ، وكيف يجب اللجوء معه الى الحذر مهما أظهر من تضرع وتملق .

● باب القرد والغيلم : يمثل الغباوة وكيف يظفر معها صاحب الحاجة بحاجته فيضيعها . والفطنة وكيف يقع صاحبها فى ورطة فيتخلص منها .

● باب الناسك وابن عرس : يمثل الرجل العجلان فى أمره من غير روية ولا بعيد النظر ، فهو أبدا نادم أسيف .

● باب ابلاد وايراخت وشادرم ملك الهند : هو باب هندى يردى العداوة بين البراهمة والبوذية ويشنع على البراهمة . وهو قسمان : قصة الأحلام وتاويلها ، والمحاورة بين الملك ووزيره . وفى هذا الباب يسال الملك الفيلسوف عما اذا عمل به ، كرم على رعيته ، وثبت ملكه وحفظ ارهطه . فيجيبه الفيلسوف ان أفضل ما حفظ به الملك ملكه ، وثبت به سلطانه وكرم به نفسه هو الحلم والعقل مع مشاورة اللبيب الرفيق العالم .

● باب ملك الجرذان : يبين أهمية المشورة والنصح فى الحياة ، فرب مشورة تخلص من شدائد .

● باب السنور والجرذ : يبين الحكمة فى التماس الموالاة والصلح احيانا ، ويوضح الفرق بين الصداقة الحقيقية وتلك التى تبنى على الحاجة والضيق .

● باب الملك والطائر فنزه : يدور على ان ذوى الأوتار (١٨) ينبغى الا يثق بعضهم ببعض ، وأن يتقى بعضهم بعضا .

● باب الأسد وابن آوى : يمثل الرجوع الى الصداقة بعد العداوة · وعلاقة الملوك فيما بينهم وبين جلسائهم · ومفاد ذلك أن من واجب الملك أن يراجع من أصابته جفوة أو عقوبة عن جرم أو ظلم ، ولاسيما اذا كان ذلك الشخص ممن يستعان به ويوثق برأيه ، فالملك لا يستطاع الا بالوزارة والأعوان ، ولا ينتفع بالوزراء والأعوان الا بالمودة والنصيحة ·

● باب السائح والصــواغ : يمثل صنع المعروف الى غير أهله ويبين من يستحق المعروف والثقة ·

● باب ابن الملك وأصحابه : يمثل أن كل ما يجرى على الناس انما هو بقضاء الله وقدره ·

● باب اللبؤة والشعهر (١٩) : يمثل الانسان الذى يدع ضر غيره لما يصيبه من الضر ، ويكون له فيما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعدوان ·

● باب الناسك والضيف : يمثل من يترك ما فى يده ليطلب غيره فيضيع هذا وذاك ·

● باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين : يمثل الرجل الذى ينفع الآخرين برأيه وهو لا ينتفع به ·

★★★

تلك خلاصة ما تضمنته ابواب كتاب كليلة ودمنة ، واليك مادة الكتاب مستخلصة من تلك الأبواب بحسب ما وردت به ·

● ادب الملوك : يحرص الكتاب شديد الحرص على تأديب الملوك وذوى السلطان ، ومهما اختلفت أبوابه وتنوعت أغراضه فالقضية المهمة والجوهرية فيه هى تأديب الملوك · واننا نجد فى بعض أبواب الكتاب ــ كباب الأسد وابن آوى ــ تشريعا كاملا لتصرف السلاطين ، كما اننا نجد في الكتاب كله دراسة عميقة لنفسية الملوك ومقربيهم ·

فعلى الملك أن يكون عالما بالأمور لأن العلم أساس كل شىء ، أن يكون « العالم بالأمور وفرص الأعمال ومواضع الشدة واللين والغضب والرضى والعجلة والاناة ، والناظر فى يومه وغده ، وعواقب أعماله » (٢٠)· تلك هى الصفة الأولى ، وان خلت دبت الفوضى ، وسادت شريعة الغاب ·

وعلى الملك أن يكون حليما ، عاقلا ، متأنيا عند الغضب والا ندم وأسف (٢١) وذلك أن الغضب يغشى العقل ، والفورة تعمى البصــيرة وتؤدى الى الفوضى فى الحكم ·

وعلى الملك ان يكون ذا عهد ووفاء : قبحا للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء ! وويل لمن ابتلى بصحبتهم ! فانهم لا حميم لهم ولا حريم ، ولا يحبون أحدا ، ولا يكرم عليهم ، الا أن يطمعوا عنده فى غناء فيقربوه عند ذلك ويكرموه . فاذا قضوا منه حاجتهم فلا ود ولا حفاظ ، ولا الاحسان يجزون به ، ولا الذنب يعفون عنه ، الذين انما أمرهم الفخر والرياء والسمعة ، الذين كل عظيم من الذنوب يرتكبونه ، وهو عندهم صغير حقير هين » (٢٢) .

وعلى الملك أن يضع المعروف والاحسان عند أهل الوفاء والكرم قربوا أم بعدوا : « ان الملوك وغيرهم جدر أن يأتوا الخير الى أهله ، وأن يؤملوا من كان عنده شكر ، ولا ينظروا الى أقاربهم وأهل خاصتهم ، ولا الى أشراف الناس وأغنيائهم وذوى القوة منهم ، ولا يمتنعوا أن يصنعوا المعروف الى أهل الضعف والجهد والفاقة ، فان الرأى فى ذلك أن يجربوا ويختبروا صغار الناس وعظماءهم ، فى شكرهم وحفظهم الود ، فى غدرهم وقلة شكرهم ، ثم يكون عملهم فى ذلك على قدر الذى يبدو لهم » (٢٣) .

وعلى الملك أن يكون حسن السيرة لا كملك البوم الذى كانت سيرته « سيرة بطر وأشر وفخر وخيلاء وعجب وضعف رأى » (٢٤) .

وعلى الملك أن يحسن سياسته الداخلية ، فيحسن اختيار أعوانه : « ان أعظم الأشياء ضررا على الناس عامة ، وعلى الولاة خاصة ، أمران : أن يحرموا صالح الأعوان والوزراء والاخوان ، وأن يكون وزراؤهم واخوانهم غير ذوى مروءة ولا غناء » (٢٥) ، « من عرف بالشرارة ولؤم العهد ، وقلة الوفاء والشكر ، والبعد عن الورع والرحمة ، والجحود لثواب الآخرة وعقابها ، والحسد وافراط الشره والحرص ، والسرعة الى سوء الظن والقطيعة ، والابطاء عن المعاودة والمراجعة ، فقطعه أحزم للرأى . ومن عرف بالصلاح وكرم العهد ، والشكر والوفاء والمحبة للناس ، والسلامة من الحسد والحقد ، والبعد من الأذى ، والاحتمال للأصحاب والاخوان وان ثقلت عليه منهم المؤونة ، فهذا حقيق أن تغتنم صحبته وصلته ويمتنع من قطيعته . واحذر من الخلطاء الثمانية : الكفور النعمة الغادر بما يعهد اليه ، والذى لا يؤمن بيوم الحساب والثواب والعقاب ، والمفرط فى حرصه وهمه وغضبه ، ومن يسخطه اليسير بغير علة ، ومن لا يرضى بشىء وان كان كثيرا جسيما ، وذو المكر الداهى الغامض مكرا ، واللهج بالزنى والخمر ، والسيىء الظن المتلون المبتهج القليل الحياء ... » (٢٦) .

ولكى يحسن الملك سياسته الداخلية يجب أن لا يكره أحدا على عمل من أعماله « لأن المكره لا يستطيع المبالغة فى العمل » ، ويجب أن يحتفظ

ببعض الأعمال ، وأن يقف على صفات العمال والأعوان وأن يوجه كل واحد منهم الى ما يوافقه ، وأن يتفقد العمال والأعمال ، فلا يخفى عليه احسان محسن ولا اساءة مسيء ، وأن يستشير لأن « الملك المشاور المؤامر يصيب فى مؤامرته ذوى العقول من نصحائه ، من الظفر ما لا يصيبه بالجنود والزحف وكثرة العدد ، فالملك الحازم يزداد بالمؤامرة والمشاورة ورأى الوزراء الحزمة ، كما يزداد البحر بمواده من الأنهار » (٢٧) ٠

ولكى يحسن الملك سياسته الداخلية يجب أن يحصن أسراره : « يصيب الملوك الظفر بالحزم ، والحزم بأصالة الرأى ، والرأى بتحصين الأسرار » (٢٨) ٠ « ينبغى للملك أن يحصن دون المتهم (النمام) سره وأمره ، فلا يدنو من موضع أسراره وأموره وكتبه ، حتى من الماء والفرش التى يجلس عليها ، والحله التى يلبسها ، والدابة التى يركبها ، والأدوية التى يشربها ، واكليل الريحان الذى يضعه على رأسه ، والطيب الذى يستعمله ، والشعار الذى يتخذه ، وكل شيء يدنيه منه » (٢٩) ٠

وعلى الملك أن يحسن سياسته الخارجية : « ذو العقل يجعل القتال آخر حيلة ويبدأ بما استطاع من رفق أو تمحل ولا يعجل » (٣٠) ٠ « اذا كان وزير السلطان يأمره بالمحاربة فيما يقدر على بغيته فيه بالمسالمة فهو أشد من عدوه له ضررا » أما السفراء بين الدول فيجب اختيارهم بكل اعتناء ، وعلى الرسول أن يكون ذا لين ومؤاتاه « فان الرسول يلين القلب اذا رفق ويخشن الصدر اذا خرق » (٣١) ٠

تلك بعض أقوال كليلة ودمنة فى أدب الملوك ، وهى أقوال موسومة بسمة الحكمة الانسانيـة ، ومبنية على تفهم عميق لنفسية البشر عامـة والملوك خاصة ٠

● أدب الصداقة : وللصداقة محل واسع فى كتاب كليلة ودمنة ، وهى تظهر فيه من ضرورات الحياة : « ليس من سرور الدنيا شيء يعدل صحبة الاخوان ، ولا فيها غم يعدل فقدهم » (٣٢) ٠ « الاخوان هم الأعوان على الخير كله ، والمؤاسون عند ما ينوب من مكروه » ٠ « لا خير من العيش بعد فراق الأحبة ٠٠٠ واذا فرق بين الأليف والفه فقد سلب سروره وغشى على بصره » (٣٣) ٠ « ان أولى أهل الدنيا بطيب العيش وكثرة السرور وحسن الثنـاء ، من لا يزال ربعـه موطـوءا من اخـوانه وأصدقائه » (٣٤) ٠

والصـداقة فى كليلة ودمنة نوعان : فهى تكون اما بتبادل ذات النفس ، واما بتبادل ذات اليد ، والأولى هى المصافاة ، وهى أفضل من الثانيـة ٠ واما رأس المودة فالاسترسـال ، وحسن الثقة بالصـديق والاستئناس به ٠

وثلاثه اشياء تزداد بها الصله بين الاصدقاء : المؤاكلة ، والزيارة في البيت ، ومعرفة الأهل والحشم · و « ثلاثة لا يلبث ودهم ان يتصرم : الخليل الذي لا يلاقي خليله ، ولا يكاتبه ، ولا يراسله » · ومن الأمور التي تقطع الصلة بين الأصدقاء أن يكثر الانسان على أصدقائه حمل المؤنات · والصداقة الصافية تفان في سبيل الصديق ، وايثار له على النفس ، وتقديم له على الذات · وهكذا كانت الصداقة في كتاب كليلة ودمنة من أعذب الأمور ، وكانت بلسم الحياة الدنيا ·

● أدب العقل والرأى : في كتاب كليلة ودمنة نزعة عقلية ، والعقل يظهر فيه اماما أكبر : « لا يفرح عاقل لكثرة ماله ، ولا يحزن لقلته ، ولكن الذي ينبغي أن يفرح به عقله وما قدم من صالح عمله » (٣٥) · والعاقل لا غربة عليه ولا وحشة اذا اغترب · والعقل أفضل من القوة لأن الأمور ليست بالقوة ولكن بالرأى ، والحيلة تغلب القوة ·

والعاقل ضابط نفسه ، ضابط لأموره ، ضابط لأحوال زمانه ، ضابط لغيره حتى اذا كان عدوا : « العاقل يصانع عدوه اذا اضطر اليه ، فيظهر له وده ، ويريه من نفسه الاسترسال اليه اذا لم يجد من ذلك بدا ، ويعجل الانصراف عنه اذا وجد الى ذلك سبيلا » (٣٦) ·

والعاقل العاقل من يقدم الحذر : « كأن يقال : ان العاقل انما يعد أبويه من الأصدقاء ، ويعد الاخوة من الرفقاء ، والأزواج الفا ، والبنين ذكرا ، والبنات خصيمات ، والأقارب غرماء ، ويعد نفسه فردا وحيدا » (٣٧) ·

وهكذا نلاحظ أن فلسفة كليلة ودمنة هي فلسفة رأى وحكمة لا فلسفة قوة ، هي فلسفة مصانعة لا فلسفة نزوات وأعصاب ·

● أدب الرجل والمرأة : تظهر المرأة في كليلة ودمنة بمظهر سيىء ، الا أن الأم تظهر أحيانا بمظهر شريف جدا كما نرى ذلك مثلا في باب الفحص عن أمر دمنة · وفي كلام الكتاب عن المرأة نزعة لا تخلو من تشاؤم ، فالمرأة لا تحفظ سرا ، وهي عالم من الاحتيال والخيانة والكذب ، بل هي عالم غريب الأطوار ، بعيد عن كل معقول : « ان الذهب يعرف النار ، وأمانة الرجل بالأخذ والعطاء ، وقوة الدواب تعرف بالحمل الثقيل ، والنساء ليس لهن شيء يعرفن به » (٣٨) · و « قل من حرص على النساء فلم يفتضح » (٣٩) ·

وهكذا فالمرأة محتقرة في كليلة ودمنة ! ، المرأة في جوهرها وأميالها · والعاقل العاقل من لا يسترسل اليها ومن لا يثق بها ·

● أدب المال : المال في كليلة ودمنة من ضرورات الحياة ، ذلك المال المصحوب بالقناعة لأن الفقر طريق الى الرذيلة ، والغني مع البخل

قباحة ، والناس مطبوعون على حب المال وهم شرهون اليـه حتى عند احتمال المكروه ، وقد « جعل زيادة للقوة » فقد كان الجرذ يستطيع الوصول الى سلة الناسـك حين كانت الدنانير فى جحره يفترشها ، ولما ذهبت ذهبت معها قوته •

والقناعة خير من الغنى الكثير • « وقد جربت وعرفت انه لا ينبغى لأحد أن يلتمس من الدنيا طلبا فوق الكفاف الذى يدفع به الحاجة والأذى عن نفسه ، وذلك يسير اذا أعين بسعة يد وسخاء نفس • فأما ما سوى ذلك ففى مواضعه ليس له منه الا ما لغيره من حظ العين • ولو أن رجلا وهبت له الدنيا بما فيها لم ينتفع من ذلك الا بالقليل الذى يكف به الأذى عن نفسه ، وأما سواه ففى مواضعه لا يناله » (٤٠) •

والغنى بلا مروءة لا يغنى شيئا • والمال سريع اقباله اذا أقبل ، وشيك ادباره اذا أدبر • والمال الكثير لا يدوم • « ويعد غنيا من لا يشارك فى ماله » • و « شر المال ما لا ينفق منه » •

وهكذا ترى أن تعاليم كليلة ودمنة فى شأن المـال موسومة بسمة الاعتدال ، ولئن كان هنالك من الأقوال ما يخالف ما ذكرناه فان ذلك وارد على ألسنة الأشرار وذوى الطمع والغرور •

وهكذا يبدو لنا المال وسيلة لا غاية ، وهكذا نجد فى كليلة ودمنة روحا انسانية رائعة •

● والى جانب ذلك كله نجد فى كليلة ودمنة كلاما كثيرا فى القضاء والقدر ، وأمور الآخرة ، وما الى ذلك ، والقدر فى الكتاب مسيطر على كل شىء ، وهو مغيب • « ليس من الخير والشر شىء الا وهو محتوم على من يصيبه ، بأيامه وعلله ومدته وكنه ما يبتلى به من قلته وكثرته » (٤١) • «ليعرف أهل النظر فى الأمور والعمل بها أن الأشياء كلها بقضاء وقدر ، لا يجلب أحد منها الى نفسه خيرا ولا يدفع عنها مكروها ، وان ذلك كله من الله عز وجل ، وأن الله يفعل فيها ما أراد ويقضى فيها ما أحب • فلتسكن الى ذلك الأنفس ولتطمئن اليه القلوب ، فان ذلك لمن ألهمه الله، ووفق له ، سعة وراحة » (٤٢) •

وهكذا ترى الجبرية من الأمور الأساسية فى كتاب كليلة ودمنة ، وهى تبلغ فيه أقصى حدودها ، وتصطدم بما فى الكتاب نفسه من حض على الخير وتجنب الشر أى بما هو من شأن الحرية • وهكذا التناقض هو من العقد الكبرى فى مذهب الجبرية •

ومهما يكن من أمر فالكتاب كنز من كنوز الحكمة البشرية السامية التى تغذى القلوب والنفوس •

القيمة الكبرى للكتاب

لقد نال كتاب « كليلة ودمنة » من الشهرة والذيوع فى مشـارق الأرض ومغاربها ما لم ينله كتاب غيره ، ويعد المعلم الأول لكل ذى حكمة وبيـان ٠

فقد وضع هذا الكتـاب منذ نيف وعشرين قرنا « لدبشليم » احد ملوك الهند الطغاة بعد عصر الاسكندر الأكبر المقدونى ، فأراد « بيدبا » الفيلسوف الهنـدى اصـلاحه فألف هذا الكتاب ، وجعل النصح فيه على ألسنة الحيوانات والطير ، على عادة الهنود البراهمة فى عصورهم القديمة ، فانهـم كانوا يروون الحـكمة على ألسـنة الحيوانات والطير ، لاعتقادهم بتناسخ الأرواح ٠

وقد تضـمن الكتاب أربعـة عشر بابا ، ومقـدمة ، ولم يعثر على النسخة الأصلية باللغة السنسكريتية لغة الهند القديمة ٠

وظل الكتاب محفوظا فى خزائن الهند ، ثم سمع بفضله كسرى أنوشروان ملك الفرس ، فأنفذ اليه « برزويه » الحكيم الفارسى ، رأس أطباء فارس الى بلاد الهند لاستنساخه ، وترجمته الى اللغة الفارسـية ، فقام بعمله خير قيام ، واستطاع أن ينقله من اللغة السنسكريتية الى اللغة الفهلوية « الفارسية القديمة » ٠

وبعد ترجمته الى اللغة الفارسية القديمة بمائتى عام قام بترجمته الى اللغة العربية ابن المقفع أول المترجمين من اللغة الأجنبية ، وزاد عليه المقدمة ٠

وقد صارت هذه الترجمة أساسـا لتراجم كثيرة بالسريانيـة ، والفارسية الحديثة واليونانيـة ، والعبرانية ، والمغولية ، والأفغانية ، والتركية ، والملوية ، كما صارت مصدرا أخذت عنه أوربا جميع ما تعرفه عن هذه الأقاصيص ، ثم اخترع بعض الكتاب حكايات وأمثالا على نسقها ، ونسق ما يروونه عن أحد قدماء اليونان « ايسوب » الحكيم اليونانى الذى كتب مثل هذه الأقاصيص ، ثم جاء على اثر ذلك « لافونتين » ، و«فلوريان» الشاعران الفرنسيان المجيدان ٠

ولقيمة هذا الكتاب الأدبية نظمه « أبان بن عبد الحميد اللاحقى » فقال فى أوله :

هذا كتـــاب أدب ومحنـــة   وهو الذى يدعى كليـل دمنـــة

كما نظم « أبو يعلى محمد » المعروف بابن الهبارية العباسى المتوفى سنة ٥٠٩ هـ كتابه « الفطنة » يقع فى ألفى بيت على مثال « كليلة ودمنة » اختــرع حكاياته وأمثاله بنظم رقيــق وسمى كتابه « الصادح والباغم » وأوله :

الحمـــد لله الذى حبـــانى   بالأصغرين القلب واللســـان

ويقول ابن الهبارية فى ترجمتـه : « انهـا خير من ترجمـــة « ابان اللاحقى » · وله نظم ثالث اســـمه « در الحكم فى أمثال الهنود والعجـــم » أكمله عبد المؤمن بن الحسن الصـــاغاتى · وكذلك ألف « أبو عبـد الله محمد بن القاســم القرشى » المعروف بابن ظفر المتــوفى سنة ٥٩٨ م ، كتابا بعنوان « سلوان المطاع فى عدوان الطباع » على غرار كليلة ودمنة ، كما ألف « ابن عربشاه » على هذا النسج كتابه « فاكهة الخلفاء ومناظرة الظرفاء » وكتــابه « مرزمان نامه « الذى ترجمـــه من الفارســـية · ويذكر كشف الظنون أن « أبا العلاء المعرى » ألف كتابا اسمه « القائف » على مثال كليلة ودمنة ، وهو فى ٦٠ كراسة ، ولم تتم ، وله كتاب آخر يسمى « منار القائف » يتضمن تفسيره فى عشر كراريس، وفى دثار اخوان الصفار رسالة بين الحيوان والانسان لاتخلو من لون كتاب « كليلة ودمنة » · ويقول « جولد تسيمر » ان اسم اخوان الصفا قد يكون مقتبسا من كتاب « كليلة ودمنة » ·

وغير هؤلاء وهؤلاء كثير من كبار الأدباء ·

وقد طبع الكتاب فى باريس ســـنة ١٨١٦ م البــارون سلفستر دى ساسى المستشرق الفرنسى الشهير ، وهذه الطبعة لها الفضل الأكبر على جميع قراء اللغة العربية فى الشرق والغرب ·

ومما جعل للكتاب قيمة كبيرة ، اشتماله على الحكم والأمثال الجديرة بالحفظ والاعتبار ، فى كل فن من فنون السياسة والاجتماع ، وأصول المعيشة ، على حسب ما تقتضيه أحوال ذلك الزمان ، وكذلك اشتماله على الخيال الرائع الباعث على السرور ، والمروح للنفوس ، باختراع القصص الجميلة ، والتشبيهات والاستعارات الرائعة ·

● **الحمامة والثعلب ومالك الحزين :**

قال الملك للفيلسوف :

اضرب لى مثلا فى شأن الرجــل الذى يرى الرأى لغيره ، ولا يراه لنفســه ٠

قال الفيلسوف :

ان مثل ذلك مثل الحمامة ، والثعلب ، ومالك الحزين ٠

قال : وما مثلهن ؟

قال الفيلسوف : « زعموا ان حمامة كانت تفرخ فى رأس نخـــلة طويلة ، ذاهبة فى السماء ، فكانت الحمامة تشرع فى نقل العش الى رأس تلك النخلة ، فلا يمكن ان تنقل ما تنقل من العش ، وتجعله تحت البيض الا بعد شدة ، وتعب ومشقة لطول النخلة وسحقها (٤٣)

فاذا فرغت من النقل باضت ، ثم حضنت بيضها ، فاذا فقست ، وأدرك فراخها ، جاءها ثعلب ، قد تعاهد ذلك منها ، لوقت قد علمه بقدر مما ينهض فراخها فيقف بأصل النخلة ، فيصيح بها ، ويتوعدها ان يرقى اليها ، فتلقى اليه فراخها ٠

فبينما هى ذات يـــوم ، قد أدرك لهـــا فرخان اذ أقبـل مالك الحزين (٤٤) ، فوقع على النخلة ، فلما رأى الحمامة كئيبـــة حزينـة ، شديدة الهم ، قال لها مالك الحزين :

« يا حمامة ! مالى أراك كاسفة اللون ، سيئة الحال » فقالت له :

« يا مالك الحزين ! ان ثعلبا دهيت به ، كلما كان لى فرخـــان ، جاء يهددنى ، ويصيح فى أصل النخلة ، فأفرق منه ، فأطرح اليه فرخى٠

قال لها مالك الحزين : « اذا أتاك ليفعل ما تقولين ، فقولى له : « لا ألقى اليك فرخى ، فارق الى ، وغرر بنفسك ، فاذا فعلت ذلك ، وأكلت فرخى طرت عنك ونجوت بنفسى » ٠

فلما علمها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع على شاطىء نهر ، فاقبل الثعلب فى الوقت الذى عرف ، فوقف تحتها ، ثم صاح كما كان يفعل ، فاجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين ٠

فقال الثعلب : « أخبريني من علمك هذا ؟ »

قالت : « علمنى مالك الحزين »

فتوجه الثعلب حتى أتى مالكا الحزين على شاطىء النهر فوجده واقفـــا ٠

فقال له الثعلب : « يا مالك الحزين ، اذ اتتك الريح عن يمينك ، فأين تجعل رأسك ؟ » ٠

قال : عن شمالى ٠

قال : فاذا أتتك عن شمالك ، فأين تجعل رأسك ؟

قال : أجعله عن يمينى أو خلفى ٠

قال : فاذا أتتك من كل مكان ، وكل ناحية ، فأين تجعله ؟

قال : « اجعله تحت جناحى » ٠

قال : « كيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك ؟ ما أراه يتهيأ لك » ٠

قال : بـلى

قال : « فارنى كيف تصنع ؟ فلعمرى يا معشر الطير ! لقد فضلكن الله علينا ٠ انكن تدرين فى ساعة واحدة مثل ما ندرى فى سنة ، وتبلغن مالا نبلغ ، وتدخلن رءوسكن تحت أجنحتكن من البرد والريح ، فهنيئا لكن ٠ فأرنى كيف تصنع ؟ » ٠

فأدخل الطائر رأسه تحت جناحه ، فوثب عليــه الثعلب مكانه ، فأخذه فهمزه همزة دقت عنقه ٠ ثم قال : « يا عدو نفسه ! أترى الرأى للحمامة وتعلمها الحيلة لنفسها ، وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يستمكن بك عدوك ، ثم أجهز عليه وقتله ٠

● الحمامة المطوقة :

قال بيدبا الفيلسوف :

زعموا انه كان بأرض سكاوندجين مكان كثير الصيد ، ينتابه الصيادون ، وكان فى ذلك المكان شجرة كثيرة الأغصان ملتفة الورق ، فيها وكر غراب •

فبينما هو ذات يوم ساقط فى وكره اذ بصر بصياد قبيح المنظر ، سيىء الخلق ، على عاتقه شبكة ، وفى يده عصا ، مقبلا نحو الشجرة ، فذعر منه الغراب • وقال : « لقد ساق هذا الرجل الى هذا المكان اما حينى (٤٥) ، واما حين غيرى ، فلأثبتن مكانى حتى أنظر ماذا يصنع ؟ ثم ان الصياد نصب شبكته ، ونثر عليها الحب ، وكمن قريبا منها ، فلم يلبث الا قليلا حتى مرت به حمامة يقال لها « المطوقة » ، وكانت سيدة الحمام ، ومعها حمام كثير ، فعميت هى وأصحابها عن الشرك ، فوقعن على الحب يلتقطنه ، فعلقن فى الشبكة كلهن ، وأقبل الصياد فرحا مسرورا ، فجعلت كل حمامة تضطرب فى حبائلها ، وتلتمس الخلاص لنفسها •

قالت المطوقة : « لا تخادلن فى المعالجة ، و لا تكن نفس احداكن أهم اليها من نفس صاحبتها ، ولكن نتعاون جميعا فنقلع الشبكة ، فينجو بعضنا ببعض •

فقلعن الشبكة جميعهن بتعاونهن ، وعلون فى الجو ، ولم يقطع الصياد رجاءه منهن ، وظن أنهن لا يجاوزن الا قريبا ويقعن •

فقال الغراب : « لأتبعهن ، وأنظر ما يكون منهن » •

فالتفتت المطوقة ، فرأت الصياد يتبعهن ، فقالت للحمام : « هذا الصياد مجد فى طلبكن ، فان نحن أخذنا فى الفضاء ، لم يخف عليه أمرنا ، ولم يزل يتبعنا ، وان نحن توجهنا الى العمران خفى عليه أمرنا وانصرف » •

وبمكان كذا جرذ هو أخ لى ، فاو انتهينا اليه ، وقطع عنا هذا الشرك !

ففعلن ذلك ، وأيس الصياد منهن وانصرف ، ويتبعهن الغراب ، فلما انتهت الحمامة المطوقة الى الجرذ أمرت الحمام أن يسقطن فوقعن ، وكان للجرذ مائة جحر للمخاوف :

فنادته المطوقة باسمه ، فأجابها الجرذ من جحره : من أنت ؟ قالت : أنا خليلتك المطوقة •

فأقبل اليها الجرذ يسعى • فقال لها : « ما أوقعك فى هذه الورطة ؟ » •

قالت له : « ألم تعلم انه ليس من الخير والشر شيء الا وهو مقدر على من تصيبه المقادير ، وهى التى أوقعتنى فى هذه الورطة ، فقد لا يمتنع من القدر من هو أقوى منى ، وأعظم أمرا ، وقد تنكسف الشمس والقمر اذا قضى ذلك عليهما ·

ثم ان الجرذ أخذ فى قرض العقد الذى فيه المطوقة ·

فقالت له المطوقة : « ابدأ بقطع عقد سائر الحمام » ·

وبعد ذلك أقبل على عقـدى ، وأعادت ذلك عليـه مرارا ، وهو لا يلتفت الى قولها ، فلما أكثرت عليه القول وكررت قال لها :

« لقد كررت القول على ، كأنك ليس لك فى نفسك حاجة ، ولا لك عليها شفقة ، ترعين لها حقا » ·

قالت : انى أخاف ان أنت بدأت بقطع عقدى أن تمل وتكسل عن قطع ما بقى ، وعرفت أنك ان بدأت بهن قبلى ، وكنت أنا الأخيرة ، لم ترض ـ وان ادركك الفتور ـ أن أبقى فى الشرك » ·

قال الجرذ : « هذا مما يزيد الرغبة والمودة فيك » ·

ثم ان الجرذ أخذ فى قرض الشبكة حتى فرغ منهـا ، فانطلقت المطوقة وحمامها معها · فلما رأى الغراب صنع الجرذ ، رغب فى مصادقته ، فجاءه وناداه باسمه ، فأخرج الجرذ رأسه · فقال له : « ما حاجتك ؟ » ·

قال : « انى أريد مصادقتك » ·

قال الجرذ : « ليس بينى وبينك تواصل ، وانما العاقل ينبغى له أن يلتمس ما يجد اليه سبيلا ، ويترك التماس ما ليس اليه سبيل ، فانما أنت الآكل ، وأنا طعام لك » ·

قال الغراب : « ان أكلى اياك ـ وان كنت لى طعاما ـ مما لا يغنى عنى شيئا ، وان مودتك آنس لى مما ذكرت ، ولست بحقيق ـ اذا جئت أطلب مودتك ـ ان تردنى خائبا ، فانه قد ظهر لى منك من حسن الخلق ما رغبنى فيك ، وان لم تكن تلتمس اظهار ذلك ، فان العاقل لا يخفى فضله ـ وان هو أخفاه ـ كالمسك الذى يكتم ثم لا يمنعه ذلك من النشر الطيب والأرج الفائح ·

قال الجرذ : « ان أشد العداوة عداوة الجوهر ، وهى عداوتان : منها ما هو متكافىء كعداوة الفيل والأسد ، ومنها ما قوته فى أحد الجانبين على الآخر · كعدواة ما بينى وبين السنور (٤٦) ، وبينى وبينك ، فان العداوة التى بيننا ليست تضرك ، وانما ضررها عائد على فان الماء لو أطيل

اسخانه لم يمنعه ذلك من اطفائه النار اذا صب عليها ، وانما مصاحب العدو ومصالحه كصاحب الحية يحملها فى كمه ، والعاقل لا يستأنس الى العدو الأريب ٠

★★★

وبعد ٠٠ فقد قدمنا للقارىء بيانا موجزا عن كتاب « كليلة ودمنة » لابن المقفع نابغة زمانه وحسبه فخرا أن يكون صاحب هذا الكتاب الذى طبقت شهرته الآفاق ، وبقى على الرغم من حوادث الزمان ونوب الأيام ، وكان فتحا جديدا ذا أدب رمزى خالد فى الأدب العربى والآداب الغربية ٠

وقد أوجزنا من النماذج المختارة من الكتاب ليكون أصل الكتاب أمام القارىء يعاود قراءتها كلما اتسع لذلك وقته ، وليحمله ذلك على الرجوع اليه ليقرأه ، ويتدبر ما فيه من المعانى والأفكار ، وليتخذ منه عونا على تفهم حيوات الناس ومجتمعاتهم ، فالناس هم الناس فى كل زمان ومكان ، والحياة بأمواجها ، وجزرها ومدها هى الحياة وان تغيرت مظاهرها ٠

وقد بين ابن المقفع ذلك المعنى فى عرض كتابه حيث قال :

« ينبغى لمن قرأ هذا الكتاب ان يعرف الوجوه التى وضعت له ، والى أى غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه الى البهائم والطير ، واضافة الى غير مفصح ، وغير ذلك من الأوضاع التى جعلها أمثالا ، فان قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعانى ، ولا أى ثمرة تجتنى منها ، ولا أى نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب » ٠

العين

الخليل بن أحمد

ح: ٧٨٠م

● ما أكثر ما يضفي الناس ـ في عالم الأدب والشعر ـ من نعوت وصفات ! ، فهذا واحد دهره ونسيج وحده ، وذاك فرد زمانه ، وذياك درة عصره ··· ثم ينقضي الزمان ، ويزول الهيل والهيلمان ، فيصبح الجميع في خبر كان !

وقل من صدق فيه الرأي في زمانه وبعد زمانه ، وهؤلاء الأفذاذ حقا على توالي الحقب وتتابع الأزمان ، ومن هؤلاء : الخليـل بن أحمد الفراهيدي ·

انه عبقري العرب وأستاذ سيبويه وعاشق الشعر الذي عكف عليه وجمعه وأرجعه الى قواعده وتصنيفات أسماها البحور وأدرج كل بحر في منبعه ومصبه وضبط قواعد الايقاع وسمى كل ذلك بالعروض ·· لأنه كان مقيما بالعروض وهي مكة فسماها بركة ويمنا ·

ولقد سموه عبقري العرب لأنه سبق زمانه بالف عام ومائتين وأكثر ولأنه كان أبعد مدى وأرحب في ميدان الكشف والعلم والعروض والشعر ·

والحديث عن شخصية الخليل بن أحمد يطول ، فلقد كان ذا شخصية نادرة متعددة الجوانب ، فقد كان عالما فذا في أكثر من فرع من فروع اللغة ·· كان اماما في النحو ، مخترعا لعلم العروض ، ومبتكرا للمعجم العربي ، وفوق هذا كله كان ذا عقلية رياضية رائعة ، وذهن يعشق المسائل العقلية المعقدة ، وان هذا ليظهر لنا بجلاء ووضوح في وضعه للمعجم العربي فقد اتبع فيه منهجا عقليا معقدا يدل على رقي فكره وتوقد ذهنه ورسوخ قدمه في علم الأصوات اللغوية ، وان هذا الرجل الذي وصفه عبد الله بن المقفع بأن عقله أكبر من علمه ، يطوي جوانحه على صفات سامية ، هي بحق أحلى ما يتحلى به العلمـاء العظام ، فقد كان الخليل ـ متواضعا غاية التواضع ، أنوفا الى أبعد مدى ، معتزا بنفسه وبعلمه ، ولكن بلا غرور أو تكبر ، وان كتب الأدب والتاريخ لتحوي ذخرا من الروايات التي تتحدث عن صفات الخليل هـذه ، وعن ترفعه عن ماديات الحياة ·

عصر الخليل ونشاته

فى خلافة الخليفة الثانى عمر بن الخطاب وفى سنة اثنتى عشرة من الهجرة أخذ المسلمون فى تمصير البصرة وأخذ العرب تباعا يفدون اليها جاعلين منها مقامهم ، ونزل اليمنيون طرفا والحجازيون طرفا وانحازت البطون والافخاذ الى أصولها تتميز بمنازلها •

وكان لهؤلاء العرب أسواق أدبية أقاموها فى البصرة تحكى أسواقهم فى الجاهلية ، أعرفها المربد الذى كان على ثلاثة أميال من البصرة ، والذى بلغت شهرته مبلغ عكاظ ، فكانت تعقد فيه حلقـات الخطباء وندوات الأدباء •

وعاشت البصرة صدر الاسلام مقر العلماء والحفاظ والقراء ، وحين أفضت الدولة الى بنى أمية وانتقلت العاصمة الى دمشق لم تفقد البصرة مكانتها العلمية والأدبية ، لا ينبغ شاعر ولا يظهر أديب ولا يبرز عالم الا قصد البصرة يجد فيها من يستمع له ويعى عنه ويأخذ منه ، وجذبت تلك المكانة غير العرب اليها من العراق وفارس وغيرهما فدخل على الفكر العربى جديد أضيف اليه ، وهكـذا عاشت البصرة فى العصر الأموى العاصمة العلمية للدولة على حين كانت دمشق العاصمة السياسية •

والى جانب البصرة كانت الكوفة ، غير أن البصرة ظلت أسبق وعنها كانت تأخذ الكوفة الى أن قامت الدولة العباسية فاخذ خلفاؤها يؤثرون علماءها على علماء البصرة ويتخذون منهم معلمين لأبنائهم •

وأذكى هذا الايثار الروح العلمية بين البلدين فكان له أثر أيما أثر فى انعاش الحياة العلمية وظهور آراء لم يكن يقدر لها الظهور لولا هذه المنافسة •

فى ظل هذه الحياة العلمية المنعشة المتأثرة بحضارات مختلفة كانت نشأة الخليل بن أحمد فى البصرة ، وكان مولده فى العام المتمم مائة من الهجرة فى خلافة الخليفة الأموى العادل عمر بن عبد العزيز (٩٩ هـ — ١٠١ هـ) • على ذلك اجماع المؤرخين • ثم امتدت به الحياة ليشهد نهاية الدولة الأموية وكان عندهـا قد جاوز الثلاثين بقليل ليستقبل الدولة العباسية ليعيش فى ظلها عمرا طويلا •

ولا نعلم على التحقيق أين كان مولده ، وان كان بعضهم يقول : انه ولد بمدينة عمان « بضم العين » •

وغلبة البصرى عليه واشتهاره بهذا اللقب دون غيره تكاد تفيدنا ان اقامته بعمان – ان صح انه ولد بها – لم تكن كثيرة ، لهذا نسيت عمان وذكرت البصرة ، هذا الى ما كان للبصرة من صفة ، أعنى مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة فى النحو العربى ·

والخليل بن أحمد يكنى أبا عبد الرحمن ، وأحمد هذا هو ابن عمرو ابن تميم ، ويذهب بعض النسابين الى انه ابن عمر بن تميم ، كما يذهب آخرون الى انه أحمد بن عبد الرحمن · والى مزهود بن مالك بن فهم ابن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد بن الغوث ينتهى نسب الخليل ·

وعلى أبى عمرو بن العلاء تتلمذ الخليل ، وكان أبو عمرو علما فى القراءة والعربية ، وكان من تلامذته مع الخليل يونس بن حبيب وأبو محمد على بن المبارك الزيدى ·

وكان الى جانب أبى عمرو بن العلاء شيوخ آخرون من المحدثين روى عنهم الخليل منهم : أيوب السختيانى البصرى ، وعاصم الأحول بن النضر البصرى ، وعثمان بن حاضر الأزدى ، والعوام بن حوشب وغيرهم ··

● زهده وعلمه ···

وكان الخليل يرى رأى الأباضية أتباع عبد الله بن أباض – وهم فرقة من الخوارج يقولون بتكفير مخالفيهم من أهل القبلة – غير انه ما لبث ان رجع عن ذلك حين جالس أيوب السختيانى · واذا عرفنا ان السختيانى كانت وفاته فيما بين سنتى ١٢٥ هـ ، ١٣١ هـ استطعنا أن نحكم بأن الخليل رأى رأى الأباضية مبكرا وعدل عنه مبكرا ·

والذين يترجمون للخليل يجمعون على انه كان من الزاهدين المنقطعين الى الله غير راغب فى متاع الدنيا ·

ومما يروى من زهده وتعففه انه أقام فى البصرة فى خص لا يقدر على فلسين وتلاميذه يكسبون بعلمه الأموال ·

وقد أرسل اليه سليمان بن على والى البصرة لتأديب أولاده نظير راتب يجريه عليه فأخرج خبزا يابسا وقال للرسول : مادام هذا عندى فلا حاجة لى فيه – وهو يعنى سليمان بن على – وكتب اليه شعرا يقول فيه :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة ... وفى غنىً غير أنى لستُ ذا مال
شحا بنفسى انى لا أرى أحدا ... يموت هزلا ولا يبقى على حال
والفقر فى النفس لا فى المال نعرفه ... ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

وكان النضر بن شميل يقول : أكلت الدنيا بعلم الخليل وهو فى خص لا يشعر به • وكان سفيان الثورى يقول : من أحب أن ينظر الى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر الى الخليل بن أحمد • وهو يعنى نقاء معدنه وطيب نفسه •

وفي الحق لقد كان الخليل من الراغبين عن الدنيا الراغبين إلى الله يحج سنة بعد سنة وكان يقول : ان لم تكن هذه الطائفة ـ يعنى العلماء ـ أوليـاء الله تعالى فليس لله ولى • وكان يقول : انى لأغلق على بابى فما يجاوزه همى •

وكان كثيرا ما ينشد بيت الأخطل :

واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخرا يكون كصالح الأعمال

والخليل بعد هذا كان ذكيا فطنا ، ولقد قيل : انه لم يكن بعد الصحابة أذكى من الخليل ولا أجمع لعلم العرب منه •

ويحكون أن الخليل وابن المقفع اجتمعا ليلة بطولها يتذاكران ثم افترقا ، فسئل الخليل عن ابن المقفع فقال : رأيت رجلا علمه أكثر من عقله ، وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ فقال : رأيت رجلا عقله أكثر من علمه •

ويزيدك ايمانا بحكم ابن المقفع على الخليل مما يرويه الأصمعى عن تقسيمه للعلوم هذا التقسيم الذى سأسوقه اليك والذى يدلك على مبلغ عقل هذا الرجل وتحكمه فيما بين يديه وانه لم يقف عند الوعى والحفظ بل عدا هذا وذاك الى الابداع والخلق • يروى الأصمعى فيقول قال الخليل : العلوم أربعة ، فعلم له أصل وفرع ، وعلم له أصل ولا فرع له ، وعلم له فرع ولا أصل له ، وعلم لا أصل له ولا فرع • فأما الذى له أصل وفرع فالحساب ، ليس بين أحد من المخلوقين فيه خلاف ، وأما الذى له أصل ولا فرع له فالنجوم ليس لها حقيقة يبلغ تأثيرها فى العالم ـ يعنى الأحكام والقضايا على الحقيقة • وأما الذى له فرع ولا أصل فهو الطب ، والعلم الذى لا أصل له ولا فرع فهو الجدل ـ يعنى الجدل بالباطل •

ومما ينطق بفطنته ما رووه له من انه كان عند رجل دواء لظلمة العين ينتفع به الناس ، فمات هذا الرجل وافتقر الناس الى ذاك الدواء • فقال الخليل : أله نسخة معروفة ؟ قالوا لا • قال : فهل له آنية كان يعمله فيها ؟ قالوا : نعم • قال : جيئونى بها • فجاءوه بها فجعل يشم الاناء ويخرج نوعا نوعا حتى أخرج الأخلاط جميعا وأخذ يتعرف أقدارها الى أن اهتدى الى ذلك • ثم وجدت النسخة فى كتب الرجل • فوجدت الأخلاط كما اهتدى اليها الخليل •

والمؤرخون مجمعون على انه كان اماما فى العربية كما كان الغاية فى استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه ، كما كان أول من استنبط علم العروض ٠

وما من شك فى أن معرفته بالايقاع والنظم أعانته على استنباط هذا العلم العروضى الذى لم يأخذه عن أسـتاذ ولا اجتذاه على مثال سابق ، ينضم الى هذا ذكاء خارق ٠ ولقد قالوا عنه فى استنباط لهذا العروضى واختراعه اياه من ان ذلك تأتى له حين كان يمر بالصفارين فيسمع مطرقة على طست وكان عندها يردد بيتا من الشعر فاذا هو يوائم بين ما يسمع وبين ما يردد واذا الفكرة تواتيه فى أن يقطع الشعر تقطيعا ينتهى به الى وضع البحور ، وما تحتها من تفصيلات ٠

وهذا ان صح يدلك على ما رزق الرجل من بديهة متوثبة وفطنة متأهبة ٠

والذى لا نشك فيه أن الرجل كان على قدرة على تلوين النظم والتحكم فيه أكسبته اياها معرفتـــه النغم والايقاع ، فهم يروون له قصيدة على « فعلن فعلن » ثلاثة متحركات وساكن التى يقول فيها :

سـئلوا فأبوا فلقد بخلوا   فلبئس لعمـــرك ما فعلـوا
أبكيت على طلل طربـــا   فشـــجاك وأحزنك الطلل

كما يروون له قصيدة على « فعلن » ساكنة العين يقول فيها :

هـذا عمرو يسـتعفى من   زيد عند الفضـــل القاضى
فانهـــوا عمـرا انى أخشى   صـول الليث العادى الماضى

فهذه القدرة هى التى يسرت للرجل أن يملى على الشعر تلك الأوزان التى اخترعها ٠ ولقد كان بهذا مشغولا شغل به فترة ما يظن أنها كانت قصيرة ، فمثل هذا العلم الأصيل الدقيق الوافى لا يكون نتاج ساعة ٠ وما نظن تلك الحادثة التى وقعت له فى سوق الصفارين ـ ان صحت ـ الا بدء الفكرة ٠

ومما يدلك على شغل الخليل بهذا العلم العروضى كما قلنا وانه كان لهجا به لا يفتأ يشغل بالتقطيع حتى غلبه التقطيع على أمره وبات يردده على غير وعى : ما يروونه عنه من أن ابنا له دخل وهو يقطع بيتا من الشعر وما نظن الخليل كان عندها مالكا لأمره ، اذ لو كان كذلك ما خرج ابنه عنه وهو يصرخ ويقول : ان أبى قد جن ٠ ويدخل الناس عليه فيعلمون حاله ويجدونه على غير ما قال ابنه فيقول مخاطبا ابنه :

لو كنت تعلم ما أقــول عذرتنى أو كنت أعلـم ما تقــول عـذلتكا
لكن جهلت مقـــالتى فعذلتنى وعلمت انـك جاهل فعـذرتكا

وهكذا تلخص هذه الحادثة نشأة هذا العلم فى رأس الخليل وشغله به شغلا الهاه عن نفسه وكاد يثير حوله الشكوك • وما تظن هذا العلم استوى له الا بعد جهد طويل كما قلنا •

● والخلاف فى موت الخليــل يربى على الخلاف فى مولده فمن المؤرخين من يقول انه مات سنة خمسة وسبعين ومائة على هذا الرأى الكثرة • ومنهم من يقول : انه مات سنة سبعين ومائة •••

وبعد هذه الأقوال المتقاربة ينقل ابن خلكان فى كتابه « الوفيات » قولا بعيدا عن هذه الأقوال كلها فيقول : وقال ابن الجوزى فى كتابه الذى سماه شذور العقود انه توفى سنة ثلاثين ومائة •

غير أن ابن خلكان لا يترك هذا القول يمر دون تعقيب منه عليه فيقول : « وهذا غلط قطعا » •

والمؤرخون الذين اختلفوا اختلافا يسيرا فى مولد الخليل ثم اختلفوا اختلافا كثيرا فى وفاته لم يختلفوا فى مكان موته فكلهم مجمعون على انه مات بالبصرة •

والخليل لم يمت عن علة وانما مات من صدمة بسارية فى المسجد ، فالمؤرخون يروون انه دخل يوما المسجد وهو مشغول الفكر ، فشغل عن ان يبصر ما بين يديه ، فاذا سارية تصدمه ، واذا هو يقع ميتا •

والمؤرخون الذين يروون هذا لم يسكتوا عن أن يدخلوا فى رأس الخليل ليتبينوا ما شغله فيقولون : كان يقول : أريد أن أقرب نوعا من الحساب تمضى به الجارية الى البياع فلا يمكنه ظلمها ، وانه دخل المسجد وهو يعمل فكره ، فانقلب على ظهره فكانت سبب موته •

كما يقولون : بل كان يقطع بحرا من العروض •

وكان آخر ما قاله : « لا تبكوا •• فوالله ما فعلت فعلا أخاف على نفسى منه •• وما كان لى فضل فكر صرفته الى جهة وددت بعد ذلك انى كنت صرفته فى جهة غيرها •• وما علمت انى كذبت متعمدا قط •• وأرجو أن يغفر لى الله التأويل » •

ومات الخليل وما نظنه دون كل ما علم ، فقد دون شيئا واحتفظ بشىء آخر جعل وعاءه قلبه يمليه على تلاميذه ، وكان منه هـذا الذى يتصل بالنحو والذى أخذه عنه تلميذه سيبويه

واليك ما وقع لنا مما دونه الخليل من كتب :

١ ـ كتاب الايقاع . ذكره ابن النديم وابن خلكان .
٢ ـ « تصريف الفعل ، ومنه قطعة بمكتبة بودليانا .
٣ ـ « التفاحة ، فى النحو . وقد صورته البعثة المصرية لتصـوير مخطوطات اليمن .
٤ ـ « جملة آلات العرب . ومنه نسخة بمكتبة اياصوفيا .
٥ ـ « شرح صرف الخليل . ومنه قطعة بمكتبة برلين .
٦ ـ « الشواهد . ذكره ابن النديم وابن خلكان .
٧ ـ « كتاب العروض . ذكره ابن النديم وابن خلكان .
٨ ـ « فائت العين . ذكره ابن النديم .
٩ ـ « فى العوامل . ذكره ابن خلكان .
١٠ ـ « فى معنى الحروف . ومنه نسخة بمكتبة ليدن وأخرى بمكتبة برلين .
١١ ـ « النغم . ذكره ابن النديم وابن خلكان .
١٢ ـ « النقط والشكل . ذكره ابن النديم وابن خلكان .
١٣ ـ وبعد هذا يأتى كتابه الكبير الخالد الذى يعد أهم مؤلفاته وهو : كتاب العين ، الذى هو أول معجم عربى .

كتاب العين

كانت ثمة أسباب جعلت الخليل بن أحمد يفكر جديا فى وضع معجم لغوى عربى وهذه الأسباب هى :

أولا : كان البدو الذين يسكنون البادية هم النبع الذى ينهل منه النحاة واللغويون كل ما يحتاجون اليه من الفاظ ، لكن هؤلاء البدو أخذوا يهاجرون الى الحضر شيئا فشيئا ، وأوشكت البادية أن تقفر ويجف فيها

النبع الفياض ، مما أدى الى التفكير الجدى فى وضع معجم يجمع كل ما توفر لدى النحاة من مفردات ، وكان لدى الخليل بن أحمـد ــ وهو تلميذ لامام النحاة أبو عمرو بن العلاء ــ الشيء الكثير منها ·

ثانيا : تدفق الكثير من الأعاجم على البلاد العربية ، واقامتهم بها مما أدى الى ضرورة وضع معجم يشرح لهم قواعد اللغة العربية ، ويضع أيديهم على أسرارها ، ويشجعهم على تعلمها ·

ثالثا : وبسبب هجرة الأعاجم الى البـلاد العربية ، خشى النحاة واللغويون على اللغة العربية من الفساد فاصبحت الحاجة ماسة الى وضع معجم يحفظ لها أصالتها ورونقها ، وهى توشك أن تفسد لحنا وتحريفا ·

رابعا : ازدهار حركة التدوين فى العصر العباسى الأول ·

كل هذه الأسباب شجعت الخليل بن أحمد على تنفيذ فكرته لاسيما وانه كان عالما جليلا ولغويا قديرا يعرف ماذا يكتب ولأى شيء يكتب ·

والسؤال الآن : هل سبق أحد الخليل بن أحمد الى وضع معجم لغوى عربى · أم ان معجم الخليل يعد المحاولة الأولى من نوعها فى هذا المجال ؟ واذا كان هناك من سبق الخليل الى وضع معجم فالى أى مدى استفاد الخليل من هذه المحاولة ؟

من قبل كتاب العين كانت محاولات حول جمع الكلمات التى تتصل بغرض ما حسيا كان أو معنويا ، فالجمع عنى أولا بتدوين كل ما يتصل بالسيف مثلا وبالزرع والنبات والمطر الى ذلك من الموضوعات الحسية ثم بالقوة والخور والشباب وغير ذلك من الموضوعات المعنوية ·

لقد سبق هذا التدوين الخاص ، وكأن ما وصلنا منه قبل الخليل قليل مثل كتاب الحشرات لأبى خيرة الأعرابى ، ثم ان هذا التدوين الخاص لم يقطع بظهور التدوين العام الذى بدأ به الخليل فلقد كان منه الكثير مما عاصر الخليل ومما جاء بعده ·

ولكن كان الخليل السابق الى تدوين اللغـة وترتيب الفاظها على مخارج حروف الهجاء ·

وكانت بين يدى الخليل الحروف العربية فى صورتين سابقة وهى الأبجدية أعنى : أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ ، تلك الكلمات التى تنتظـم حروف الهجـاء مرتبـة على هذا السـياق الذى تصوره الكلمات على ترتيبها هذا الذى جاءت عليه اللغة الفينيقية

ثم اليونانية والذى هو هو فى اللغات السامية ، ما عدا الحروف التى انفردت بها العربية ٠

والى جانب تلك الصورة كانت صورة أخرى تنتظم حروف الهجاء العربية تضم الحروف المتشابهـة بعضها الى بعض كمـا هى الحال فى الحبشية وان كانت تختلف شيئا عن النسق الحبشى الذى لا تزال صورته يحتفظ بها الترتيب المغربى وهو :

أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و ى ٠

على حين هو عند العرب المشارقة :

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و لا ى ٠

وما من شك فى أن هذا النسق الثانى كان موجودا الى جانب النسق الأول من قبل أيام الخليل وحسـبك ما أثر يوما فى حضرة الخليفة المروانى عبد الملك بن مروان (٢٦ هـ ــ ٨٦ هـ) حين قال لجلسائه : ايكم يأتينى بحروف المعجم فى بدنه وله على ما يتمناه ؟ فقام اليه سويد ابن غفلة فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين ٠ فقال : ما عندك ؟ فقال : أنف ٠ بطن ٠ ترقوة ٠ ثغـر ٠ جمجمة ٠ حلق ٠ خد ٠ دماغ ٠ ذكر ٠ رقبة ٠ زند ٠ ساق ٠ شـفة ٠ صدر ٠ ضلع ٠ طحال ٠ هامة ٠ وجه ٠ يد ٠ فهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين ٠

فهذه الكلمات بمساقها هذا تشير حروفها الأولى الى حروف الهجاء وترتيبها الذى ارتضاه العرب المشارقة ولازلنا نحن عليه ٠

كان هذان النسقان بين يدى الخليل أعنى النسق الأبجدى ثم النسق الآخر الذى تصور صورتين صورة مشرقية وصورة مغربية (حبشية) وكان بوسع الخليل أن يرتب معجمه على واحد من هذين النسقين ولكنا رأيناه يأبى هذا النسق وذاك ويرتب معجمه على نسق جديد خضع فيه لمخارج الحروف ٠

والمتصلون بعلم اللغات يحدثوننا أن اللغة السنسكريتية (٤٧) فيها هذا المنحى الذى ينظر الى مخارج الحروف ٠

ولقد كانت للعرب صلات بالهند ، وكانت البصرة كما قلنا محط رحال الكثيرين من هنا ومن هناك ٠ وقد يكون الخليل لقن شيئا من

هذا عن السنسكريتية فاخضع له لغته العربية ، كما قد يكون هذا من بدع الخليل ، ولقد كان الرجل رجل صوت فلم لا تملى عليه فطنته الصوتية هذا المنحى اللغوى كما أملت عليه المنحى العروضى فابدع هنا وهناك ٠

ورتب الخليل الحروف العربية على مخارجها من الحلق على النظام الآتى كما جاء فى مقدمته لكتاب العين :

ع ٠ ح ٠ هـ ٠ خ ٠ غ ٠ ق ٠ ك ٠ ج ٠ ش ٠ ض ٠ ص ٠ س ٠ ز ٠
ط ٠ ت ٠ د ٠ ظ ٠ ث ٠ ر ٠ ل ٠ ن ٠ ف ٠ ب ٠ م ٠ و ٠ ا ٠ ى ٠

وقد ساقها ابن منظور فى مقدمته لكتابه « اللسان » وهو يصف كتاب العين على النحو الآتى :

ع ٠ ح ٠ هـ ٠ خ ٠ غ ٠ ق ٠ ك ٠ ج ٠ ش ٠ ض ٠ ص ٠ س ٠ ز ٠
ط ٠ د ٠ ت ٠ ظ ٠ ذ ٠ ث ٠ ر ٠ ل ٠ ن ٠ ف ٠ ب ٠ م ٠ ى ٠ و ٠ أ

ولبعض الادباء ممن لهم نظم فى ترتيب حروف كتاب العين ، وهو أبو الفرج سلمه بن عبد الله والان المعافرى الجزيرى :

يا سائلى عن حروف العين دونكما	فى رتبه ضمهـا وزن واحصـاء
العين والحاء ثم الهاء والخاء	والغين والقـاف ثم الكاف اكفـاء
والجيم والشين ثم الضـاد يتبعهـا	صـاد وسين وزاى بعدها طاء
والدال والتاء ثم الظـاء متصـل	بالظـاء ذال وثـاء بعدهـا راء
واللام والنون ثم الفـاء واليـاء	والميم والـواو والمهمـوز واليـاء

غير انه يلاحظ أن ثمة خلافا فى الترتيب بين ما سيق منظوما وبين ما سيق غـير منظوم فى الحروف الأخيرة وهى التى يضمها عجز البيت الأخـير ٠

وعلى حين يعـد الخليل العين أقصى الحروف مخرجا يذكر سيبويه أن الهمزة أقصى الحروف مخرجا ٠ غير أنه يروى عن ابن كيسان (٢٩٩ هـ) انه سمع من يذكر عن الخليل انه قال : لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف ولا بالألف لأنها لا تكون فى ابتداء كلمة ولا فى اسم ولا فعل الا زائدة أو مبدلة ولا بالهاء لأنها مهموسة لا صوت لها فنزلت الى الحيز الثانى وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع الحرفين فابتدأت به ليكون أحسن فى التأليف ٠ وليس العلم بتقدم شىء على شىء لأنه كله مما يحتاج الى معرفته فبأى بدأت كان حسنا وأولاها بالتقديم أكثرها تصرفا ٠

وقد بسط الخليل فى كتابه العين الكلام فى هذه الحروف ومخارجها فعدها تسعة وعشرين حرفا جعل منها خمسة وعشرين حرفا صحاحا لها احياز ومدارج كما جعل منها أربعة هوائية :

(أ) أما الصحاح فهى على وفق ما رتبها :

١ ـ العين ثم الحاء ثم الهاء من حيز واحد ، وبعضها أرفع من بعض ·

٢ ـ الخاء والغين من حيز واحد ، وهذه الأحرف الخمسة يلقبها بالحروف الحلقية ·

٣ ـ والقاف والكاف لهويتان ، لأن مبدأهما من الهـاء ، والكاف أرفع ·

٤ ـ الجيم والشين والضاد ، فى حيز واحد ، وهى حروف شجرية لأن مبدأها من شجر الفم ، وهى مفرجة ·

٥ ـ الصاد والسين والزاى ، فى حيز واحد ، وهى حروف أسلية لأن مبدأها من شجر الفم ، وهى مفرجة ·

٦ ـ الطاء والدال والتـاء ، فى حيز واحد ، وهى حروف قطعية لأنها تخرج من نطع الغار الأعلى ·

٧ ـ الظاء والذال والثاء ، فى حيز واحد ، وبعضها أرفع من بعض ، وهى حروف لثوية ·

٨ ـ الراء واللام والنون ، فى حيز واحد ، وهى حروف ذلقية لأن مبدأها من ذلق اللسان وهو تحديد طرفه ·

٩ ـ الفاء والباء والميم ، فى حيز واحد ، وهى حروف شفوية لأن مبدأها من الشفة ·

(ب) أما الحروف الهوائية فهى :

١ ـ الياء والواو والألف والهمزة ، وليس لها حيز تنسب اليـه الا الهواء ، غير أنه جعل الواو والألف والياء قسما ؛ والهمزة وحدها قسما ·

وأنت ترى أن ثمة فروقا بين هذا النسق والنسق الأول لاسيما فى حروف العلة فعلى حين قد رتبها أولا : (و ـ أ ـ ى ـ) اذا هو يرتبها

هنا (ى ـ و ـ أ ـ) ثم يرتبها مرة أخرى فى مقدمته (و ـ ى ـ أ ـ) ويسوقها المعافرى فى بيته الأخير على ترتيب مخالف حيث يقول :

والـلام والنون ثم الفــاء والبــاء والميم والـواو والمهمـوز واليــاء

واذا عدنا الى سيبويه ، وهو تلميذ الخليل وجدناه يرتب الحروف على النحو الآتى :

الهمزة ـ الألف ـ الهاء ـ العين ـ الحاء ـ الغين ـ الخاء ـ القاف ـ الكاف ـ الميم ـ الشين ـ الياء ـ الضاد ـ اللام ـ الراء ـ النون ـ الطاء ـ الدال ـ التاء ـ الصاد ـ الزاى ـ السين ـ الظاء ـ الذال ـ الثاء ـ الفاء ـ الباء ـ الميم ـ الواو ·

ومن هنا ترى ان هذا النظام الذى أراده الخليل وتأثره به سيبويه لم يكن يضبطه ضابط آلى كما هى الحال اليوم بعد أن أصبحت فى أيدينا آلات لتسجيل مخارج الحروف على وجه دقيق استطعنا بها ترتيب الحروف ترتيبا حديثا يخالف رأى الخليل فى شىء ويوافقه فى شىء آخر ·

* * *

صورة من عرض الخليل لمادته

واليك مادة من مواد كتاب العين ، من الثنائى المضاعف وهى « عق » تكشف عن منهج الخليل ·

عـق :

يقول الخليل :

العرب تقول : عق الرجل عن ابنه ويعق عقا ، اذا حلق عقيقته وذبح شاة ـ وتسمى الشاة التى تذبح لذلك عقيقه ـ قال الليث : توفر أعضاؤها فتطبخ بماء وملح فتطعم المساكين ـ وفى الحديث : كل امرىء مرتهن بعقيقته · وفى الحديث : ان الرسول صلى الله عليه وسلم عق عن الحسن والحسين فأعطى بزنة شعورهما ورقا ·

والعقة : العقيقة · وتجمع عققا · والعقيقة : الشعر الذى يولد به · وتسمى الشاة التى تذبح لذلك عقيقة · يقع اسم الشعر على الطعام كما وقع اسم الجزور التى تنقع على العقيقة · وقال زهير فى العقيقة

أذلك أم أقب البطن جـاب عليـه من عقيقته عفــاء

وقال امرؤ القيس :

يا هنـد لا تنكحى بوهـــة عليــه عقيقتــه أحســبا

ويقال أعقت الحامل : اذا نبتت العقيقة على ولدها فى بطنها ، فهى معق وعقوق ، وجماعة العقوق عقق ٠

قال رؤبة :

قـد عتق الأجدع بعـد رق　　بقـــارح أو زولة معـق

وقال :

وســوس يدعو مخلصا رب الفلق　　سرا وقــد أون تأويـن العقـق

وقال أيضا :

كالهورى انجاب عن ليـــل البرق　　طـير عنهـا النسر حـولى العقق

وجماعة العقة : العقق ٠ قال عدى بن زيد العبادى فى العقة ، أى العقيقة :

صبيت التعشـير رزام الضحى　　ناسـل عقته مثـل المسـد

ونوى العقوق : نوى هش لين رخو المضـغة تعلفه الناقة العقوق الطافا لها فلذلك أضيف اليها ٠ وتأكله العجوز ٠ وهى من كلام أهل البصرة لا تعرفه الأعراب فى بواديها ٠

وعقيقة البرق : ما يبقى فى السحاب من شعاعه ٠

قال : وجمعه العقائق ، قال عمرو بن كلثوم :

بسمر من قنـا الحطى لدن　　وبيض كالعقائق يختليتـــا

وانعق البرق ، أى تسرب فى السحاب ، وانعق الغبار : اذا سطع ٠

قال رؤبة :

اذا العجاج المستطار انعقا

قال أبو عبد الرحمن ـ وهو الخليل ـ أصل العق الشق واليه يرجع عقوق الوالدين ، وهو قطعهما ، لأن القطع والشق واحد ٠ يقال : عق ثوبه ، اذا شقه ٠ ومنه : عق والديه يعقهما عقا وعقوقا ٠ قال زهير :

فاصبحتما فيهـــا على حيز موطن　　بعيدين فيهـا من عقوق ومأثم

وقال آخر :

ان البنين شرارهم أمثـــاله　　من عق والده وبر الأبعـــدا

وقال أبو سفيان بن حرب لحمزة سيد الشهداء رضى الله عنه يوم أحد حين مر به وهو مقتول :

ذق عقق • أى ذق جزاء فعلك يا عاق ، لأنك قطعت رحمك وخالفت آباءك وذقت وبال ما حسبت •

والمعقة والعقوق واحد قال النابغة :

أحلام عاد وأجســاد مطهرة   من العقــة والآفات والأثم

والعقيق : جذع أحمر ينظم ويتخذ منه الفصوص ، الواحدة عقيقة • والعقيق • واد بالحجاز ، كأنه عق ، أى شق ، غلبت الصفة عليه غلبة الاسم ، ولزمته الألف واللام لأنه جعل الشيء بعينه • قال جرير :

فهيهــات هيهــات العقيق وأهله   وهيهــات خــل بالعقيق نحــاوله

أى بعد العقيق وأهله •

ثم يختم الخليل المادة بالرباعى المكرر البنية فيقول :

« والعقيق : طائر أبلق طويل الذنب يعرف صوته بالعقيقة ، وجمعه : عقاعق » •

★★★

هذه صورة من عرض الخليل لمادته • وهذا الجهد الذى نلمسه هنا نلمس مثله فى جميع المواد ، وهذا يصور لك كم كان عناء هذا الرجل الذى يقال عنه انه الواضع لمعجم عربى وليته حين أخذ فى عمله خفف عن نفسه شيئا فلم يضم الى مشقة مشقة أخرى بهذا الترتيب الذى التزمه •

ولكنك ترى أن هذه المادة الزاخرة التى ضمها كتاب العين والتى سقنا لك شاهدا منها بعيد ان تستوعبها ذاكرة ، وان الخليل كان حين هم بهذا العمل الكبير يملك مظانا بين يديه ، وحين استوى له المنهج الذى رسمه استطاع أن يستفرغ المظان ويستصفى ما فيها ، ولكنه على كل حال جهد لا يطيقه الا الخليل يملك العقل المنظم والرأى الهادى اللذين بهما يهون الكثير •

والماضى فى كتاب العين يرى ان الخليل عنى عناية كبيرة باللغات فذكر عنعنة تميم وكشكشة ربيعة كما أشار الى لغة هذيل وتميم واليمن ، كما لم يفته ان يشير الى لغة المعاصرين له فى اقليمه العراق أو بلدته البصرة •

كما عنى بالقياس يرد أكثر ما يورد اليه ، كما لم يسكت عن تعليل المسميات التى يوردها ليربطها بمواردها ، كما دعم لشروحه اللغوية بموفور من الشواهد الشعرية والأمثال والقرآن والحديث •

على يد الخليل خرج سيبويه [illegible]

لقد كان الخليل بن أحمد ـ كما قلنا آنفا ـ عالما فذا ولو لم يقدم للعربية سوى علومه التى لقنها لتلاميذه لكان هذا فخرا له لا يعدله فخر ؛ ولو بعث الخليل بن أحمد حيا اليوم لحق له أن يمشى بيننا فى خيلاء ، ولم لا وهو الذى بفضل علمه وتوجيهه وارشاده قدم للغة العربية عالما جليلا أيضا تعتز به العربية وتفخر ، وهو سيبويه الذى وصفه صاحب وفيات الأعيان بأنه : « كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو ولم يوضع فيه مثل كتابه » • بل ان شخصية الخليل لم تظهر قوية واضحة الا فى تآليف تلاميذه فظهرت شخصيته فى كتاب سيبويه « الكتــاب » الذى عده النقاد جامعا لمادته فقط التى أخذها عن استاذه الخليل بن أحمد • فقد كان الخليل بن أحمد هو الذى أوحى لسيبويه بوضع ذلك الكتاب ليكون دستورا للنحو العربى •

اذن فعلى يد الخليل خــرج سيبويه وعنــه أخذ ، وكل ما يحكيه سيبويه فى كتابه فعن الخليل ، وكذلك كل ما جاء فى الكتاب غير معرو لقائل فعن الخليل ، وحين يقول سيبويه فى كتابه : فسألته ، فهو يعنى الخليل • وهكذا ترى ان كتــاب سيبويه يكاد يـكون أكثره لأســتاذه الخليل •

وشــارك سيبويه فى الأخذ عن الخليل جملة منهم أبو فيــد مؤرخ السدوسى وعلى بن نصر الجهضمى •

وكما حدث الخليل عن شيوخ من المحدثين مروا بك حــدث عنه شيوخ من المحدثين • فقد روى عنه : حماد بن زيد ، وأيوب بن المتوكل ، والأصمعى ، وهارون بن موسى ، ووهب بن جرير بن حــازم ، وداود بن المحبر ، وأخوه هذاب بن المجد •

ولقد جاء بعد الخليل بن أحمد من حذا حذوه منهم النضر بن شميل (٢٠٤ هـ) يذكر له حاجى خليفة فى كتابة كشف الظنون كتابا اسمه « الجيم » ولا شك في انه تأثر فيه بمنهج أستاذه ان صح ما رواه حاجي فالذى نعرفه ان النضر بن شميل له كتــاب اسمه « المدخل الى كتاب العين » • وثمة رجل آخر كان معاصرا لابن شميل وهو أبو عمرو الشيبانى اسحاق بن مرار (٢٠٦ هـ) يعزى اليه كتاب فى اللغة اسمه الجيم أيضا وكان يظن خطأ انه معزو الي الحرف الأول منه واذا الكتاب ليس كذلك وانما هو مبدوء بالهمزة وان تسميته بهذا الاسم لعلة أخرى رآها مؤلفه فمن معانى الجيم فى اللغة الديباج والاستحسان المؤلف لكتابه سماه

بالجيم . ومن بعد النضر جاء الهروى أبو عمرو بن حمدويه (٢٢٥ هـ). فلقد كان له كتاب اسمه الجيم أيضا يقول ابن الأنبارى عنه فى كتابه « نزهة الألباء فى طبقات الأدباء » : « وألف كتابا كبيرا على حروف المعجم وابتداه بحرف الجيم » .

ويذكر حاجى خليفة كتابين آخرين احدهما كتاب العين ويعرف به فيقول : « فى الحروف » ولا يزيد على ذلك شيئا ، وثانى الكتابين هو كتاب الميم للبونى أحمد يعرف به حاجى خليفة وأكبر الظن ان الكتابين من هذا المنحى .

المدرسة المعجمية التى اقتفت

أثر الخليل بن احمد

وبعد .. فلقد كان الخليل بكتابه هذا أول معجمى وكان رأسا لمدرسة اقتفت أثره وانتفعت بمنهجه ، فعلى منهج الخليل ألف الغالى اسماعيل بن القاسم (٣٥٦ هـ) معجمه « البارع » ، ثم الأزهرى أبو منصور محمد بن أحمد (٣٧٠ هـ) معجمه « التهذيب » ثم الصاحب بن عباد أبو القاسم اسماعيل (٣٨٥ هـ) معجمه « المحيط » وابن سيدة أبو الحسن على بن اسماعيل (٤٥٨ هـ) معجمه « المحكم » .

وكذلك انتفعت بكتاب العين المدرسة المعجمية الثانية التى حاولت التحلل من الترتيب على مخارج الحروف ، فهى وان لم تنتفع بمنهج الخليل فى هذا فقد أفادت الكثير من مادته فلم يبعد ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسين (٣٢١ هـ) فى معجمه « الجمهرة » عن كتاب العين . كما أفاد ابن فارس أحمد (٣٩٥ هـ) منه شيئا فى معجميه « المقاييس » و « المجمل » .

وكما شغل كتاب العين المنشئين شغل المتعقبين والمصنفين ، فلقد استدرك أبو فيد مؤرخ السدوسى ونصر بن على الجهضمى على كتاب العين كما استدرك عليه أيضا أبو تراب . وألف المفضل ابن سلمه (٣٠٨ هـ) كتابا فى الرد على الخليل وألف الكرمانى النحوى الوراق هو الآخر (٣٢٩ هـ) كتابا سماه (الجامع فى اللغة) جمع فيه ما أغفله الخليل فى كتاب العين .

وفى نحو هذا ألف المطرز أبو عمر بن عبد الواحد (٣٤٥ هـ) كتابا سماه « فائت العين » كما ألف البشتى الخارزنجى أبو حامد أحمد ابن محمد كتابا سماه (التكملة) وكذلك الف أبو الأزهرى البخارى

(القرن الرابع) كتابا سماه (الحصائل) والهمذانى الراعى أبو الفتح محمد بن جعفر (٣٧١ هـ) كتابه الاستدراك كما ألف الزبيدى أبو بكر محمد بن حسن (٣٧٩ هـ) كتابه (المستدرك) ثم الخطيب الاسكافى أبو عبد الله محمد بن عبد الله (٤٢٠ هـ) كتابه « غلط العين » ثم ابن التيانى أبو غالب تمام بن غالب (٤٣٦ هـ) كتابه (الموعب) ٠

فهذه جملة من الكتب التى تعقبت الخليل فى كتابه العين ٠ وثمة كتب أخرى لمؤلفين حاولوا انصاف الخليل والرد على متعقبيه نذكر منها :

١ ـ كتاب التوسط ، لابن دريد محمد بن الحسن (٣٢١ هـ) ٠

٢ ـ كتاب الرد على المفضل فيما أخذه على الخليل لابن نفطويه ابراهيم ابن محمد (٣٢٣ هـ) ٠

٣ ـ كتاب الرد على المفضل فى الرد على الخليل لابن درستويه عبد الله ابن جعفر (٣٧٤ هـ) ٠

وبهذه الجهود المعجمية التى بدأهـا الخليل وهدى اليها بعد ان اهتدى هو اليها استوت بين أيدى المعجمين المادة أولا وتفتحت لهم الطرق ثانيا فأخذوا يلونون ويشكلون ٠

★★★

الرسالة

للإمام الشافعي

ح : ٨١٥م

● كتاب « الرسالة » علامة بارزة على طريق تطور العقل العربى الاسلامى ، فمؤلفه ، وهو الامام الشافعي ، محمد بن ادريس (١٥٠ ــ ٢٠٤ هـ) ، شخصية وسعت عصرها كله ، وعبرت عنه اسمى تعبير ، وقد شهد عصر الشافعى انطلاقة هائلة نحو الازدهار الثقافى والحضارى ، بعد أن كان قد مضى قرن ونصف القرن على بزوغ فجر الاسلام ، وانتصار فتوحاته ٠

كانت العبقريات تتفجر فى كل مجال ، ولا سيما فى الجوانب العقلية ، وكان أهم ما يشغل العقل العربى الاسلامى هو فهم القرآن شكلا ومضمونا ، فمن حيث الشكل : عكف العلماء على دراسة لغة القرآن، أصواتا وألفاظا وتراكيب ، فكان امام هؤلا العلماء هو الخليل بن أحمد ثم تلميذه سيبويه وظفرت العربية على يدى سيبويه بمؤلفه الخالد « الكتاب » الذى صار فيما بعد مصدرا لجهود التقعيد النحوى ، ومرجعا لأصول اللغة الفصحى ، الى جانب جهود علمية كثيرة لغيره من الأئمة العلماء ٠ ومن حيث المضمون : اجتهد الأئمة من رجال التفسير والحديث والفقه والكلام ، فكان من صدورهم الامام الشافعى رضى الله عنه ، وقد ظفرت الأمة على يديه بالكثير من الآثار العلمية ولاسيما هذه « الرسالة » التى كان يطلق عليها أيضا : « الكتاب » ٠

ويبدو أن تسمية الكتب فى ذلكم العهد كانت غير ملحة كثيرا ولا مألوفة ، فيكفى أن يعرف الناس ان هذا الكتاب لفلان من العلماء ، وهو عهد لم يشهد الكثير من المؤلفات المدونة ، فقد كان المتبع أن يحفظ العلماء علمهم فى صدورهم ، وان يستودعوه ذاكرة تلاميذهم ، اذ كانت كتابة العلم عيبا يجرح به غير الحفاظ الثقات وقد قال قائلهم :

ما العلم الا ما حواه الصدر   وتنسى علما ما حوى القمطر

وقد يكون اطلاق تسمية « الكتاب » على أحد المؤلفات من باب

التخصيص ، للدلالة على أنه هو الجدير بأن يسمى « الكتاب » دون غيره . وفي القرآن من ذلك التعبير : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » ٠

غير ان اسم « الكتاب » سرعان ما تغير ، وخص باسم « الرسالة » الذي استمر مصاحبا له ، معروفا به فى أجيال المسلمين ٠

نشاة الشافعى ونبوغه

هو محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب ابن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ٠ وبهذا النسب الشريف يكون ابن عم رسول الله ، ويجتمع معه فى عبد مناف ٠

اجتمع عليه في طفولته الغربة واليتم والفقر ، فقد ولد سنة ١٥٠ هـ بفلسطين بمدينة غزة على الأصح أو عسقلان ٠ وقيل باليمن ، كما جاء فى بعض الروايات ، ومهما يكن فقد ولد فى بلد غريب بعيد عن مواطن قومه بمكة أو غيرها من بلاد الحجاز ٠

ومات أبوه قبل أن ينعم محمد هذا بمعرفته ، وتركه الى أمه ، وكانت امرأة من الأزد ٠ ولكن الله رعاه وأنبته نباتا حسنا ٠ وكان له من آثار نسبه الرفيع ما أبعده عن مواطن الريبة ، وحاطه من كل سوء ، وما جعله يطمح الى معالى الأمور ، ويصل بجده وعقله الألمعى الى أن يكون اماما وعلما خالدا على الزمان ٠

ورأت الأم أن تنتقل بولدها محمد الى مكة ، ليعيش بين أهله ولا يضيع نسبه بين الجاهلين به ٠ وفيها أخذت مواهبه تتفتح ويشرع فى طلب العلم وأسبابه ، وذلك على رقة حاله ، حتى انه كان لا يجد ثمن القراطيس التى يكتب فيها سماعاته ٠

وفى البلد الحرام حفظ القرآن الكريم وهو حدث ، ثم أخذ يطلب اللغة والشعر والأدب حتى برع فى ذلك كله ثم انصرفت همته لطلب الحديث والفقه من شيوخهما ، مثل مسلم بن خالد الزنجى وغيره ، وأضاف الى ذلك أن حفظ موطأ الامام مالك ٠ وكل هذا وهو يعانى من الفاقة وضيق ذات اليد ٠

وكان من الطبيعى وقد حفظ « الموطأ » أن يسعى للقاء صاحبه امام دار الهجرة ، فذهب اليه قبل سنة ١٧٠ هـ وقرأ كتابه من حفظه ٠ فأعجب الامام به وبقراءته ، لأنه كان من الفصحاء المعدودين ٠ ولما فرغ

منه قال له : « يابن أخى تفقه تعل » كما قال « يا محمد ، اتق الله فسيكون لك شأن » وقد صدقت فيه فراسة الامام ·

ويذكر الربيع بن سليمان الراوى المصرى: انه سمع الشافعى يقول عن لقائه للامام : « وقدمت على مالك وقد حفظت الموطأ ، فقلت : انى أريد أن أسمع الموطأ منك ، فقال : اطلب من يقرأ لك ، قلت : لا عليك أن تسمع قراءتى ، فان سهل عليك قرأت لنفسى · قال : اطلب من يقرأ لك ، وكررت عليه فقال : اقرأ فلما سمع قراءتى ، قال : اقرأ ، فقرأت عليه حتى فرغت منه (٤٨) ·

★★★

لزم الشافعى الامام مالك بن أنس بالمدينة حتى مات سنة ١٧٩ ، وظهـر نبوغه في الفقه وفي سائر ما عنى به من العلوم · وكانت نزعته فى الفقه نزعة أهل الحديث ، وذلك لعلمه التام بالقرآن ومعانيه وشدة طلب الحديث الصحيح ، ليكون من أسانيده فى الأحكام الفقهية وافتائه بهـــا ·

وبلغ من ذلك انه كان ـ كما يذكر ابن حجر ـ اذا ذكر التفسير ، كانه شهد التنزيل ، وكما يقول أبو حسان الرنادى عنه : ما رأيت أحدا أقدر على انتزاع المعانى من القرآن ، والاستشهاد على ذلك من اللغة ، من الشافعى · ويذكر داود بن على امام أهل الظاهر عن اسحاق بن راهويه انه قال :

ذهبت أنا وأحمد بن حنبل الى الشافعى بمكة · فسألته عن أشياء ، فوجدته فصيحا حسن الأدب ، فلما فارقناه أعلمنى جماعة من أهل الفهم بالقرآن أنه كان أعلم الناس في زمانه بمعانى القرآن ، وأنه أوتى فيه فهما ، فلو كنت عرفته للزمته · قال داود : رأيته يتأسف على ما فاته منه·

ولهذا لا عجب أن رأينا شيخه الأول مفتى مكة وهو مسلم بن خالد الزنجى يأذن له بالافتـــاء وهو دون العشرين من عمره ، ويقول له : « أفت يا أبا عبد الله ، فقد آن لك أن تفتى » ، كما ينقل الرازى · وكما يذكر صاحب شذرات الذهب أيضا ·

وقد بلغ من نبوغه وعلو شأنه فى الفقه وأدواته أن نال بحق تقدير أقرانه ومن أتوا بعده ، وثناءهم عليه ، واشادتهم به ، كما يذكر جمهرة مؤرخيه · هذا ابن حنبل يقول عنه :

« ما رأيت أحدا أفقه فى كتاب الله من هذا الفتى ويذكر مما برع فيه هذه العلوم الأربعة : اللغة ، واختلاف الناس ، والمعانى (أى معانى القرآن) ، والفقه ·

ويذكر الخطيب عن طريق الحميدى انه كان اذا ذكر عنده الشافعى يقول : حدثنا سيد الفقهاء • ومن المأثور عن ابن حنبل أن ابنه عبد الله سأله : أى رجل كان الشافعى ؟ فانى سمعتك تكثر الدعاء له ، فقال له : يابنى ، كان الشافعى كالشمس للنهار ، وكالعافية للناس ، فانظر هل لهذين خلف ؟ وعنهما من عوض ؟ •

رحلات الشافعى وأثرها

من أدب العلماء الأفذاذ الرحلة فى طلب العلم والسماع من شيوخه ، لا يبالون فى هـذا السبيل بما يصيبهم من تعب ونصب • وقـد كان الشافعى من هذا الطراز النادر من العلماء ، ولذلك رأيناه يرحل من مكة الى المدينة ، فيلقى امام دار الهجرة ويأخذ عنه • ونراه بعد هذا فى العراق أكثر من مرة ثم فى مصر أخيرا حيث استقر به المقام ، ولقى ربه عام ٢٠٤ هـ بعد أن ملأ طباق الأرض علما •

يذكر ابن خلكان فى « الوفيات » (جـ ١ : ٦٣٨) ، بصدد رحلات الشافعى بين الحجاز والعراق ومصر ما يأتى نصه : « وحديث رحلته الى مالك مشهور ، فلا حاجة الى التطويل فيه • وقدم بغـداد سنة خمس وتسعين ومائة ، فأقام بها سنتين ، ثم خرج الى مكة ، ثم عاد الى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة ، فأقام بها شهرا ، ثم خرج الى مصر ، وكان وصوله اليها فى سنة تسع وتسعين ومائة ، وقيل : احدى ومائتين ، ولم يزل بها الى أن توفى يوم الجمعة اخر يوم رجب سنة أربع ومائتين » •

وقد كانت رحلته الأولى الى بغداد ، وان اختلف المؤرخون فى بيان سببها ، كبيرة الأثر بالنسبة الى الشافعى والى الفقه نفسه ، وذلك أن أصحابه من المالكية كانوا يطلبون اليه أن يرد على الأحناف أهل الرأى ، ولكنه كان يرى أن يعرف ما كتبوه قبل أن يتولى الرد عليهم ، وكان هذا طبيعيا •

ولهذا نراه لما وصل الى العراق يختلف الى محمد بن الحسن الشيبانى ويلزمه ويكتب كتبه ، وبذلك عرف آراء فقهاء العراق • وفى ذلك يذكر عنه ابن العماد الحنبلى انه قال : كتبت عن محمد وقر بعير كتبا ، ولولاه ما انفتق لى من العلم ما انفتق •

كما يذكر ابن أبى حاتم الرازى فى هذا أن الشافعى نفسه قال أيضا : « أنفقت على كتب محمد بن الحسن ستين دينارا ، ثم تدبرها ، فوضعت الى جنب كل مسألة حديثا ، يعنى ردا عليه •

هكذا كانت بداية معرفة الشافعي بمحمد بن الحسن وبكتبه وبأقاويل الأحناف بصفة عامة ، وكان من الطبيعي — اذا راعينا اختلاف منهج أهل الحديث عن منهج أهل الرأى اختلافا كبيرا فى استنباط الأحكام الفقهية — أن تكون مناظرات ومساجلات بين الطرفين ·

انه نفسه وهو يتكلم عن اتصاله بمحمد بن الحسن ولزومه مجلسه : « وكان اذا قام ناظرت أصحابه ، فقال لى : انك تناظر ، فناظر فى الشاهد واليمين · فامتنعت فألح على ، فتكلمت معه · فرفع ذلك الى الرشيد فأعجبه ووصلنى » ·

وحسنت منزلته لدى الرشـيد ومحمد بن الحسن معا ، حتى انه ليروون أنه جاء مرة الى منزل ابن الحسن وكان خارجا الى دار الخلافة ، فلما رآه نزل · وقال لغلامه اذهب فاعتذر · فقال له الشافعي : لنا وقت غير هذا ، فقال : لا ، وأخذ بيده فدخلا الدار · ثم يقول راوى هـذه الحادثة ، وهو أبو حسان بن عثمان الزيادى : وما رأيت محمدا يعظم أحدا اعظام الشافعي ·

هذا ، وكان أثر اتصال الشافعي بأهل الحديث أولا وأخذ عنهم ثم بأهل الرأى ومعرفته بأقاويلهم وآرائهم ومناظراته لهم ثانيا ، كان ذلك الأثر كبيرا جدا من ناحيتين : ناحية بحثه عن السنة وما يؤخذ منها وبيان الصحيح وحكم أخبار الآحاد فى العمل أو عدم العمل بها ، ثم بوجوب الاحتجاج بالسنة بجانب القرآن بصفة عامة ·

وبذلك الى جانب بحوثه فى القرآن وبيان ناسخه من منسوخه ، وهل يجوز نسخ حكم من أحكامه بالسنة أو لا يجوز ، الى غير هذا كله من مباحث كتاب اللهوسنة رسوله ، بذلك كله كان الشافعي بحق هو واضع علم أصول الفقه ، على ما سيأتى بيانه بشىء من التفصيل عند الكلام على كتابه « الرسالة » ·

والناحية الثانية هى أنه وصـــل بعد الدرس والتمحيص وتمييز الصحيح من الآراء والمناهج من غير الصحيح الى أن يكون لنفسه مذهبا خاصا ، هو وسط بين الطرفين ، طرف أهل الحديث وعلى رأسهم مالك وأصـــحابه بالمدينـة ومصر ، الذين يجعلون عمادهم السنن والآثار ، ولا يجنحون الى الرأى الا بالقدر الذى يرونه ضروريا ·

وطرف أهل القياس والرأى (بالعراق وما والاه من الأمصار) الذين يعتمدون ، بعد القرآن المحكم والسنة الصحيحة التى لا ريب فيها ، على اعمال العقل ودقة النظر وقوة الجدل والأخذ بالقياس ·

وكان النزاع شديدا بين هذين الطرفين المتعارضين فجاء الشافعى وسطا يوفق بينهما ويأخذ من كل منهما بقدر ، فهو مثلا ينصر السنة نصرا شديدا ، ولكنه مع هذا يأخذ بالقياس فى غير اسراف ، اذ يشترط أن يكون له أصل وسند من الكتاب والسنة ٠

وقد أعانه على سلوك هذا المسلك الحسن ، وان أغضب به كثيرا من أهل الرأى وكثيرا من أهل الحديث والآثار أيضا ، انه كان طالب حق لا جدل فى دراســاته ومناظراته ، حتى لقد أثرت عنه هــذه الكلمة : ما ناظرت أحدا قط الا أحببت أن يوفق ويســدد ويعان ، وتكون عليه رعاية من الله وحفظه ، وما ناظرت أحــدا الا ولم أبال بين الله الحق على لسانى أو لسانه » ٠

وأخيرا عاد الشافعى الى مصر سنة ١٩٩ هـ ، أو أوائل سنة ٢٠٠ هـ واستقر حتى توفاه الله اليه ـ سنة ٢٠٤ هـ ـ وفيها لقى قبولا حسنا بوصفه تلميذا للامام مالك ، الى أن ظهر منه ما خالفه فيه ، وفى الحق انه كان كبير الاجلال لمالك وكان يذكره بانه أستاذ له . ولكنه مع هذا كان أكثر حبــا للحق وتعصبا له متى هدى اليه ، وحينئذ يأخذ به وان خالف فقهاء العراق جميعا ٠

مؤلفات الشافعى

الف الشافعى رحمه الله كتبا كثيرة فى المراحل التى مر بها وارتحل فى أثنائها بين بلاد عديدة ، وقد جمع بعض المؤرخين هذه الكتب وذكر بعضهم بعضا منها ، وأسماها كل واحد منهم بمسميات مختلفة يقول ابن هداية : « من كتب مذهب الشافعى الأمالى ، ومجمع الكافى ، وعيون المسائل ، والبحر المحيط ، هذه من القديم ، والأم ، والاملاء والمختصرات والرسالة والجامع الكبير من الجديد ، وله كتاب آخر غير مشهور قريب من المحرر نظما وحجما ألفه المزنى من مسوداته وسماه الاختصار » ·

وقد عدد النووى كتب الشافعى · وأدخل فيها كتب تلاميذه التى اختصروها من علمه فقال : « ومصنفات الشافعى فى الأصول والفروع لم يسبق اليها كثرة وحسنا ، فان مصنفاته كثيرة ومشهورة كالأم فى نحو عشرين مجلدا ، وجامع المزنى الكبير والصغير ، وكتاب حرملة ، وكتاب الحجة وهو القديم والرسالة القديمة والرسالة الجديدة والأمالى والاملاء ، وغير ذلك مما هو معلوم من كتبه وقد جمعها البيهقى فى المناقب ، قال القاضى الامام أبو محمد الحسين بن محمد المروزى فى خطبه تعليقه : قيل ان الشافعى رحمه الله صنف مائة وثلاثة عشر كتابا فى التفسير والفقه والأدب وغير ذلك ، وأما حسنها فأمر يدرك بمطالعتها فلا يتمارى فى حسنها موافق ولا مخالف » ·

هذا ·· وقد كان الشافعى يطلب الحق بكل سبيل ، كما كان عريق التفكير قبل أن يكتب ، كما كان كثير التدبير فيما كتبه ، حتى انه ليعدل عن كثير منه ويعيد كتابته ثانيا ، كما فعل بالرسالة وغيرها ، ولذلك عرف بأن له مذهبين : مذهب قديم بالعراق ، والمذهب الجديد الذى أثبته فى كتبه التى أثرت عنه بمصر ·

قال محمد بن مسلم بن واره الرازى لأحمد بن حنبل : ما ترى فى كتب الشافعى التى عند العراقيين أحب اليك أم التى بمصر ؟ قال : عليك بالكتب التى وضعها بمصر ، فانه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها ، ثم رجع الى مصر فأحكم تلك ·

الرسـالة

تحليلهـا وتقديرهـا

لما ظهر الشافعى بعلمه ومواهبه ، ولفت الأنظار اليه فى مجالسه فى المسجد الحرام ، ثم فى لقاءاته بالعراق ، أرسل اليه بعض علمائها ، وهو عبد الرحمن بن مهدى الحافظ الامام العلم المتوفى سـنة ١٩٨ هـ رسالة يطلب اليه فيها ان يكتب لهم كتابا يبين فيه معانى القرآن ويجمع فيه قبول الأخبار ٠ أى شروط قبول الحديث ويبين فيه حجية الاجماع والناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة ٠

وقد أكد ذلك الطلب وتلك الحاجة العالم « على بن المدينى » المحدث شيخ البخارى الذى قال للشافعى « أجب عبد الرحمن بن مهدى عن كتابه فقد كتب اليك يسألك وهو متشوق الى جوابك ، قال : فأجابه الشافعى ، وهو كتاب الرسالة الذى كتب عنه بالعراق ، وانما هى رسـالته الى عبد الرحمن بن مهدى ٠

عند ذلك قام الشافعى باجابة مُطلب عبد الرحمن بن مهدى وألف هذا الكتاب فأطلق الناس عليه هذا الاسم « الرسالة » لأنه كان عبارة عن رسالة من الامام الشافعى الى عبد الرحمن بن مهدى حملها اليه الحارث ابن سريج النقال الخوارزمى البغدادى ولقب بالنقال لهـذا السبب ، أما الشافعى فلا يسمى هذا الكتاب « الرسالة » ولكن يسميه « الكتاب » أو كتابى ٠

● تاليفها :

حسب الروايات السابقة يكون الشافعى قد ألف رسالته هذه فى مكة وأرسلها الى عبد الرحمن بن مهدى فى العراق ، وذلك هو المشهور ، ولكن هناك رواية أخرى تذكر ان الشافعى ألف كتابه هذا « الرسالة » فى العراق ، قال الرازى « اعلم أن الشافعى رضى الله عنه صنف كتاب الرسالة ببغداد ، ولما رجع الى مصر أعاد تصنيف كتاب الرسالة وفى كل منهما علم كثير » ٠

ومن هذه الرواية نعلم أيضا انه قد أعاد تأليفها فى مصر بعد انتقاله اليها ، ولا تعارض بين الروايات ٠ فمن الجائز أن يكون الشافعى قد ألف

رسالته ثلاث مرات ، لا ينشئها انشاء ، ولكن يعيد النظر فيهـا وفى ترتيبها بالاضافة والحذف أو التقديم والتأخير ، كما يفعل معظم المؤلفين فى طبعات كتبهم بعد الطبعة الأولى ، وعلى هذا يمكن القول ان الشافعى قد ألفها فى مكة ، وأرسلها مع ابن سريج الى عبد الرحمن بن مهدى ، فلما قدم العراق فى قدومه الثانى سنة ١٩٥ هـ ، حيث أقام سنتين أعاد النظر فيها فاعتبر ذلك تأليفا لها • فلما قدم مصر أعاد تأليفها ، وأملاها على أصحابه يضيف حينا ويختصر حينا آخر حسب ما تسعفه الذاكرة والحفظ الذى كان عليه اعتماده فى املاء كتبه ، وقد تبين لنا من استقراء كتب الشافعى الموجودة التى ألفت بمصر انه ألف هذه الكتب من حفظه ، ولم تكن كتبه كلها معه • انظر اليه يقول فى كتاب الرسالة : « وغاب عنى بعض كتبى وتحققت بما يعرفه أهل العلم بما حفظت فاختصرت خوف طول الكتاب ، فأتيت ببعض ما فيـه الكفاية ، دون تقصى العلم فى كل أمره » •

ولنأخذ الآن فى عرض هذا الكتاب القيم وتحليله ، لنعرف ما اشتمل عليه من أبواب وفصول ومباحث ، وكلها عظيم الفائدة والأثر ، وكلها فيه هدى للناس وبيان للفقهاء الذين يعملون لاستنباط الأحكام الشرعية من أصولها وأدلتها •

للكتاب خطبة ، جعلها الامام المؤلف مقدمة له • وفيها ذكر أن القرآن قد جمع الله فيه ما أحل وحرم وما يجب علينا أن نتعبد به مما افترضه علينا ووعدنا عليه ثوابه ، ولهذا كان حقا على طلبة العلم بلوغ غاية الجهد فى الاستكثار من علمه نصا واستنباطا ، والرغبة الى الله فى العون اليه ، فانه لا يدرك خير الا بعونه •

وذلك لأن من وصل الى علم أحكام الله فى كتابه وقال وعمل بما علم منه ، فاز بالخير والفضيلة فى دينه ودنياه • وصار فى الدين أهلا لموضع الامامة •

وكان آخر الخطبة هذه الكلمة البليغة • فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة الا وفى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها ، قال الله تبارك وتعالى « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » (١ ـ ابراهيم) • وقال : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » (٤٤ ـ النحل) وقال تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (٨٩ النحل) • وقال : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم » (٥٢ الشورى)•

وكان من الطبيعي والقرآن عماد الدين ، وفيه بيان ما أراد بيانه من الأحكام — أن يبدأ الشافعي « الرسالة » بباب بين فيه كيفية بيان كتاب الله لما جاء به من أحكام العبادات والمعاملات لأن البيان اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول متشعبة الفروع ٠

فمن البيان في القرآن ما يكون نصا لا يحتمل التأويل وذلك كجمل ما فرضه الله من صلاة وزكاة ٠ ونحوهما ٠ ومثل ما حرمه من أكل الميتة ولحم الخنزير ونحوهما ٠ ومنه ما أحكم الله فرضه في الكتاب ، ثم بين كيفه على لسان نبيه ، مثل عدد الصلاة والزكاة وأوقاتها ومنه ما سنه الرسول مما لا نص فيه في الكتاب ، ولكن الله فرض علينا في الكتاب طاعته ، الى آخر ضروب البيان التي ذكرها الشافعي ٠

وفي هذا الباب تحدث الشافعي عن مصادر الأحكام وأدلتها وبين انها خمسة مراتب على خمس مراتب :

الأولى : الكتاب والسنة اذا ثبتت ٠

الثانية : الاجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سنة ، والمراد بالاجماع اجماع الفقهاء الذين أوتوا علم الخاصة ٠

الثالثة : قول بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قولا من غير أن يعرف له مخالف ٠

الرابعة : اختلاف الصحابة فيأخذ من قول بعضهم ما يراه أقرب الى الكتابة والسنة أو يرجحه قياس ولا يتجاوز أقوالهم الى غيرها ٠

الخامسة : القياس على أمر عرف حكمه بواحد من المراتب السابقة ٠

ثم عقد الشافعي بابا لخبر الواحد ، وما يشترط في هذا الخبر من شروط حتى يمكن الاحتجاج به فمن هذه الشروط :

١ — أن يكون من حدث به ثقة في دينه معروفا بالصدق في حديثه ٠

٢ — وأن يكون عاقلا لما يحدث به عالما بما يحيل (٤٩) معاني الحديث ٠

٣ — وأن يكون ممن يؤدي الحديث بحروفه كما سمع ولا يحدث به على المعنى ٠

٤ — حافظا ان حدث به من حفظه ، حافظا لكتابه ان حدث من كتابه ٠

٥ — أن يوافق حديثه أهل الحفظ في الحديث ٠

٦ ـ أن يكون بريا من أن يكون مدلسا يحدث عمن لقى ما لم يسمع منه ، ويحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم ما يحدث الثقات بخلافه ٠

٧ ـ وأن يكون هكذا من فوقه ممن حدثه حتى ينتهى الحديث موصولا الى النبى صلى الله عليه وسلم أو الى من انتهى به اليه دونه لأن كل واحد منهم مثبت لمن حدثه ، ومثبت على من حدث عنه فلا يستغنى فى كل واحد منهم عما وصفت ٠

وبعد الفراغ من ذلك أخذ يتكلم عن النسخ وحكمته ، وعن الناسخ والمنسوخ ٠ وأطال الكلام فى فصول عدة فى هذا الموضوع المهم ٠ فهو يذكر أن الله فرض فرائض أثبتها ، وأخرى نسخها تخفيفا عن عباده ، وابان انه نسخ ما نسخ من القرآن به وان السنة لا تكون ناسخة له ، بل هى تابعة له لأن على الرسول اتباع ما يوحى اليه ، وليس له تبديله من نفسه ٠

وتكلم بعد ذلك عن الناسخ والمنسوخ الذى يدل الكتاب على بعضه والسنة على بعضه ، وعن الفرائض التى أنزلها الله نصا ، ثم عن الأخرى المنصوصة ، ولكن للرسول سنة معها على اختلاف أنواع هذه الفرائض ، ثم عما يكون للسنة من تخصيص العام ومن ذلك عدم توريث القاتل من مال قتيله ولو كان أباه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « ليس لقاتل شىء » مع نص القرآن على ان للابن نصيبا مفروضا من تركة أبيه ٠

وأخذ بعد هذا فى بحث جمل الفرائض التى أحكم الله فرضها بكتابه ، وبين كيف يكون القيام بها على لسان نبيه ، وذلك مثل الصلاة والزكاة والحج ٠ فكل هذا فرض بالقرآن ، ولكن السنة هى التى بينت عدد الصلوات وعدد ركعات كل منها ، وكيفية أدائها فى الحضر والسفر ٠

وكذلك الأمر فى الزكاة التى يقول الله فيها (سورة التوبة ١٠٣) : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » ، فكان مخرج الآية ـ كما يقول الشافعى ـ عاما على الأموال ٠ وكان يحتمل أن تكون على بعض الأموال دون بعض ، فدلت السنة على أن الزكاة فى بعض الأموال دون بعض ٠ الى آخر ما قال ٠

والأمر مثل هذا فى الحج الذى فرضه الله بقوله (سورة آل عمران ٩٧) : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » ٠ فجاء الرسول وبين أن السبيل الزاد والمركب ، وأخبر بمواقيت الحج ، وكيف تكون التلبية ، وما يجب أن يتقيه المحرم من لبس الثياب والطيب ، كما أعلمنا بسنته أعمال الحج كلها من الطواف بالكعبة والوقوف بعرفة ورمى الجمار وما سوى ذلك كله ٠

[illegible] بعد ذلك بابا عنوانه « باب العلل فى الأحاديث » ، تكلم فيه عن الأحاديث التى نجد فى القرآن مثلها نصا ، وأخرى فى القرآن مثلها جملة ، وعن التى جاءت بأكثر مما فى القرآن ، والتى ليس فيها شىء فى القرآن ، كما تكلم عن الأحاديث الناسخة والمنسوخة ، والأخرى التى ليس فيها دلالة على ناسخ ولا منسوخ ، وعن أحاديث فيها أوامر ونواه للرسول، فيصرف بعضها الى التحريم ، وبعضها الى غير ذلك ٠ كما تكلم أيضا عن مباحث أخرى تتعلق بالحديث وعلومه ، ومنها ما يكون من الاختلاف الذى يكون بين بعضها وأسبابه ، كما تحدث بعد ذلك كله عن أسباب اختلاف القراءات فى القرآن ٠

ويطيل بصفة خاصة فى كلامه عن النهى فى الأحاديث ، بادئا فى هذا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه » ، مبينا أن النهى هذا جاء على معنى دون معنى آخر ، وهذا المعنى هو أن تكون المرأة قد رضيت بالأول وأذنت فى التزوج منه ، والا ما كانت خطبة الثانى منهيا عنها ٠ ثم تكلم بعد هذا عن النهى لمعان أخرى فى البيوع وغيرها ٠

وبعد ذلك نرى الشافعى يخصص بابا للعلم وما يجب على الناس فيه ، فيذكر أن العلم علمان : علم عامة لا يسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله ، مثل الصلوات الخمس ، وصوم شهر رمضان ، وحج البيت على المستطيع ، والزكاة فى الأموال ، وتحريم الربا والزنا والقتل والخمر والسرقة ، وما كان فى معنى هذا ٠

ثم بين أن هذا الصنف من العلم موجود أيضا فى القرآن ، وموجود عاما عند المسلمين ، ويحكونه عن الرسول ولا يتنازعون فيه ، لأنه لا يمكن فيه الغلط من الخبر ولا التأويل ولا الاختلاف ٠

وأما النوع الثانى من العلم ، فهو علم أحكام فروع الفرائض وغيرها ، مما ليس فيها نص قرآن ، ولا فى أكثر نص سنة الا ما كان منها من أخبار الخاصة ، وما كان يحتمل التأويل ، وهذه الدرجة من العلم لا تبلغها العامة ، ولم يكلفها كل الخاصة ، واذا قام بها من الخاصة من فيه الكفاية لا يكون حرج على من تركها ٠

ولما فرغ من بيان هذا كله ، نراه يتكلم عن خبر الواحد ، وعن الحجة فى تثبيته فى بابين ، وهو فى هذا يطيل ، لأن الأمر يقتضى الاطالة حقا ، وذلك بأن خصوم السنة ردوا الأحاديث التى رواها آحاد ولم يروها حجة فى التشريع ، فندب « ناصر السنة » نفسه للرد عليهم ودحض ما يحتجون به ، مستدلا بما لا سبيل الى دفعه ، وبما لا يسع المنصف الا التسليم به ٠

ثم انتهى الى الكلام على الاجماع وحجيته مبينا أن عامة المسلمين لا تجتمع على خلاف لسنه رسول الله ، ولا على خطأ • وتناول بعده القياس باعتباره أصلا من أصول الفقه بعد الكتاب والسنة والاجماع ، مبينا الأدلة على وجوب المصير اليه عند الضرورة ، وشروط القياس الصحيح ، ومن يجوز شرعا له أن يقيس ، ثم من يصح منه الاجتهاد فى أحكام الله •

وكان من الطبيعى للشافعى وهو يتكلم عن القياس وشروطه ، أن يتكلم عن الاستحسان الذى قال به الأحناف وابطاله ، فذكر انه حرام على أى انسان أن يقول بالاستحسان اذا خالف الاستحسان الخبر من الكتاب أو السنة ، لأن حلال الله وحرامه أولى ألا يقال فيهما بالتعسف والاستحسان ، وانه لو قال أحد فى هذا بلا خبر لازم أو قياس كان آثما •

والفقهاء يختلفون فى كثير من أحكامهم ، فهل يسعهم هذا الاختلاف ؟ هنا يتكلم الشافعى عن الاختلاف المحرم وغيره ، وقال عن الاختلاف المحرم وغير المحرم ما نصه :

« كل ما أقام الله به الحجة فى كتابه أو على لسان نبيه ، منصوصا بينا لم يحل الاختلاف فيه لمن علمه • وما كان من ذلك يحتمل التأويل ويدرك قياسا ، فذهب المتأول أو القـايس الى معنى يحتمله الخبر أو القياس ، وان خالفه فيه غيره ، لم أقل انه يضيق عليه ضيق الخلاف فى المنصوص » •

ثم أقام بعـد هذا الحجة على ما رآه من التفرقة بين هذين الضربين من الاختلاف •

وبعد ذلك تكلم عن اختلاف الصحابة فى بعض مسائل الميراث ، وبخاصة ميراث الجد ، ثم ابان رأيه فيما ينبغى العمل به من أقاويل الصحابة بصفة عامة اذا اختلفوا بصفة عامة فى آرائهم ، فقال : « نصير منها الى ما وافق الكتاب أو السنة أو الاجماع ، أو كان أصح فى القياس » •

ثم ذكر انه يصير الى قول الواحد منهم • لا يحفظ عن غير منهم فيه له موافقة ولا خلاف ، اذ لم نجد كتـابا ولا سنة ولا اجماعا ، ولا شيئا فى معنى هذا أو وجد معه قياس •

وأخيرا يختم الامام رسالته ببيان أن أصول الفقه ليست فى مرتبة واحدة ، بل لكل منها مرتبة معلومة بحيث يجىء بعضها فى أثر بعض فيقول :

« نحكم بالكتاب والسنة المجتمع عليهما التى لا اختلاف فيهـا ، فنقول لهذا : حكمنا بالحق فى الظاهر والباطن ونحكم بالسنة قد رويت

من طريق الانفراد · لا يجتمع الناس عليها · فتقول : حمكنا بالحق فى الظاهر ، لأنه قد يمكن الغلط فيمن روى الحديث ·

ونحكم بالاجماع ثم القياس ، وهو أضعف من هذا ، ولكنها منزلة ضرورة ، لأنه لا يحل القياس والخبر موجود ؛ كما يكون التيمم طهارة فى السفر عند الاعواز من الماء ، وانمـا يكون طهارة فى الاعواز فكذلك يكون ما بعد السنة حجة اذا أعوز من السنة » ·

مقتبسات من الرسالة

وبعد أن عرضنا تحليلا لمحتويات الرسالة التى وضع بها الشافعى علم أصول الفقه وابتدعه على غير مثال سابق ، ولكن هذا لا يغنى عن ايراد مقتبسات من هذه الرسالة تبرز هذا التحليل وتكشف عن اسلوب مؤلفه العظيم وطريقته فى التفكير ·

ولن نطيل فى هذه الاقتباسات ، فحسبنا أن نجىء بما يجعلنا نلمس حقا قوة تفكير كاتبها العظيم ، ومقدار دفاعه من سنة الرسول ، والأسباب التى من أجلها خالف من خالفه من معاصريه الفقهاء ومن غيرهم من خصوم السنة والداعين الى عدم الأخذ بالكثير منها ، ومن ثم نعرف له فضله الكبير وألمعيته فى كل نواحى تفكيره ·

● وجوه بيان القرآن :

وأشار الشافعى فى مقدمة الرسالة الى أن فى القرآن ـ وهو الأصل الأول للشريعة الاسلامية ـ بيانا لكل شىء ، ثم بدأ الرسالة بتعريفنا كيف يكون هذا البيان فقال :

« البيان اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول متشعبة الفروع · فأقل ما فى تلك المعانى المجتمعة المتشعبة انها بيان لمن خوطب به ممن نزل القرآن بلسانه ، متقاربة الاستواء عنده وان كان بعضها أشد تأكيد بيان من بعض ، ومختلفة عند من يجهل لسان العرب ·

فجماع ما أبان الله لخلقه فى كتابه مما تعبدهم به لما مضى من حكمه جل ثناؤه ، من وجوه ، فمنها ما أبانه الله لخلقه نصا ، مثل جمل فرائضه فى أن عليهم صلاة وزكاة وحجا وصوما ، وانه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وحرم الزنا والخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وبين لهم كيف فرض الوضوء ، مع غير ذلك مما بين نصا ·

ومنها ما أحكم فرضه بكتابه وبين كيف هو على لسان نبيه ، مثل عدد الصلاة والزكاة ووقتها وغير ذلك من فرائضه التى أنزل الله فى كتابه

ومنها ما سن رسول الله مما ليس فيه نص حكم ، وقد فرض الله فى كتابه طاعة رسوله والانتهاء الى حكمه ، فمن قبل عن رسول الله فبفرض الله قبل ·

ومنها ما فرض الله على خلقه · الاجتهاد فى طلبه وابتلى طاعتهم فى الاجتهاد ، كما ابتلى طاعتهم فى غيره مما فرض عليهم ، فانه يقول تبارك وتعالى (سورة محمد ٣١) : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » · وقال (سورة آل عمران ١٥٤) : « وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم » ·

● الحاجة الى السنة :

وسنة الرسول هى الأصل الثانى للشريعـة ، ولابد منها بجانب القرآن كما رأينا · وقد تناول الشافعى هذه المسألة فى مواضع كثيرة من الرسالة ، ونذكر منها قوله ، بعد أن أتى ببعض الآيات الدالة على فرض الصلاة والزكاة والحج ·

أحكم الله فرضه فى كتابه فى الصلاة والزكاة والحج ، وبين كيف فرضه على لسان نبيه ، فأخبر رسول الله ان عدد الصلوات المفروضات خمس ، وأخبر ان عدد الظهر والعصر والعشاء فى الحضر أربع وعدد المغرب ثلاث وعدد الصبح ركعتان ·

وسن فيها كلها قراءة ، وسن ان الجهر فيهـا بالقراءة فى المغرب والعشاء والصبح ، وأن المخافته بالقراءة فى الظهر والعصر · وسن ان الفرض فى الدخول فى كل صلاة بتكبير ، والخروج منها بتسليم ، وانه يؤتى فيها بتكبير ، ثم بقراءة ، ثم ركوع ، ثم سجدتين بعد الركوع ، وما سوى هذا من حدودها ···

ثم ذكر فى الزكاة آيات جاء فيها فرضها ، ومنها قوله تعالى (سورة التوبة ١٠٣) : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » ثم قال : فكان مخرج الآية (أى التى ذكرناها هنا) عاما فى الأموال ، وكان يحتمل أن يكون على بعض الأموال دون بعض ، فدلت السنة على ان الزكاة فى بعض الأموال دون بعض ·

فلما كان المال أصنافا ، منه الماشية · فأخذ رسول الله من الابل والغنم ، وأمر فيما بلغنا بالأخذ من البقر خاصة دون الماشية سواها ، ثم أخذ منها بعد مختلف ، كما قضى الله على لسان نبيه ، وكان للناس

ماشية من خيل وحمر وبغال وغيرها ، فلما لم ياخذ رسـول الله منها شيئا ، وسن أن ليس فى الخيل صـدقة ، استدللنا على أن الصدقة فيما اخذ منه وامر بالأخذ منه دون غيره ·

وبعد ان بين الشافعي ما دلت عليه السنة من وجوب الزكاة فى أصناف أخرى من المال دون غيرها قال :

وقال الله (سورة الأنعام ١٤١) : « وآتوا حقه يوم حصاده » فسن رسول الله أن يؤخذ مما فيه زكاة من نبات الأرض ، الغراس وغيره ، على حكم الله جل ثناؤه ، يوم يحصد ، لا وقت له غيره · وسن فى الركاز الخمس ، فدل على انه يوم يوجد ، لا في وقت غيره · أخبرنا سفيان عن الزهرى عن ابن المسيب وأبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله قال : « وفي الركاز الخمس » ·

ولولا دلالة السنة كان ظاهر القرآن ان الأموال كلها سواء ، وان الزكاة فى جميعها ، لا فى بعضها دون بعض ·

***

القيمة العلمية لرسالة الشافعي

تستمد « رسالة الشافعي » مكانتها العلمية ، وقيمتها الفقهية والأصولية من الشافعي نفسه ، وهو من عرفنا من العلم والفقه والحديث واللغة ، لذلك فان كل فضل لهذه الرسالة انعكاس لفضل الشافعي ، ومكانته بين العلماء ، كما أن كل ثناء على الشافعي نجده بصورة أو بأخرى فى ثنايا هذه الرسالة ٠

وقد تكلم العلماء كثيرا فى فضل هذه الرسالة وقيمتها بما يضعها فى قمة كتب الفقه وأصوله ، وفى قمة كتب الشافعي أيضا ، واليك طرفا من ثناء العلماء على هذه الرسالة وآرائهم فى قيمتها ومكانتها :

قال عبد الرحمن بن مهدى ـ الذى أرسل اليه الشافعي رسالته هذه : « لما نظرت الرسالة للامام الشافعي أذهلتنى لأننى رأيت كلام رجل عاقل فصيح ناصح فانى لأكثر الدعاء له » ٠ وقال : « ما أصلى صلاة الا وأنا أدعو للشافعي فيها » .

وقال المزنى : « قرأت كتاب الرسالة للشافعي خمسمائة مرة ، ما من مرة منها الا واستفدت فائدة جديدة لم أستفدها فى الأخرى » ٠

وقال أيضا : « أنا أنظر فى كتاب الرسالة عن الشافعي منذ خمسين سنة ما أعلم انى نظرت فيه من مرة الا وأنا أستفيد شيئا لم أكن عرفته » ٠

وكتاب « الرسالة » هذا هو أول كتاب منظم فى أصول الفقه وفى أصول الحديث أيضا ٠ أما انه أول كتاب فى أصول الفقه فلأن الناس قبله كانوا يتكلمون فى المسائل الأصولية حسبما اتفق ، لم يكن لهم نظام جامع ، ولا قواعد كلية الى أن ألف الشافعي رسالته هذه ، فوضع فيها القواعد الكلية والقانون الجامع فى أصول الفقه ولذلك فان نسبة الأصول الى الامام الشافعي كنسبة المنطق الى أرسطو ، ونسبة العروض الى الخليل ابن أحمد ٠ وفى ذلك يقول فخر الدين الرازى : « اعلم أن نسبة الشافعي الى علم الأصول كنسبة أرسطو الى علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد الى علم العروض وذلك لأن الناس كانوا قبل أرسطو يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة ، ولكن ما كان عندهم قانون فى كيفية ترتيب الحدود والبراهين ٠ وكذلك الشعراء كانوا قبل الخليل بن أحمد ينظمون أشعارا وكان اعتمادهم على مجرد الطبع ، فكذلك ههنا الناس ، كانوا قبل

الامام الشافعى رضى الله عنه يتكلمون فى مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعترضون ، ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع اليه فى معرفة دلائل الشريعة وفى كيفية معارضتها وترجيحاتها فاستنبط الشافعى علم أصول الفقه ، ووضع للناس قانونا كليا يرجع اليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع ، فثبت أن نسبة الشافعى الى علم الشريعة كنسبة أرسطو الى علم العقل ، فلما اتفق الناس على أن استخراج علم المنطق بدرجة عالية لم يتفق لأحد مشاركة أرسطو فيها ، فكذا ههنا وجب أن يعترفوا للشافعى بسبب وضع هذا العلم الشريف بالرفعة والجلالة والتمييز على سائر المجتهدين بسبب هذه الدرجة الشريفة » · ثم يقول :

« والناس وان أطنبوا بعد ذلك فى علم أصول الفقه الا انهم عيال على الشافعى فيه لأنه هو الذى فتح هذا الباب ، والسبق لمن سبق » ·

نحن اذن أمام ثلاثة مستويات : مستوى الناس قبل الشافعى : حيث لم يكن لهم قانون كلى ولا تظام صحيح فى أصول الفقه ، ثم مستوى الشافعى : الذى ابتكر هذا العلم العظيم ووضع أصـــوله وفق قواعده وأرسى كلياته · ومستوى الناس بعد الشافعى · وهم عيال على الشافعى لأنهم لم يضيفوا شيئا وانما وضحوا وفسروا ما اختصر الشـــافعى أو اختصروا وأوجزوا ما أطنب فيه الشافعى

وأما انه أول كتاب فى أصول الحديث أيضا : فلانه انتصر فيه للسنة النبوية الشريفة فقد دمج الشافعى « الكتاب والسنة » ـ مع انهما ليسا شـــيئا واحدا ـ لأن القرآن اشـــتمل على بيان الكليات وكثير من الجزئيات ، والسنة أتمت بيان القرآن الكريم ، وفصلت ما أجمل ، ووضحت بعض ما قد يدق على بعض العقول ادراكه ، فالشافعى وان اوضح أن السنة ليست فى مرتبة القرآن ، فقد رأى أن القرآن والسنة فى درجة واحدة فى الاستدلال ·

ولقد دافع الشافعى عن السنة دفاعا شديدا ، ليس فقط لأن فى السنة وقائع التطبيق لما جاء من تشاريع فى القرآن ، بل لأنه رأى قوما من معاصريه يحملون على السنة الى درجة عدم الاعتراف بها ، والمناداة بالاكتفاء بما جاء فى القرآن الكريم ، وقد أدرك الشافعى أن هذا الهجوم مقدمة للهجوم على القرآن ، وهذا ما كان ···

***

هكذا نرى الامام العظيم يبتدع علما قائما بذاته ، هو علم أصول الفقه ، فيحتضنه الذين جاءوا بعده من أصحاب المذاهب الفقهية المختلفة ، ويفيدون منه أجل الفوائد ، وذلك فى رسالته التى تحوى الكثير من بذور التفكير المنطقى والفلسفى وأصوله ·

ومن أجل هذا وذاك كله نرى العالم الاسلامى يتقبل مذهبه بقبول حسن ، ونرى هذا المذهب يظهر فى الأقطار والبلاد الاسلامية على أيدى رجاله ، نراه فى قاعدته ومركزه الأول بمصر والشام والحجاز وبغداد وفارس ونيسابور وخراسان وسائر بلاد ما وراء النهر ، الى بلاد كثيرة اخرى ، كما يذكر جمهرة من أرخوه ·

يقول ابن خلدون فى هذا : « وأما الشافعى فمقلدوه بمصر أكثر مما سواها ، وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر ، وقاسموا الحنفية فى الفتوى والتدريس من جميع الأمصار » الى آخر ما قاله ابن خلدون · مما يدل على عظمة شأن المذهب وقوة انتشاره ·

وقد استفاضت شهرة الشافعى ومذهبه فى البلاد الاسلامية عامة ، وكذلك لدى الغربيين حتى تجرد لدراسته كثير من المستشرقين ، وأفادوا منه فى بحوثهم ، ويظهر لنا هذا الأثر العظيم واضحا فى أكثر من بحث وكتاب ·

رحم الله الامام الشافعى ، ورضى عنه وأرضاه ، جزاء ما قدم للإسلام وللانسانية من خير فى ناحية الفكر القانونى والتشريعى ·

الأغاني

الأصبهاني ح: ٨٨٥م

● بعد أن استقر العرب فى الدول التى نشروا فيهــا الاســلام ، امتزجوا بأهل البلاد ، وتبادلوا الثقافات والآداب، وظفروا من الأمم العريقة فى الحضارة بنصيب كبير من زهرة الدنيا وزينتها ، وبهجــة الحيــــاة ومتعتها ، فى المأكل والملبس ، والمسكن والفراش ، والزخارف والنقوش ، والطرب والســـــماع ، غــير مقصرين فى ثقافة ، ولا عاجزين عن وصف ما نالوا وما أدركوا ، فى أســاليب جميلة ، وعبــارات رشيقة · وأبرز ما كان هذا كله فى العصر العباسى الذى جنى ثمار الامتزاج والاختلاط بذوى الحضارات العريقة فى كل اتجاه ·

وللنغم الحلو قوة ساحرة تأخــذ بالألبــاب ، سواء أكان ذلك فى بداوة أم فى حضارة · وســــواء أكان المغنى من الاناث أم من الذكور ، ويزيده روعة اذا اقترن بالجمال والشباب · فى مجالس تطيب أجواؤها وتتلألأ أضواؤها ، وتهفو فيها النسمات عليلة ، مضمخة بأريج الأزهار وعبيرها · ونفح العطور وذكائها ·

ولكل جيل ألحانه ، ولكل صقع أنغامه وطرائق ايقـــاعه على آلات اللهو والطرب ، من ضرب على الأوتار ، أو نقر بالدفوف ، أو نفخ فى المزامير · بين خفوت وارتفاع وامتداد وانقطاع · وهمس وجهر · وحدة ولين وآهات وأنين ·

وقد وضعت لمجرى الأصابع على ثقوب الآلات وأوتارها قواعد يعرفها أهل الفن ، سموها لحنا ·· وسموها صوتا ، وسموها « نغما » وسجلناها على الورق فى عهدنا الحاضر وسميناها باسمها الافرنجى «نوتة موسيقية»·

والغناء يكون فى الشعر ، لأن الشعر له أوزان منغمة ، وقد تكون للشاعر حياة فيها أحداث · وقد تجرى بسبب الشعر قصة ، وربما وقع للمغنى والمغنية ما يحكى ويروى وربما حيكت حولهما أساطير ومأثورات ، الى غير ذلك من أقوال وأحاديث ·

وللفراغ والرخاء الأثر الأول فى البحث عن كل هذا ، والعناية به وتتبعه ، فليس عجبا اذن من هارون الرشيد ، وهو الذى يمثل عهده قمة الخيال والأحلام عند الشرق والغرب ، أن يطلب من أعظم المغنين فى عهده أن يختاروا له مائة صوت من بين الغناء كله ·

ثم يجىء الخليفة العباسى الواثق بالله ،، وكانت له فى الغناء صنعة ، فيأمر أعظم المغنين فى عهده « اسحاق بن ابراهيم الموصلى » أن يختار له ما يرى انه أفضل مما كان اختير فى عهد جده هارون ·

ثم تمر الأعوام عشرات ، ويجىء أبو الفرج الأصبهانى فيؤلف كتابا يبلغ الغاية فى الروعة والنهاية فى الابداع ·

وقل من لم يسمع بكتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصبهانى · بل ندر من لم يقرأ شيئا من كتاب الأغانى ، لأنه حينئذ لايكون له فى الأدب الرفيع نصيب ·· وان شهرة كتاب الأغانى من يوم أن ألف وحتى يومنا ترددت فى كل بلد عربى ، وفى كثير من غير البلاد العربية ، وسيظل اسمه مترددا ما دام على الارض ناطق باللغة العربية ، لايخلو من قارىء له ، أو ناقل عنه ، أو سامع بعض ما جاء فيه ·

ذلك أن صاحبه أبا الفرج أودعه من الأشعار والأخبار ، واللطائف والطرائف ما لم يقع فى كتاب مثله · فصار غاية يسمو اليها كل مثقف ، ويتطلع اليها كل أديب ومتادب ·

وما حمل أحد نفسه على قراءة بعض هذا الكتاب الا شغف به حبا ، واكب عليه قراءة · وأوغل فيه استقصاء ، ثم خرج من كل هذا بثروة واسعة فى الثقافة واللغة والاسلوب الفنى البليغ · أما القصص التى تتناثر فى أثنائه ، فتمتاز بحسن العرض، وجمال السبك ، ودقة الملاحظة·

وكل أعلام الأدب ممن مضى ومن بقى وممن سيأتون يذكرون أو سيذكرون فضله عليهم فى أساليبهم الممتازة وعباراتهم الرائعة ·

★★★

صاحب الأغانى

ولعل كتابا من كتب العربيـــة لم ينل حظا من الشهرة والذيوع والاحتفال به وادمان القراءة له والاستفادة من مادته كما نال كتـــاب « الأغانى » وليس فى ذلك أية غـــرابة ، فالكتاب جدير بالشهرة قمين بالذيوع خليق بأن يستفاد منه ، فهو جيد رائع يدل على ملكة التأليف الأصيلة والمثابرة الداعية وسعة الأفق وتنوع الثقافة عند المؤلف العربى ·

ومؤلف كتاب الأغانى شخصية بارزة من غير شك من شخصيات الفكر العربى ، فهو على بن الحسين الأموى القرشى ، تتصـــل عصبيته بمروان بن محمد آخر خلفاء بن أمية ، وكنيته أبو الفرج ، ولد بأصبهان أو أصفهان عام ٢٨٤ هـ (٨٩٧ ميلادية) واليها انتسب ·

ولم تدم حياة أبى الفرج فى أصبهان طويلا ، اذ ما لبث أن رحل عنها الى بغداد ، وروى عن علماء كثيرين يطول تعدادهم ، وســـمع من جماعة لايحصون ، ومنهم ابن دريد امام عصره فى اللغة والأدب والشعر ، والفضل بن الحباب الجمحى الراوية ، والأخفش العالم النحوى الكبير ، وابن الانبارى ، والطبرى ، ومحمد بن خلف بن المرزبان ، وجعفر بن قدامة أحد مشايخ الكتاب وعلمائهم ·

وقال عنه ابن خلكان : « كان من أعيان أدبائها « بغداد » وأفراد مصنفيها · روى عن عالم كثير من العلماء يطول تعدادهم ، وكان عالما بأيام الناس والانساب والسير » ·

وقال التنوخى : « ومن المتشيعين الذين شاهدناهم أبو الفـــرج الاصبهانى · وكان يحفظ من الشعر والأغانى والأخبار والآثار والأحاديث المسند والنسب ما لم أر قط من يحفظه مثله ·· يحفظ دون ذلك من علوم أخر ، ومنها اللغة والنحو والخرافات والمغازى والسير ، ومن آلة المنادمة شيئا كثيرا ، مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجـــوم والأشربة وغير ذلك ، وله شعر يجمع اتقان العلماء واحســـان ظرفـــاء الشعراء » ·

وقال ياقوت فى معجم الأدباء : « العلامة النســـابة الاخبـــارى والحفظة ، الجامع بين سعة الرواية والحذق فى الدراسة ، لا أعلم لأحد

احسن من تصانيفه فى فنها وحسن استيعاب ما يتصدى لجمعه ، وكان مع ذلك شاعرا مجيدا » .

وقال ابن النديم فى كتاب الفهرست : « كان شاعرا مصنفا أديبا ، وله رواية يسيرة ، وأكثر تعويله كان من تصنيفه على الكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الأصول الجياد » .

ويبدو أن أبا الفرج الاصبهانى كان متأثرا الى حد بعيد باسحاق الموصلى ، فهو يقول : « ان موضعه فى العلم ، ومكانه فى الأدب ، ومحله فى الرواية ، وتقدمه فى الشعر ، ومنزلته فى سائر المحاسن .. أشهر من أن يدل عليه فيها بوصف . أما الغناء فكان أصغر علومه ، وأدنى ما يوسم به ، وان كان الغالب عليه ، وعلى ما كان يحسنه : فانه كان له فى سائر أدواته نظراء وأكفاء ، ولم يكن له فى هذا نظير ، فانه لحق بمن مضى عليه ، وسبق من بقى ، فهو أمام أهل صناعته ، جميعا ، ورأسهم ومعلمهم . يعرف ذلك منه الخاص والعام ، ويشهد به الموافق والمفارق ، وهو الذى صحح أجناس الغناء وطرائقه ، وميزه تمييزا لم يقدر عليه أحد قبله ، ولا تعلق به أحد بعده » .

كما تأثر أبو الفرج الأصبهانى كذلك بابن المعتز الخليفة الشاعر ، اذ كانت له آراء جريئة فى الفن الشعرى والغناء ، فنقل عنه آراء طريفة ، وأخبارا طيبة ، وروى أحكامه النقدية فى الغناء والمغنين ، وعلق على بعض أقواله بقوله : « هذا كلام العقلاء وذوى الفضل فى مثله ، لا كلام الثقلاء وذوى الجهالة » .

وتأثر الأصبهانى كذلك بشخصية « جحظة البرقلى » ــ وهو أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ــ وكان حسن الأدب كثير الرواية للأخبار ، متصرفا فى فنون جمة ، عارفا من العلوم بصناعة النجوم ، حافظا لأطراف من النحو واللغة ، مليح الشعر ، مقبول الألفاظ ، حاضر النكتة . وأما صناعة فن الغناء فلم يلحقه فيها أحد ، وقد جلس اليه الأصبهانى مجلس الطالب من الشيخ ، ولم يفارقه الا بعد ان انتقل جحظة الى جوار ربه ، وكان الأصبهانى فى ذلك الوقت فى الأربعين من عمره .

وظهر أثر تلك التلمذة فى كتاب الأغانى ، فهو يقول : سألت أحمد بن جعفر جحظة عن نسبه ، قلت له : ان الناس يقولون ابن أمية بن أبى أمية .فقال : هو محمد بن أمية بن أبى أمية . قال : وكان محمد ..». وهو يقول فى موضع آخر : « حدثنى جحظة وجعفر بن قدامه ، وخبر جعفر أتم ، الا انى قرأته على جحظة فعرفه وذكر لى انه سمعه) .

مؤلفات ابى الفرج

لقد عاش ابو الفـــرج الاصبهانى اثنتين وسبعين سنة ، فقد ولد سنة ٢٨٤ هـ وتوفى سنة ٣٥٦ هـ ، ولكنها سنوات حافلة بالتاليف والجد فى سبيل التحصيل العلمى ، ويكفى أن المدة التى استغرقها تاليف كتاب « الأغانى » كانت خمسين ســـنة ، غير أن السنوات الخمسين لم تكن كلهـا فى تاليف الكتاب وحـده ، وانمـا كانت جمعا لمادته وتنسيقا لموضوعاته فى فترات متقاربة حينا ، متباعدة أحيانا ، بحيث استطاع أن يقدم آثاره الأخرى الوفيرة التى أحصاها المترجمون فاذا هى خمسة وعشرون كتابا بالاضافة الى « الأغانى » وهى :

١ ـ مجرد الأغـــانى ٠

٢ ـ التعديل والانتصاف فى أخبار القبائل وأنسابها (وقيل فى مآثر العرب ومثالبها) ٠

٣ ـ مقاتل الطالبين ٠

٤ ـ أخبار القيـــان ٠

٥ ـ كتاب الاماء الشواعر ٠

٦ ـ كتاب المماليك الغرباء ٠

٧ ـ كتاب أدباء الغرباء ٠

٨ ـ كتاب الديانات ٠

٩ ـ كتاب تفضيل ذى الحجة ٠

١٠ ـ كتاب الأخبار والنوادر ٠

١١ ـ كتـاب أدب الســماع ٠

١٢ ـ كتاب أخبار الطفيليين ٠

١٣ ـ كتاب مجموع الأخبار والآثار ٠

١٤ ـ كتاب الخمارين والخمارات ٠

١٥ ـ كتاب الفرق والمعيار في الأوغاد والأحرار (رسالة عملها في هارون بن المنجم صاحب كتاب البارع) .

١٦ ـ كتاب دعوة النجـــار .

١٧ ـ كتاب أخبار جحظة البرمكي .

١٨ ـ كتاب جمهرة النسب .

١٩ ـ كتاب أيام العرب ذكر فيه ألفا وسبعمائة يوم .

٢٠ ـ كتاب نسب بني عبد شمس .

٢١ ـ كتاب نسب بني شيبان .

٢٢ ـ كتاب نسب المهالبة .

٢٣ ـ كتاب نسب بني تغلب .

٢٤ ـ كتاب الغلمان المغنين .

٢٥ ـ كتاب مناجيب الخصيان .

ان صاحب معجم الأدباء بعد أن يذكر هذا الحشد من المؤلفـــات بقوله : « وله تصانيف أخرى جياد كان يصنفها ويرسلها الى المسئولين على بلاد المغرب ، يقصد الأندلس من بني أمية . وهما الناصر وابنـــه المستنصر . هذا ويذكر للأصبهاني غـير ما ذكر ياقوت من الكتب كتاب الديارات وكتاب الحانات .

وان نظرة الى نوعية تاليف الأصبهاني ، تدل على أن الرجل كان من اعلام المعرفة من تاريخ وأنساب وسير وأعلام ولغة ومغاز وغناء وقيان ، ولكنه قد خصص نفسه فيما يبدو في أمور الاماء والقيـــان والســـماع والخمر ودرس كل ما يتعلق بهذه الفنون ، ودون كل ما يتصـــل بهـــا سواء أكان ذلك في كتابه « الأغاني » أو في عدد كبير من الكتب العديدة التي مر ذكرها والتي تحمل العناوين الدالة على ذلك وهذا بالاضافة الى كون الأصبهاني راوية نسابة على ما هو واضح من كتبه أنساب القبائل .

الأغاني : جمعه وتأليفه واغراضه

هذا وقد اتصل أبو الفرج الأصبهاني بالوزير المهلبي وزير معز الدولة البويهي ، ويقول الثعالبي في « يتيمة الدهر » ان أبا الفرج « كان منقطعا الى المهلبي الوزير ، كثير المدح ، مختصا به » . وكان المهلبي يختاره في

كل شيء مريح ، وكانت صحبته له قبل الوزارة وبعدها ، وظل هكذا الى ان فرق بينهما الموت •

وكان المهلبى من الأدباء الذين يقولون الشعر ، ويكتبون النثر ، ونعتقد انه الشخصية التى ألف لها أبو الفرج الأصبهانى كتاب «الأغانى»• الا أن الأصبهانى صرح فى كتابه عن الباعث الذى دفعه الى التأليف فقال : « والذى بعثنى على تأليفه أن رئيسا من رؤسائنا كلفنى جمعه ، وعرفنى انه بلغه ان الكتاب المنسوب الى أسحق مدفوع أن يكون من تأليفه ، وهو مع ذلك قليل الفائدة ، وانه شاك فى نسبته لأن أكثر أصحاب أسحق ينكرونه ، ولأن ابنه حمادا أعظم الناس انكارا لذلك ، وقد لعمرى صدق فيما ذكره وأصاب فيما أنكره •• » •

وعلى ذلك تكلفه أبو الفرج على ما فيه من مشقة ، وبناه على الأصوات المائة المختارة •

وحكاية هذه الأصوات أن هارون الرشيد أمر ابراهيم الموصلى ، واسماعيل بن جامع ، وفليح بن العوراء باختيارها له من الغناء كله ، ففعلوا • ثم أمرهم أن يختاروا له ثلاثة منها ففعلوا • ثم رفعت الى الواثق بالله وهو الخليفة ، فأمر اسحق بن ابراهيم الموصلى أن يختار له منها ما رأى انه أفضل من غيره ، ويبدل ما لم يكن على هذه الصفة بما هو أولى منه ، ففعل ذلك • فعلى هذه الأصوات المختارة اعتمد أبو الفرج فى تأليف كتابه ، ولكنه لم يقتصر عليها ، بل أضاف اليها طائفة كبيرة من الأصوات التى غنى بها ، وليست منها •

وكان اذا ذكر الصوت عرف قائله ، ومن غنى به ، وبين لحنه وطريقته وجنسه ، ومذهبه فى ذلك مذهب اسحق الموصلى ، اذ كان هو المأخوذ به يومئذ دون مذهب من خالفوه فى أسماء الألحان ، وبيان أجناسها • ثم ينتقل الى الشاعر الذى قاله ، فيذكر نسبه وأخباره ، وتاريخ مولده ووفاته ، وطائفة من أشعاره ، وما غنى له فيها ، معتمدا بذلك على الاسناد المتسلسل • ثم يفرغ الى من غنى بهذا الصوت ، فينسبه ويروى أخباره ويبين صنعته ، ومنزلته وما له من الأصوات المعدودة • واذا لم يستتم الكلام على الشخص الذى يتحدث عنه ، لأن له أخبارا مع شخص آخر جعلت على حدة ، أشار الى ذلك بقوله : « وسنذكر خبره مع فلان فى موضع آخر » • ويقول فى ذاك الموضع : « أخبار فلان مع فلان اذ كانت سائر أخباره قد تقدمت » •

وابتداؤه بالأصوات الثلاثة المختارة فما يليها جعله لا يراعي فى كتابه طبقات الشعراء ، وأزمنتهم ، ولا طرائق الغناء ، وطبقات المغنين • فانه استهل الكتاب بأخبار أبى قطيفة ، وهو شاعر مخضرم ليس فى المعدودين ولا الفحول ، وانما غنى له معبد فى شعر له :

القصر ، فالنخل ، فالجماء بينهما .. أشهى الى القلب من أبواب جيرون .

فعد من ثلاثة الأصوات المختارة ، فبدأ به أبو الفرج ، ثم بمعبد • وثنى بعمر بن أبى ربيعة ، ثم بابن سريج ، لأن ابن سريج غنى فى شعر عمر :

تشكى الكميت الجرى لما جهدته … وبين لو يستطيع أن يتكلما

فعد من ثلاثة الأصوات المختارة • وثلث بنصيب بن رباح ثم بابن محرز لأن هذا غنى له فى شعره :

أهاج هواك المنزل المتقادم ؟ … نعم ، وبه ممن شجاك معالم

فعد من ثلاثة الأصوات المختارة • وهكذا مشى الى سائر الأصوات على غير ترتيب فى الشعراء والمغنين •

● هكذا رأينا أن الأغانى لم يقتصر على الغناء والمغنين • وانما هو تاريخ جزيل الفائدة ، ففيه أخبار بضع مائة من الشعراء ، والمغنين ، والقيان ، والاماء ، والغلمان ، والعشاق والمعشوقات ، والمتظرفين والمتظرفات • وفيه أخبار الخلفاء والأمراء والقواد ، ومن نبغ من ابنائهم وبناتهم فى الشعر والغناء • وفيه أخبار قبائل العرب وأنسابهم ، وغزواتهم ، وأيامهم ، ومياههم • وفيه محاسن ما قيل من الشعر فى الجاهلية والاسلام والمائة الأولى والثانية لبنى العباس ، وفيه وصف مآكل العرب ومشاربهم فى بداوتهم وحضارتهم ، وذكر عشقهم وأنواعه ، وتسريهم ، وزواجهم وطلاقهم ، وسائر أحوالهم •. وفيه تصوير بديع للمجالس والملاهى ، والرياض والحدائق •

واذا علمنا أن أبا الفرج يحب اللذة ويتطلبها ، وبنى كتابه على الغناء ، والغناء يقصد به اللذة والترفيه عن النفس ،فغلبت ناحية العبث والمجون على كتابه ، وحفل بالنوادر المسلية ، فنراه يعنى بفضح الشعراء ، وذكر أخبارهم وأشعارهم الفاحشة ، وتصوير فساد أخلاقهم ، ولم يتحرج من تشهير الخلفاء وأبنائهم ، وذكر عشقهم واستهتارهم وعكوفهم على اللهو والشراب والسماع •

فلهذا لايسعنا اعتماد كتاب الأغانى من النواحى التاريخية الشاملة ، ولاسيما كلامه على الاسلاميين والمولدين ، فانه قلما تناولهم

الا من ناحية العبث واللهو ، ولا ينبغى الاستسلام الى رواياته كلها دون التوقف عند بعضها فى شىء من الاحتياط ٠

قيمة كتاب الأغانى

كموسوعة ادبية شاملة

مر بنا أن كتاب الأغانى يعد أوسع كتب الأدب العربى شهرة وأوفرها حظا وأكثرها تداولا على السنة المتأدبين ، لفخامته مبنى وحجما ، ونفاسته قيمة ومحتوى ٠ ومر بنا أيضا أن صاحبه أبا الفرج الأصبهانى ألفه فى خمسين سنة ، وتتركز الروايات حول اهدائه اياه لسيف الدولة الحمدانى أمير حلب ، وان سيف الدولة بعث اليه بألف دينار ، ويستقل الرواة هذا المبلغ لأن سيف الدولة الذى عرف باكرام الشعراء والأدباء والعلماء كان ينبغى له أن يقدر هذا العمل العلمى الجليل ، وأن يوفيه ما يستحق من جائزة تكون أضعافا مضاعفة لهذا المبلغ الضئيل بالنسبة للوزن العلمى للكتاب ٠

وعندما بلغ الصاحب بن عباد أن سيف الدولة أعطى أبا الفرج ألف دينار لما أهدى اليه نسخة من كتابه ، فقال : « لقد قصر سيف الدولة ، وانه يستحق أضعافها ، اذ كان مشحونا بالمحاسن المنتخبة ، والفقر الغريبة ، فهو للزاهد فكاهة ، وللعالم مادة وزيادة ، وللكاتب والمتادب بضاعة وتجارة وللبطل رحلة وشجاعة ، وللمتظرف رياضة وصناعة ، ولقد اشتملت خزانتى على مائة الف ، وسبعة عشر ألف مجلد ما فيها سميرى غيره » ٠

وسواء صحت هذه الروايات أم لم تصح فانها قد فجرت انتباه صفوة العلماء والأعيان ممن كانوا معاصرين للأصبهانى أو ممن جاءوا بعده الى قيمة الكتاب ، فذكروا فضله وأوفوه حقه وزيادة بما يربو على أى مبلغ يمكن أن يمنحه سيف الدولة للمؤلف فيما لو كانت قصة الاهداء والألف دينار كاملة الصحة ٠

وكتاب الأغانى ــ فيما يذكر أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة ــ لم يكن يفارق عضد الدولة فى سفره ولا فى حضره ، وانه كان جليسه الذى يأنس اليه ، وخدينه الذى يرتاح نحوه ٠

وتتكرر قصة الألف دينار واستصغار القيمة والثناء على الكتاب عند أكثر من ترجم للاصبهانى من المؤرخين أو الأدباء أمثال ابن منظور

فى مختصره « مختار الأغانى فى الأخبار والتهانى » والمبينى فى « عقد الجمان » وطاشكبرى زاده فى كتابه « مفتاح السعادة » ، وحاجى خليفة فى « كشف الظنـــون » ويتفق الجميع على أن الصـــاحب قد انتقـــد سيف الدولة وأطرى الكتاب وفضله على جميع الكتب التى احتوتهـــا خزائنه وان اختلفوا فى تقدير عددها ، فمن قائل انها كانت مائتى ألف وستة آلاف كتاب ، ومن قائل انها كانت مائة ألف وســـبعة عشر ألف سفر ، وقائل آخر أن الصاحب كان يستصحب حين يسافر ثلاثين جملا محملة بالكتب فلما وصل اليه « الأغانى » استغنى به عنها !!

ان الكتاب من حيث قدره يعتبر كنزا لايسهل تثمينه ، وهو أمر متفق عليه حتى عند من لم يكونوا متوفرين على الأدب توفرا كاملا مثل أبى تغلب بن حمدان ـ ابن أخى سيف الدولة ـ فقد بعث بابن عرس الموصلى يبحث له عن نسخة منه فاشتراه له بعشرة آلاف درهم ـ وهى مجرد نسخة وليست الأصل ـ فلما وقف عليه ورأى عظمته وجـــلال ما حوى قال : لقد ظلم وراقه المسكين وانه ليساوى عشرة آلاف دينار ، ولو فقـــد لما قدرت عليـــه الملوك الا بالرغائب ، وأمـــر ان تكتب له نسخة أخـــرى ·

لقد شغل الكتاب الناس شغلا كبيرا حتى بدا أن السبب فى ذلك هو تقصير سيف الدولة فى جائزته للمؤلف · والواقع أن قيمة الكتاب تنبع من عظم شأنه وجلال قدره فى عالم التأليف ، ومن انه شىء جديد فى محتواه تنوعا وثراء وتشعبا وشمولا وتخصصا واستطرادا · لقد جمع الكتاب مادة وفيرة مثيرة · وأما رواية اهـــداء المؤلف الكتـــاب الى الأمير سيف الدولة ، وأنه لم يكتبه الا مرة واحدة فى عمره وهى النسخة التى أهداها الى الأمير الحمدانى ، فهى برغم أن الوزير المهلبى رواها على لسان المؤلف تبدو مغايرة للواقع ، ذلك ان ياقوت الحموى يذكر ان ما أهدى الى سيف الدولة كانت منتخبات من الكتاب ولم يكن الكتاب كله · والخبر هكذا معقول · فسيف الدولة على رفعة شأنه لم يكن يليق بقدره أن يهدى اليه منتخبات من كتاب ، ومن ثم فان الألف دينار التى بعث بها الى المؤلف تعد فضلا منه ، وأما النسخة الأصلية من « الأغانى » فيما يروى المقرى صاحب « نفح الطيب » فقد بعث بها المؤلف الى المستنصر الأموى الأندلسى ـ وكانا ذوى قربى فكلاهما أموى ـ فأرسل اليه نظيرها ألف دينار من الذهب العينى · وينص صاحب نفح الطيب على أن الأصفهانى بعث الى الملك الأندلسى بنسخة من كتابه قبل أن يخرجه الى أهل العراق ، وهو رأى نميل اليه ، خاصة وان الرواية قد تكررت عند صاحب تاريخ بغداد من أن أبا الفرج كان يبعث بتصانيفه سرا الى صاحب الأندلس ، ومعنى

ذلك انه ارسل مصنفات قبل الأغاني الى عبد الرحمن الناصر ثم الى ابنه الحكم المستنصر ·

وكتاب الأغاني فريد في بابه من حيث كونه أكبر مرجع عربي في ذكر الغنـاء وتاريخه وقواعده والآلات الموسيقية التي كانت على عصره أو سابقة عليه ، ولكي نكون على شيء من الحرص فنحن نستثني من ذلك كتاب « الموسيقي الكبير » للفارابي ، فانه أكبر وأعظم عمـل موسيقى عربي ، الا ان هناك فرقا كبيرا بين طبيعة الكتابين ، بحيث لايجمـل الخلط بينهما ولا تحمد المقارنة ·

وكمصدر أعلى للغناء العربي فان الأصبهاني يلم بكل المغنين والمغنيات وفنونهم وأخبارهم والحانهم في أجزاء الكتاب على سعة رقعتها ، ويعرف باول من دون الغناء العربي ، وهو الكاتب يونس بن سـليمان من أهل المدينة ، الذى أخذ فنه على الرعيل الأول من رواد الغناء العربي مثل معبد والغريض وابن سريج وابن محرز · ولقد وصل صيت يونس وفضله الى الوليد بن يزيد ، وهو من نعرف حبا للطرب وشغفا بالموسيقى واقبالا على الملذات ، فاستقدمه من المدينة وقربه اليه وظل مقيما فى الشـام عنده حتى مقتله ·

وقارىء كتاب الأغاني سوف يصادف في طريقه كثيرا من المصطلحات التى يستغلق عليه فهمها ، ذلك لأنها مصطلحات موسيقية بحتة ، وكلها متعلق بالعود العربى ، فمن هذه المصطلحات البم والمثلث والمثنى والزير انها أوتار العود من أعلى الى أسفل (٥١) ·

وللعب الأصابع على الأوتار أماكن ذات مسميات فنية أيضـا منها دستان الخنصر ودستان السبابة ودستان البنصر ودستان الوسطى · ولعلنا نلاحظ ان الخنصر والبنصر والسبابة والوسطى هي الأصابع التى تتحرك بنانها على الأوتار مشدودة على عنق العود فى رشـاقة وانتظام فتحرك الأنغام متى كان صاحبها ملما بفنه عارفا بأصول العزف ·

وسوف يصادف قارىء الأغاني وبخاصة عند الأصوات أسماء يشكل عليه أمرها حتى ليكاد ذهنه ينصرف الى أوزان أبطال الرياضة فى زماننا مثل ثقيل أول وثقيل ثان · وخفيف الثقيل الثانى ، وخفيف الخفيف ، فلا عليه من ذلك ، انها قوانين الغناء وهي لاتخرج عن ثمانية قوانين ·

ان هدف الكتاب فى طبيعته حسبما ذكرنا موسيقى من ناحية الشكل العام ، ولكنه فى واقعه كتاب عظيم من كتب أدبنا العريق ، بل ان الناحية

الأدبية فيه أوسع وأشمل منها من الناحية الموسيقية . فهو والأمر كذلك لايمكن اعتبـــاره كتــاب طبقات رغم احتوائه على هذا العدد الهائل من شعراء الجاهلية والاسلام حتى نهاية القــرن الثالث الهجرى ، فان تلك الفكرة لم تجر لمؤلفه على خاطر ولم تلح له على بال ٠

ان الكتاب موسوعة أدبية فنية ثمينة ٠ انه ما يكاد يذكر صــوتا أى لحنـــا حتى ينطلق منه ببراعة ورشاقة الى المغني وأخباره والشاعر وأشعاره وان كان متصلا بخليفة أو ملك تحدث عن هذا الملك أو ذلك الخليفة ، وهو يدعم روايته بالاسناد ، واذا تعددت الروايات أثبتها على اختلافها ٠ وفى أجزاء الكتاب العشرين وعلى سعة صفحاته تنتشر أخبار العرب وأيامهم وأنسابهم ومفاخرهم ومياهم ووصف لحياتهم الاجتماعية فى أكثر من عصر وأكثر من مكان ، ويركز المـؤلف على مراكز الغنـــاء وخاصة المدينة ومكة وبغداد ، هذا فضـــلا عن مئات التراجـــم وعديد السير ، يضاف الى ذلك كله تلك المجموعات الهائلة من الصور الأدبية من شعر وخطابة وقصص ونوادر ٠

والأصبهاني يؤلف عن دراية ويكتب عن خبرة ، فهو حين ينتقل انتقالا مفاجئا من موضوع الى غيره لا يصدر فى ذلك عن غفلة أو قلة دراية بأساليب التأليف ومناهجه ، وانما هو يعمد الى ذلك عمـدا فيقول فى الصفحات الأولى من افتتاحية كتابه : « فلو أتينا بما غنى به من شـــعر شاعر ولم نتجاوز ، حتى نفرغ منه ، لجرى هذا المجرى وكان للنفس عنه نبوة ، وللقلب منه ملة ٠ وفى طباع البشر محبة الانتقال من شىء الى شىء ، والاستراحة من معهـود الى مستجد ، وكل منتقل اليه أشهى الى النفس من المنتقل عنه ، والمنتظر أغلب على القلب من الموجود ، واذا كان هذا هكذا ، فما رتبناه أحلى وأحسن ، ليكون القارىء له بانتقاله من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ، ومن أخبار قديمة الى محدثة ، وملك الى سوقة وجد الى هزل أنشط لقراءته وأشهى لتصفح فنونه ، ولاسيما والذى ضمناه اياه أحسن جنســـه ، وصفو ما ألف فى بابه ولبـــاب ما جمع فى معناه » ٠

مختصرات الأغانى

لا شك ان فى كتاب الأغانى من المظاهر والبواطن ما يغرى بعض العلماء على اختصاره أو تبسيطه ٠ واختصار الكتب الكبيرة أمر جرت عليه طبيعة الثقافة العربية ٠ وقد عرفنـــا كيف كان بعض العلماء يختصرون

كتبهم المطولة كما فعل العماد الاصبهانى مع كتابه « الخريدة » وكما فعل البيهقى مع « دمية القصر »

ان هناك من رأوا ضرورة اختصار « الأغانى » وتخليصه من الأسانيد ومفاتيح الموسيقى التى لايفهمها الا المتخصصون ، والتى أشرنا الى شىء منها فيما مضى من صفحات بحيث يصبح الكتاب أدبا محضا ، وهناك من رأى اعادة ترتيبه بشكل زمنى واضفاء طابع كتب الطبقات عليه ، وهكذا لكل من حاول اختصاره وجهة نظر خاصة به طبقها حين مارس عملية الاختصار التى أقدم عليها ٠

وتنتهى الى علمنا ثمانى محاولات من هذا القبيل كان أولها ما قام به الوزير الحسين بن على بن حسين أبو القاسم المعروف بالمغربى المتوفى سنة ٤١٨ هـ ومعنى ذلك انه بدأ يختصر كتاب الأغانى ولما يمض على وفاة مؤلفه نصف قرن من الزمان ٠ وكان آخرها ما قام به الشيخ محمد الخضرى العالم المصرى الجليل الذى توفى سنة ١٩٢٧ م ٠

غير أن أشهر مختصرات الأغانى وأكثرها فائدة فيما نرى هى :

١ ـ ما قام بعمله ابن واصل الحموى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ وكان يلقب بقاضى القضاة وشيخ الشيوخ بحماة ، واسمه كاملا : محمد بن سالم ابن نصر الله بن سالم بن واصل ٠ وقد سمى كتابه « تجريد الأغانى من ذكر المثالث والمثانى » وعنوان المختصر يفيد أنه جرده من صفته الموسيقية ، وهذا هو ما قام به بالفعل ، كما انه خلصه من التكرار والعنعنات وزاد بأن شرح الصعب من الألفاظ ، ولايزال الكتاب مخطوطا بدار الكتب المصرية ٠

٢ ـ ما قام به ابن منظور المصرى المتوفى سنة ٧١١ هـ صاحب « لسان العرب » واسمه محمد بن على ، وكنيته أبو الفضل جمال الدين بن منظور ، وكان سخى الذهن نابغ الفكر خصب الانتاج ويكفيه فضلا قاموسه « لسان العرب » الذى لم يستطع فرد ولا جماعة حتى الآن تصنيف ما يماثله دقة وعمقا واحاطة وشمولا ٠ ومن الطريف أن ابن منظور فى الوقت الذى نرى له أطول وأفضل قاموس ، نجده فى نفس الوقت مولعا باختصار المطولات من كتب الأدب مثل الحيوان للجاحظ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وذخيرة ابن بسام وأغانى الأصبهانى وهو الذى يعنينا فى هذا المقام وسماه « مختار الأغانى فى الأخبار والتهانى » وهو من الأعمال الجليلة التى تيسر النفع وتصل بالباحث الى ضالته فى سرعة ويسر ٠

٣ ـ ما قام به الشيخ محمد الخضرى الأستاذ بالجامعة المصرية وصاحب المؤلفات النفيسة فى اللغة والأدب والتـاريخ ، انه لم يحتصر كتاب الأغاني على النحو الذي مر ذكره ، ولكنه فى الواقع هذب الكتـاب وصنع منه شيئا آخر ، وهو لذلك سماه « تهذيب الأغانى » وجعله فى سبعه أجزاء وخصص جزءا أضافه الى السبعة ضمنه الفهارس والملاحظات ٠ وقد فصل الشيخ الخضرى بين الغناء والشعر ، ورد الأشعار الى اصولها طبقا لروايتها الصحيحة وليس تبعا لما غنـاه المغنون أو المغنيات وأتم القصائد المبتورة ، وقسـم الشعراء الى طبقات زمنيـة : جهليين ، ومخضرمين ، واسلاميين ، ومخضرمي الدولتين ، ومحدثين ، وخص كل طبقة بجزء حسب الترتيب الذى ذكرناه ٠ ولما كان الشعراء المحدثون من كثرة العدد ووفرة الانتاج بمكان فقد خصص لهم جزءين هما الخامس والسادس وأما الغناء والمغنون فقد أفرد لهم جزءا منفردا هو الجزء السابع من الكتاب ٠

نماذج مما روى أبو الفرج
فى الأغانى

ونذكر للقارىء قصة مما ساقه أبو الفرج الأصبهانى فى كتابه باسلوب غاية فى القوة والسلاسة ·

« أخبرنى محمد بن يزيد عن أبى الأزهر قال : حدثنا حماد بن إسحق عن أبيه ، عن سياط قال : حدثنى يونس الكاتب قال :

كان معبد قد علم جارية من جوارى الحجاز الغناء ، ثم ملكها رجل من اهل الاهواز ، فأعجب بها ، وذهبت به كل مذهب ، وغلبت عليه · ثم ماتت ، وأخذت جواريه أكثر غنائهن عنها ، فكان لمحبته اياها وأسفه عليها ، لايزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقره ، ويظهر التعصب له ، والميل اليه ، والتقديم لغنائه على سائر أغانى أهل عصره ، الى أن عرف ذلك عنه ، وبلغ معبدا خبره · فخرج من مكة حتى أتى البصرة ، فلما وردها صادف الرجل وقد خرج عنها فى ذلك اليوم الى الأهواز فاكترى سفينة · وجاء معبد يلتمس سفينة ينحدر فيها الى الأهواز ، فلم يجد غير سفينة الرجل ، وليس يعرف أحد منهما صاحبه ، فأمر الرجل الملاح ان يجلسه معه فى مؤخرة السفينة · ففعل ، وانحدروا · فلما صاروا فى فم نهر الابله تغدوا وشربوا ، وأمر جواريه فغنين ومعبد ساكت ، وهو فى ثياب السفر ، الى ان غنت احدى الجوارى من شعر للنابغة (واللحن الغنائى فيه لمعبد) · فلم تجد أداءه ، فصاح بها معبد : يا جارية ، ان غناءك هذا ليس بمستقيم ، فقال له مولاها وقد غضب : وانت ما يدريك بالغناء ما هو ؟ الا تمسك وتلزم شأنك ؟ فأمسك · ثم غنت أصواتا من غناء غيره وهو ساكت لا يتكلم حتى غنت فى شعر لعبد الرحمن بن أبى بكر ، (واللحن فيه من صنعة معبد) فأخلت ببعضه فقال لها معبد : يا جارية ، لقد اخللت بهذا الصوت اخلالا شديدا · فغضب الرجل وقال له : ويلك · ما أنت والغناء ؟ الا تكف عن هذا القول ؟

فأمسك معبد عن الكلام · وغنت الجوارى مدة ، ثم غنت الجارية فى شعر لكثير عزة (واللحن لمعبد) فلم تحسن الأداء · فقال لها معبد : يا هذه اما تقوين على أداء صوت واحد ؟ فغضب الرجل وقال له ما أراك تدع الفضول بوجه ولا حيلة ، وأقسم بالله لئن عاودت لأخرجنك من

لسفينة ، فأمسك معبد • حتى اذا سكتت الجوارى سكتة اندفع يغنى الصوت الأول حتى فرغ منه • فصـــاحت الجوارى : أحسنت والله يا رجل ، فاعده • فقال : لا والله ، ولا كرامة • ثم اندفع يغنى الثانى • فقلن لسيدهن : ويحك ، هذا والله أحسن الناس غناء ، فاسأله ان يعيده علينا ولو مرة واحدة ، لعلنا نأخذه عنه • فانه ان فاتنا لم نجد مثله أبدا • فقال : قد سمعتن سوء رده عليكن ، وأنا خائف مثله منه ، وقد أسلفناه الاساءة ، فاصبرن حتى نداريه • ثم غنى الصوت الثالث ، فزلزل عليهن الأرض • فوثب الرجل فخرج اليه وقبل رأسه وقال : ياســـيدى أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك (أى قدرك) فقال له : فهبك لم تعرف موضعى، قد كان ينبغى لك ان تتثبت ولا تسرع الى بسوء العشرة وخفاء القول • فقال له : لقد أخطأت وأنا أعتذر اليك مما جرى ، واسألك ان تنزل الى وتختلط بي ، فقال : أما الآن فلا • فلم يزل يرفق به حتى نزل اليه • فقال له الرجل : ممن أخذت هذا الغناء ؟ قال : من بعض أهل الحجاز ، فمن أين أخذه جواريك ؟ فقال : أخذنه من جارية كانت لى ابتاعها رجل من أهل البصرة من مكة ، وقد كانت أخذت عن أبى عباد معبد ، وعنى بتخريجها ، فكانت تحل منى محل الروح من الجســـد ثم استأثر الله عز وجل بها • وبقى هؤلاء الجوارى ، وهن من تعليمها ، فأنا الى الآن أتعصب لمعبد ، وأفضـــله على المغنين جميعا ، وأفضـــل صنعته على كل صنعة • فقال له معبد : أتعرفنى ؟ قال : لا ، قال : فصـــك معبد بيده صلعته ـ أى ضرب بيده على رأسه الأصلع ـ ثم قال : فأنا والله معبد ، واليك قدمت من الحجاز ، ووافيت البصرة ساعة نزلت السفينة لاقصدك الأهواز • والله لا قصرت فى جواريك هؤلاء ، ولا جعلن لك فى كل واحدة منهن خلفا من الماضية •

فاكب الرجل والجوارى على يديه ورجليه يقبلونهـــا ويقولون : كتمتنا نفسك طول هذا حتى جفوناك فى المخاطبة ، واسأنا عشرتك ، وانت سيدنا ومن نتمنى على الله أن نلقاه » •

ثم أكرمه واتحفه واهدى اليه وانحدر معه الى الأهواز ، فأقام عنده حتى رضى حذق جواريه وما أخذن عنه ، ثم ودعه وانصرف الى الحجاز •

إحصاء العلوم

الفارابي

٩٤٠ م

● اول ما عرف من موسوعات العلوم فى العربية كتاب « احصاء العلوم » للفيلسوف الاسلامى أبى نصر « الفارابى » (٨٧٠ — ٩٥٠ م) ·· الفه الفارابى فى القرن العاشر الميلادى ، فاشتهر ذكره فى بلاد الاسلام ، وأصاب حسن التقدير عند أهل العلم فى الشرق والغـرب ، وامتدحه العارفون ، وعدوه ضروريا لجميع المثقفين ، والراغبين فى البحث والاطلاع·

ففى القرن الحادى عشر الميلادى تحدث القاضى صـــاعد بن أحمد الأندلسى (المتوفى سنة ١٠٧٠ م) عن الفارابى ومؤلفاته ، فأبدى اعجابه بكتاب « احصاء العلوم » اذ قال : « ثم له (أى الفارابى) بعد هذا كتاب شريف فى احصاء العلوم والتعريف بأغراضها ، لم يسبق أليه ، ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به ، وتقديم النظر فيه » ·

وقد نقل هذا الثناء على « الاحصاء » كثيرون من مؤلفى العرب ، مثل « القفطى و « ابن أبى أصيبعة » · وفى أواخر القرن الثانى عشر ، وأوائل الثالث عشر نقل « ابن طملوس » (تلميذ ابن رشد) عن«الاحصاء» فصلا برمته ، وهو الفصل الذى عقده الفارابى فى « المنطق » ، وقدم له « ابن طملوس » · بقوله : « ولما رأيت كلاما غير هذا الذى أسوقه كاملا ، بالغـــا فى وصف هذه الصناعة ، جئت به على وجهـــه من غير زيـــادة ولا نقصان ·· » · وكذلك نقل « ابن أبى أصيبعة قسما من ذلك الفصل ، قدم له فى « عيون الانباء » بعبارة « قال أبو نصر الفارابى ·· » ·

وحسبنا لبيان مكانة « احصاء العلوم » عند علماء الغرب فى القرون الوسطى أن نذكر أن هذا الكتاب العربى ترجم الى اللغة اللاتينية ، غير مرة ، ابان القرن الثانى عشر الميلادى · وأهم هذه الترجمات ترجمتان : احداهمـــا منســـوبة الى « دومينكوس غنديسالينوس » ، وقد نشرها « كاميراريوس » ، ولكن هذه الترجمة ليست كاملة ولا وافية · فقد حذف

« غنديسالينوس » بعض فصول الكتاب كالفصل الذى عقده الفارابى في علم الكلام) وتصرف فى بعض المواضع بالحذف والاختصار . أما الترجمة الثانية فمنسوبة الى « جيرار دى كريمونا » ، وهى ترجمة كاملة دقيقة مطابقة للنص العربى للكتاب .

على أن « احصاء العلوم » كان معروفا أيضا فى المدارس اليهودية : فقد انتفع به « موسى ابن عزرا » (المتوفى سنة ١١٤٠ م) . وقد وجدت للكتـــاب ترجمة عبرية مختصرة بقلم « كالونيموس بن كالونيموس » (المتوفى سنة ١٣٢٨ م) .

حيـــاة الفارابى

طلب العلم من المهد الى اللحد

هو أبو نصر ، محمد ، المعلم الثانى ، الشهير بالفارابى · فاسمه محمد وكنيته أبو نصر ، ولقبه المعلم الثانى ، وشهرته الفارابى ·

ولا ندرى كيف كنى بأبى نصر ، مع انه قد جرت العادة فى الغالب ان يكنى الشخص باسم ابنه الأكبر ، وان المشهور من سيرة الفارابى انه لم يتزوج ولم ينجب أولادا ·

والراجح أن السبب فى تلقيبه بالمعلم الثانى يرجع الى مكانتـــه الكبيرة فى الفلسفة ، ووفرة انتاجه فيها ، ومتابعته لدراسات أرسطو ، وشرحه لنظرياته ، حتى لقد اعتبر أكبر الفلاسفة من بعده ، وأعظم ناشر وموضح لآرائه ، ولما كان أرسطو قد اشتهر بلقب « المعلم الأول » ، لذلك أطلق على خليفته فى عالم الفلسفة وناشر آرائه لقب « المعلم الثانى » ·

واشتهر بالفارابى نسبة الى مسقط رأسه « فاراب » من أعمـــال حراسان · وهى منطقة كبيرة وراء نهرى جيحون « أموداريا » وسـيحون « سراداريا » ، وتقع على جانب الفـــرع الأكبر لنهر سيحون فى طرف بلاد تركستان ·

هذا وقد اشتهر بلقب الفارابى علماء آخرون منهم صاحب معجم « الصحاح » (هو أبو نصر حماد الجوهرى الفـــارابى ٣٢٣ ـ ٣٩٣ هـ صاحب معجم « تاج اللغة وصحاح العربية » المشهور بالصحاح) · ولكن اذا أطلقت كلمة الفارابى انصرفت الى فيلسوفنا الذى نحن بصدده ·

ولا نعرف عن طريق يقينى السنة التى ولد فيها الفارابى · والراجح انه ولد حوالى سنة ٢٥٩ هـ (الموافقة لسنتى ٨٧٢ ، ٨٧٣ ميلادية) · ويستنتج ذلك استنتاجا ما ذكره المؤرخون فى وفاته ، فقد ذكر ابن خلكان انه توفى سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ ـ ٩٥١ م) وقد ناهز ثمانين سنة ·

ولا نكاد نعرف شيئا يقينيا عن طفولتـه الأولى · أما فيما يتعلق بالمراحل التالية فيظهر من سيرته انه بعد بلوغه دور التعلم قد عكف فى مسقط رأسـه على دراسة طائفيـة من مواد العلوم والرياضـــة والآداب

والفلسفية واللغات وعلى الأخص التركية وهى لغته الأصلية والفارسية واليونانية والعربية ٠

ثم خرج من بلده حوالى سنة ٣١٠ هـ ، وهو يومئذ يناهز الخمسين، قاصدا العراق ، حيث أتم دراساته فيما بدأ به فى مسقط رأسه وأضاف اليه مواد أخرى كثيرة ٠ فدرس فى حران الفلسفة والمنطق والطب على الطبيب المنطقى يوحنا بن حيلان ، ودرس فى بغداد الفلسفة والمنطق على أبى بشر متى بن يونس ، وهو مسيحى نسطورى كان حينئذ من أشهر مترجمى الكتب اليونانية ومن أشهر الباحثين فى المنطق ، ودرس فى بغداد كذلك العلوم اللسانية العربية على ابن السراج ، وأتيح له فيها أيضا دراسة الموسيقى واتمام دراساته فى اللغات والطب والعلوم والرياضيات٠ ولا غرابة ان يتتلمذ فى هذه السن المتقدمة ، فقد كان هذا دأب العلماء فى هذه العصور ، يطلبون العلم من المهد الى اللحد ٠

وكان الفارابى مولعا بالاسفار فى طلب العلم ونشره والاحاطة بشئون الجماعات ٠ فانتقل من العراق الى الشام حوالى سنة ٣٣٠ هـ حيث اتصل بسيف الدولة بن حمدان الذى عرف له فضله ، وأكرم وفادته ، وعاش فى كنفه منقطعا الى التعليم والتأليف ٠ وكان فى أثناء اقامته بالشام يتنقل بين مدنها وخاصة بين حلب عاصمة الحمدانيين ودمشق التى كانت تدخل فى حوزتهم تارة وتخرج أخرى ٠ وقد سافر مرة من الشام الى مصر ، وكان ذلك على الراجح سنة ٣٣٨ هـ ثم رجع منها الى دمشق حيث توفى سنة ٣٣٩ هـ ٠

وقد آثر الفارابى حياة الزهد والتقشف ، فلم يتزوج ، ولم يقتن مالا ، ولم يشأ ان يتناول من سيف الدولة الا أربعة دراهم فضية فى اليوم ـ كما يذكر ذلك كثير من الرواة ـ ينفقها فيما يحتاج اليه من ضرورى العيش ٠ وقد اكتفى بذلك قناعة منه ، وكان فى استطاعته وهو الاثير عند الملك الجواد سيف الدولة بن حمدان ان يكتنز الذهب والفضة ويقتنى الضياع ٠ ويروى انه قد بلغ به التقشف انه كان يسهر فى الليل للمطالعة والتصنيف مستضيئا بقنديل (الحارس) ، لأنه لم يكن يملك قنديلا خاصا ، وانه قد بقى على ذلك أمدا طويلا ٠

وكان يؤثر العزلة والوحدة ليخلو الى التأمل والتفكير ٠ وكان طول مدة اقامته بدمشق ، كما يقول ابن خلكان فى وفيات الأعيان » ، يقضى معظم أوقاته فى البساتين وعلى شواطىء الأنهار « فلا يكون الا عند مجتمع

ماء أو مشتبك رياض ، حيث يؤلف بحوثه ويقصد اليه تلاميذه وزملاؤه ومساعدوه » ٠

مكانة الفارابى

فى العلوم والفنون والآداب

ليس من شك فى أن الفلسفة بمعناها الواسع الذى كان مستخدما فى ذلك العصر ، أى « العلم الجامع الذى يضع امامنا صـــورة شـاملة للكون » كما يقول « دى بور » فى كتابه « تاريخ الفلسفة فى الاسلام » ، كانت أوضح ناحية من نواحى نبوغ الفارابى ، وأبرز مظهر من مظاهر ألمعيته وتخصصه ٠ فمعظم جهوده كانت متجهة الى تجويد بحوثهـــا ، وخاصة ما تعلق منها بالفلسفة اليونانية ٠ وقد استأثرت فلسفة أرسطو ومؤلفاته بقسط كبير من نشاطه ، حتى ان ابن خلكان ليروى فى كتابه « وفيات الأعيان » انه قد وجد « كتاب النفس » لارسطاطاليس وعليه بخط أبى نصر الفارابى : انى قد قرأت هذا الكتاب مائة مرة ، وانه قد نقل عنه انه كان يقول : قرأت « الســماع الطبيعى » لارسطاطاليس الحكيم أربعين مرة وأرى اننى محتاج الى معاودة قراءته » ٠

وقد طبقت شهرته الآفاق فى مواد الفلسفة ، واعتبر أكبر الفلاسفة بعد أرسطو وأعظم ناشر وموضح لآرائه ، حتى لقد أطلق عليه اســـم « المعلم الثانى » أى خليفة أرســـطو الذى اشتهر بلقب « المعلم الأول » كما سبق بيان ذلك ٠

وهو يعد المؤسس الحقيقى للدراسات الفلسفية فى العالم العربى ، والمنشىء الأول لما نسميه الآن « الفلسفة الاسلامية » ٠ فقد أشاد بنيانها ، ووضع الأساس لجميع فروعها ٠ ولانكاد نجد فكرة عند من جاءوا بعده من فلاسفة الاسلام الا لها أصل لديه ٠ وهو أعرف فلاسفة الاسلام بتاريخ الفلسفة ونظريات الفلاسفة ٠ فهو يتحدث فى مؤلفاته حديث الخبير عن المدارس اليونانيـــة ويبين الفوارق بينها ويحاول التوفيق بين أفلاطون وأرســـطو

ولا تقل شهرته فى شئون السياسة والاجتماع عن شــــهرته فى شئون الفلسفة ، بل ان شئون السياسة والاجتماع كانت من أبرز مسائل الفلسفة من فجر نشأتها على يد سقراط وأفلاطون وأرســطو الى الوقت الحاضر ٠ ومن أجل ذلك استأثرت هذه الشئون بقسط كبير من نشاط

... الفارابي ... برز في شرح مسائلها ، ووقفت عليها طائفة من مؤلفاته ، من اشهرها كتاب « اراء اهل المدينه الفاضلة » ·

وبلغت شهرته فى اجادة عدد كبير من اللغات الأجنبية درجة منقطعة النظير ، حتى لقد ذكر كثير من المؤرخين انه كان يعرف سبعين لغة · وهذا الرقم ــ وان كان لا يخلو من كثير من المبالغة ــ يدل على مبلغ شهرته بين معاصريه بتمكنه من معظم لغات الكتابة والحديث السائدة فى عصره ، وخاصة التركية وهى لغته الأصلية ، والفارسية واليونانية التى يتحدث عنها فى بعض كتبه حديث العالم الخبير · وقد وصل فى احاطته باللغة العربية ، وهى ليست لغته الأصلية ، انه كان ينظم بها الشعر ، وقد روى له شعر كثير تغلب على معظمه أساليب الفلاسفة والرياضيين ·

وكان له معرفة واسعة بالطب ، بل ذكر بعض المؤرخين انه زاول مهنة الطب ومزاولة عملية ، ولكن الراجح انه لم يزاولها بالفعل ، وانما اكتفى بدراسة الفن نفسه والوقوف على مختلف فروعه ·

وكان نابغة عصره فى الموسيقى وله فيها مؤلف مشهور ومخترعات كثيرة · ويذهب ابن خلكان الى انه المخترع للآلة المسماة بالقانون وانه أول من ركبها هذا التركيب ، ويذهب غيره الى انه اخترع آلة أخرى تشبه القانون · ويقول كارادى فو فى « دائرة المعارف الاسلامية » ان دراوش المولوية لا تزال تحتفظ بأغان قديمة منسوبة اليه · ويروى ابن خلكان فى هذا الصدد حكاية أدنى الى الأساطير فيها الى التاريخ ، ولكنها تنبىء عما كان قد اشتهر به الفارابى بين مواطنيه من نبوغ فى فنون الموسيقى ، فيذكر أن الفارابى فى احد مجالسه مع سيف الدولة لم يعجبه عزف العازفين الذين عزفوا أمامه ، وأظهر أخطاء فنية كثيرة لكل واحد منهم ، فتعجب سيف الدولة من ذلك وسأله ان كان يحسن هذه الفنون ، فأجاب بالايجاب ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها وأخرج منها عيدانا وركبها ثم عزف بها فضحك كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وركبها تركيبا آخر وضرب بها فبكى كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وغير تركيبها وضرب بها ضربا آخر فنام كل من كان فى المجلس حتى البواب ، فتركهم نياما وخرج ·

ويدل ما وصل الينا من مؤلفاته ، وبخاصة كتابه « احصاء العلوم » على انه ــ بجانب ما ابتكره وما رسخ قدمه فيه ــ لم يغادر أى فرع آخر من فروع المعرفة السائدة فى عصره الا ألم به ووقف على أهم ما ألف فيه وما وصل اليه الباحثون فى مسائله

الفارابى وانتاجه الفكرى

كان الفارابى منتجا الى أبعد حدود الانتاج ، أخرج الى الناس من المؤلفات والرسائل ما يزيد على المائة ، أتى فيها على الفلسفة بعلومها وعلى النجوم والمناظر والمنطق والعدد والهندسة • وقد سار فى عرض أكثرها على اسلوب ممتاز « بالقصد فى اللفظ والعمق فى المعنى مع دقة فى التعبير وقوة فى التماسك وحسن الانسجام والنظام فى التأليف وربط المواضيع ربطا محكما منطقيا » •

ومن المؤسف حقا ان تضيع أكثر مؤلفاته أثناء الانقلابات والفتن ، وقد سلم منهــا القليل ، ومن هذا القليل ترجــم الأوربيون ما وقع فى أيديهم ، ومنهم من نقل محتويات بعض الرسائل وادعاها لنفسه ، ثم ظهر انه مأخوذ عن الفارابى •

وأثنى « روجر باركن » على الفارابى وعلى بعض مؤلفاته ، وذكره بين المقدمين فى تاريخ تقدم الفـكر كأقليدس ، وبطلميوس ، وســانت أوغستين • ويمكن القول : ان مؤلفات الفارابى « مهدت السبيل لظهور ابن سينا وابن رشد • وكانت نبراسا لحكماء الشرق والغرب ، وسراجا وهاجا يستضيئون بنوره ويسيرون على هداه » •

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نجد ان للفارابى أكبر الأثر فى التفكير الأوربى ، ولايزال رجــال الفلسفة والعلم فى أوربـا وأمريـكا يهتمون به الى اليوم •

ومن المؤرخين من ســماه فيلسوف الاســلام بالحقيقـة ، وقال « ابن القفطى » : « ان الفارابى فيلســوف المسـلمين غير مدافـع » • أما « ابن خلكان » فقد ذكر أنه أكبر فلاسفة المسلمين وانه لم يكن فيهـم من بلغ رتبتــه فى فنونه • واطلع المستشرقون والمؤرخــون فى أوروبا وأمريكا على فلسفة الفارابى ودرسوها وتأثروا بها ، وخرجوا بالقول : ان « الفارابى » مؤسس الفلسفة العربية ، ومنهم من يرى انه زعيم أكبر فرقة فلسفية فى عصره والمقدم فيها وهو المرجع وعليه الاعتماد •

وقال « دى فو » : « ان الفارابى شخصية قوية وغريبة حقا ، وهو عندى أعظم جاذبية وأكثر طرافة من ابن سينا ، لأن روحـه كانت أوفر

تدفقا وجيشاناً ، ونفسه أشد تأججا وحماسة ، لفكره وثبات كوثبات الفنان ، وله منطق مرهف بارع متفاوت ، ولأسلوبه مزية الايجاز والعمق » . ويظهر ان « ماسينيوس » (٥٢) قد تأثر أكثر من غيره بفلسفة « الفارابى » وقدرها حق قدرها . فصرح بأن « الفارابى » أفهم فلاسفة الاسلام وأذكرهم للعلوم القديمة ، وهو الفيلسوف فيها لا غير ، وهو مدرك محقق

وكان « للفارابى » أثر بليغ فى الاسلام وفلاسفة القرون الوسطى من مسيحيين ويهود ، ويدلنا على ذلك آثاره التى نجدها فى مصنفت هؤلاء التى تناولت آراء الفارابى ونظرياته بالعناية والاهتمام بها شرحا وتعليقا. ومذهب الفارابى فى الفلسفة هو مذهب الأفلاطونية الحديثة ، مطبوعا بطابع الاسلام « ذلك المذهب الذى بدأ بترتيبه الكندى من قبله وأكمل ابن سينا من بعده »

وقد اشتهر بتفسيره لكتب أرسطو لاسيما فيما يتعلق بالمنطق — كما أسلفنا القول — وهو يعد فى هذا المضمار من أعظم المفسرين . ولكن فضله لا يقف عند التفسير ولا عند التمهيد للنهضة الفلسفية فى الاسلام ، بل بما له من « أنظار مبتدعة وبحوث فى الحكمة العملية والعلمية عميقة سامية لم يتهيأ بعد للباحثين كل الوسائل لتفصيلها تفصيلا وافيا .. » .

ويرى كثيرون ان اهتمام « الفارابى » بالمنطق هذا الاهتمام العظيم ، قد أثر فى التفكير عند العرب ، وتقدم به خطوات ، فقد اعتبره آلة للفلسفة وأداة يمكن بواسطتها الوصول الى التفكير الصحيح . وقد قال فى هذا الشأن :

« وأقول : لما كانت الفلسفا انما تحصل بجودة التمييز ، وكانت جودة التمييز انما تحصل بقوة الذهن على ادراك الصواب ، وكانت قوة الذهن حاصلة لنا قبل جميع هذه . وقوة الذهن انما تحصل متى كانت لنا قوة بها نقف على الحق انه حق يقين فنعتقده ، وبها نقف على الباطل انه باطل يقين فنتجنبه ، ونقف على الباطل الشبيه بالحق فلا نغلط فيه ، ونقف على ما هو حق فى ذاته وقد أشبه بالباطل فلا نغلط فيه ولا نخدع. والصناعة التى بها نستفيد هذه القوة تسمى صناعة المنطق » .

ولقد أنصف « ابن صاعد » فى كتابه « طبقات الأمم » الفارابى ، فاعترف بانه بز فى صناعة المنطق جميع أهل الاسلام وأربى عليهم فى التحقق بها « فشرح غامضها وكشف سرها وقرب تناولها وجمع ما يحتاج اليه منها فى كتب صحيحة العبارة لطيفة الاشارة منبهة على ما أغفله الكندى

وغيره من صناعة التحليل وأنحاء التعليم ، وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمس وافراد وجوه الانتفاع بها ، وعرف طرق استعمالها وكيف تعرف صور القياس فى كل مادة منها ، فجاءت كتبه فى ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة » ٠

وله كتاب جدير بالذكر هو كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » وضع فيه منهبه الفلسفى كله مما يتعلق بآرائه فى الالهيات والنفس الانسانيه وقواها المتعددة المختلفة وفى الأخلاق والسياسة ٠

والفارابى مخلص للحقيقة محب لها ويدعو الى محبتها والاخلاص لها ولو خالفت مذهب أرسطو ، فقد جاء فى كتابه « ما ينبغى ان يقدم قبل تعلم الفلسفة » فى الفصل الذى يبحث فى « معرفة الحال التى يجب ان يكون عليها الرجل الذى يؤخذ عنه علم أرسطو ، فهى ان يكون فى نفسه قد تقدم وأصلح الأخلاق من نفسه الشهوانيـة كيما تكون شهوته للحق فقط لا للذة ، وأصلح مع ذلك قوة النفس الناطقة كيما يـكون ذا ارادة صحيحة ٠٠ وأما قياس أرسطو فينبغى ان لا تكون محبته له ، فى حد يحركه ذلك ان يختاره على الحق ٠٠ » ٠

ولقـد دفعت محبـة الفارابى للحق واخلاصـه للحقيقة الى أن يقول بابطال صناعة التنجيم ، فخالف الكثيرين من علماء عصره والذين أتـوا قبله وبعده ٠ وقد أبطل هذه الصناعة بحجج عقلية مشبعة بروح التهكم ، ووضع فى ذلك رسالة سماها : « النكت فيما يصـح وفيما لا يصح من أحكام النجوم » فبين فى هذه الرسالة فساد علم أحكام النجوم الذى يعزو كل ممكن وكل خارق الى فعل الكواكب وقراناتهـا « لأن الممكن متغير لايمكن معرفته معرفة يقينية ٠٠ » وفى رسالة أخرى بين « الفارابى » : انه من الخطأ الكبير ما يزعمه الزاعمـون من أن بعض الكواكب تجلب السعادة وان بعضها يجلب النحس ، وانتهى من هذا كله ــ كما يقول دى بور ــ « بأن هناك معرفة برهانية يقينية الى اكمال درجـات اليقين نجدها فى علم النجوم التعليمى ٠ أما دراسة خصائص الأفلاك وفعلهـا فى الأرض فلا نظفر منها الا بمعرفة ظنية ، ودعاوى المنجمين ونبوءاتهم لاتستحق منا الا الشك والارتياب ٠ » ٠

هذا وقد بلغت مؤلفات « الفارابى » ــ من الكثرة ما جعل المستشرق الألمانى « ستينشيدر » يخصص لها مجلدا ضخما ٠

ولكن لم يصل الينا من هذه المؤلفات الا أربعون رسالة ، منها اثنتان وثلاثون رسالة وصلت الينا فى أصلها العربى ، وست رسائل وصلت

الينا مترجمة الى العبرية ، ورسالتان وصلتا الينا مترجمتين الى اللاتينية (٥٣) ٠

وقد طبع نحو نصف مؤلفاته التى وصلت الينا فى أصلها العربى فى ليذن وحيدر آباد والقاهرة وبيروت وغيرها ، ولا يزال باقيها مخطوطا٠

ومن أهم ما وصل الينا من مؤلفاته الفلسفية التى يسجل فيها آراءه الخاصة :

« كتاب الواحدة والوحدة » و « كتاب الجوهر » و « كتاب الزمان » و « كتاب المكان » و « كتاب الخلاء » و « مقالة فى معانى العقل » طبعة ليدن سنة ١٨٩٠ وطبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ ، وقد طبع فى بيروت سنة ١٩٣٢ تحت عنوان « رسالة العقل » ـ ولعل هذا هو نفس الكتاب الذى يسميه بعض المترجمين للفارابى « كتاب العقل والمعقول ») ، و « رسالة فيما ينبغى ان يقدم قبل تعلم الفلسفة » و « عيون المسائل » و « فصوص الحكم » و « رسالة فى جواب مسائل سئل عنها » و « نكت أبى نصر الفارابى فيما يصح ولا يصح من أحكام النجوم » و « كتاب التنبيه على سبيل السعادة » و « كتاب تحصيل السعادة » و « رسالة فى اثبات المفارقات » ٠

ومن أهم ما وصل الينا من مصنفاته التى تتمثل فى شروح وتعليقات على مؤلفات أرسطو شروحه وتعليقاته على : ٠

« كتاب المقولات » (قاطيغورياس) ، و « كتاب القول الشارح » (القضايا والتعريف) و « كتاب أنالوطيقا الأولى والثانية » (تأليف القياس المنطقى) ، و « كتاب طوبيقا » (الجدل) و « كتاب سفسطيا » (السفسطة) ، و « كتاب ريطوريقا » (الخطابة) و « كتاب بوطيقا » أى الشعر (والكتب السابقة جميعا هى مباحث كتاب « الأورغانون » L'organon لأرسطو ، وهى المباحث التي يتألف منها علم المنطق بمعناه الواسع عند أرسطو) ، و « كتاب الأخلاق الى نيقوماخوس » و « كتاب العلم الطبيعى » و « كتاب الآثار العلوية » ، و « رسالة النفس والعالم » و « كتاب فى أغراض الحكيم فى كل مقالة من الكتاب الموسوم بالحروف » (يقصد كتاب الميتافيزيقا لأرسطو) ٠

ووصل الينا من مؤلفاته كتاب يوفق فيه بين آراء أفلاطون وأرسطو وهو « كتاب فى الجمع بين رأى الحكيمين أفلاطون الالنهى وأرسطوطاليس»٠

ووصلت الينا بعض مصنفات له يعلق فيها على غير كتب أرسطو وأفلاطون منها شرحه على « مقالة النفس » للاسكندر الافروديسى ، وتعليقه على كتاب « المجسطى » لبطليموس الفلكى ٠

ووصل الينـا من مؤلفاته فى شئون السـياسة والاجتماع وكتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » و « كتاب السياسات المدنية » ٠

ووصل الينا من مؤلفاته فى الموسيقى كتاب « صناعة علم الموسيقى » وهو يعد من أهم المراجع فى هذا الفن ٠

هذا بالاضافة الى الكتاب الذى نحن بصدده « احصاء العلوم » والذى يقول فيه « مونك » و « فارمر » ان هذا الكتاب يدل على انه « الفارابى » هو أول من وضع النواة لدوائر المعارف فى العالم ٠ وقد أيد هذا القول الأستاذ مصطفى عبد الررازق فقال : « فليس مجانبا للحق قول من يرى ان الفارابى هو أول من وضع دائرة معارف ، ولسنا نعرف من قبل الفارابى من قصد الى تدوين جملة المعارف الانسانيـــة فى زمنه موطأة مجملة ، يسهل تناولها على المتأدبين ٠٠ » ويقول فى التعريف بالكتاب القاضى صاعد فى كتابه « طبقات الأمم » : « كتاب شريف فى احصاء العلوم والتعريف بأغراضها ، لم يسبقه اليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء اليه وتقديم النظر فيه » ٠ وكان هذا الكتاب محل عناية المؤلفين والعلماء فى الغرب ، وقد ترك أبلغ الأثـر فى نظـريات تصنيف العلوم فى القرون الوسطى ٠

اقسام الكتاب

يحصى الفارابى أولا عناوين الفصول الخمسة التى يحتوى عليها « الاحصاء » ، ثم ينبه الى ما لكتابه من فوائد عامة لمحبى المعرفه : فالكتاب يعينهم على ان يعرفوا موضوع العلم الذى يريدون أن يتعلموه ، ويبصرهم بمنفعته والغاية منه ، ويمكنهم من أن يوازنوا بين العلوم ، ليتبينوا أفضلها وأوثقها وأتقنها ، وان يميزوا بين العالم الحقيقى والعالم المتفيهق الذى يدعى البصر بعلم تلك العلوم ، دون ان يضطلع به أو يكون على بينة منه ·

ويقسم الفارابى « احصاء العلوم » خمسة فصول : الفصل الأول فى علم اللسان وفروعه ـ من اللغة ، والنحو ، والصرف ، والشعر ، والكتابة ، والقراءة · وقد بحث الفارابى فى مقدمة هذا الفصل بحثا عاما فى معنى « القانون » و « القاعدة » الكلية · ثم بحث فى الأجزاء السبعة الكبرى التى يتألف منها « علم اللسان » عند جميع الشعوب : وهى علم الألفاظ المفردة ، وعلم الألفاظ المركبة ، وعلم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة ، وقوانينها عندما تكون مركبة ، وقوانين تصحيح الكتابة ، وقوانين تصحيح القراءة ، وقوانين تصحيح الأشعار · وظاهر ان بحث الفارابى هنا بحث علمى فى قواعد اللغة على العموم ، لا قواعد لغة بعينها ، وان كان يورد الأمثلة من اللغة العربية ·

ومن أقوى فصول الكتاب وأمتعها الفصل الذى عقده الفارابى فى علم المنطق · وهذا الفصل كله قد نقله « ابن طملوس » فى مقدمة كتاب « المدخل لصناعة المنطق » · ونقل « ابن أبى أصيبعه » قسما منه فى كتاب « عيون الأنباء » كما أشرنا فيما تقدم · وقد بين الفارابى فى هذا الفصل وجه الحاجة الى المنطق ومنفعته وضرورته لمن أقدم على الدراسات العلمية ، وأوضح موضوع المنطق ، وهو « الصناعة التى نستفيد منها قوة نقف بها على ما هو حق بيقين ، وما هو باطل بيقين » · وذكر وجوه الشبه والخلاف بين المنطق والنحو ، والقضايا المختلفة التى يستعملها المنطق : البرهانية ، والجدلية والسفسطائية ، والخطابية ، والشعرية · وأشار الى مختلف أبواب المنطق ، فى علاقاتها بهذه القضايا · وفقا لقانون « أرسطو » : وهى « المقولات » (قاطيغورياس) و « العبارة » (بارى أرمينياس) ، و « القياس » (أنولوطيقا الأولى) ، و « البرهان » (أنولوطيقا الثانية) ، و « المواضع الجدلية » (طوبيقا) ، و « الحكمة

المموهة » (سفسطيقا) ، و « الخطابة » (ريطوريقـــا) ، و « الشعر » (بوطيقا) ـ وتلك هي المواد التي يحتوى عليها هذا العلم الذى هو ألزم العلوم التمهيدية التى تسبق التعليم وأهمها ٠

والفصل الثالث فى « علم التعاليم » ، أى الرياضيات ، وينقســـم الى سبعة أجزاء عظمى : علم العدد ، وعلم الهندسة ، وعلم « المناظر » (أو علم البصريات) ، و « علم النجوم التعليمى » (أى علم الفلك) الذى يبحث فى الأجسام السماوية عن أشكالهـــا ومقادير أجرامها ، ونسب بعضها الى بعض ، وعن حركاتها بالقياس الى الأرض وما الى ذلك ، وعلم الموسيقى بأجزائه الكبرى ، و « علم الأثقال » الذى ينظر فى الأثقال من حيث يقدر بها وفى الآلات التى تستخدم فى رفع الأشياء الثقيلة ونقلها من مكان الى مكان ، و « علم الحيل » (الميكانيكا التطبيقية) ويعطى وجوه معرفة التدابير والطرق فى التلطف لايجاد العلوم الرياضية بالصنعة ، واظهارها بالفعل فى الأجسام الطبيعية والمحسوسة ٠

والفصل الرابع فى العلم الالهى (ما بعد الطبيعة) . والعلم الطبيعى (الفيزيقا) ٠ أما العلم الطبيعى فيبحث فى الأجسام الطبيعية أو الصناعية ، مميزا بين عللها الغائية والفاعلة وبين موادها وصورها ، وفى أعراض الأجسام ومراتب الأجسام الطبيعية (بسيطة أو مركبة) ٠ وينقسم العلم الطبيعى الى ثمانية أجزاء عظمى (ويشير الفارابى الى انها كلها تبحث فى كتب أرسطو عن « السماع الطبيعى » ، و « السماع والعالم » و « الكون والفساد » و « والآثار العلوية » ، و « كتاب النبات » و « كتاب الحيوان » و « كتاب النفس ») ٠

وهذه الأجزاء هى :

١ ـ ما تشترك فيه الأجسام الطبيعية كلها ٠

٢ ـ الأجسام البسيطة ٠

٣ ـ كون الأجسام الطبيعية وفسادها ٠

٤ ـ مبادىء الأعراض والانفعالات التى تخص « الاسطقسات » (العناصر) ٠

٥ ـ الأجسام المركبة من العناصر ٠

٦ ـ الأجسام المعدنية ٠

٧ ـ النبـــات ٠

٨ – الحيوان ٠

ويعرض الفارابى « للعلم الالهى » (أى ما بعد الطبيعة) ، ويشير الى انه يتابع « أرسطو » فى كتابه المسمى « ما بعد الطبيعة » ٠

وينقسم العلم الالهى الى ثلاثة أجزاء :

١ – جزء يفحص عن الموجودات والأشياء التى تعرض لها بما هى موجودات ٠

٢ – وجزء يفحص عن مبادىء البراهين فى العلوم النظرية الجزئية٠

٣ – وجزء يفحص عن الموجودات التى ليست باجسام ولا فى أجسام ، فيبرهن على انها موجودة ، وانها كثيرة ، وانها متفاضلة فى الكمال ، ثم يبرهن على « أنها على كثرتها ترتقى من عند أنقصها الى الأكمل فالأكمل ، الى أن تنتهى فى آخر ذلك الى كامل ما ، لا يمكن ان يكون شىء هو أكمل منه ، ولا يمكن ان يكون شىء هو أصل فى مثل مرتبة وجوده ، ولا نظير له ولا ضد ٠ والى أول لايمكن أن يكون قبله أول ، والى متقدم لايمكن ان يكون شىء أقدم منه ، والى موجود لايمكن ان يكون استفاد وجوده عن شىء أصلا ٠٠ وانه هو الواحد الأول الذى أفاد كل شىء سواه الوحدة ، وانه الحق الذى أفاد كل ذى حقيقة سواه الحقيقة ٠ ثم يبين ان هذا الذى هو بهذه الصفة هو الذى ينبغى ان يعتقد فيه انه هو الله – عز وجل وتقدست أسماؤه ٠٠ » ٠

والفصل الخامس فى العلم المدنى (علم الأخلاق وعلم السياسة) ، وعلم الفقه ، و « علم الكلام » ٠ ويعترف الفارابى انه قد تابع هنا آراء « افلاطون » فى كتاب « الجمهورية » وآراء « أرسطو » فى كتاب « السياسة » ٠

والعلم المدنى جزءان :

١ – جزء يشتمل على تعريف السعادة ، وعلى احصاء الأفعال والسير والأخلاق ، وتمييز الفاضل منها وغير الفاضل ٠

٢ – جزء يشتمل على وجه ترتيب الشيم والسير الفاضلة فى «المدن» والأمم ٠ وينبه الفارابى الى ضرورة الرياسة المدنية (فى المجتمع)، ويبين الشرائط التى ينبغى ان تتوافر فى « المدن » (فى الأمم والدول) لكى تدوم فاضلة ولا تستحيل الى غير الفاضلة ٠

وعلم الفقه هو العلم الذى يقتدر الانسان به على أن يستنبط تقدير شىء مما لم يصرح واضع الشريعة بتحديده على الأشياء التى صرح فيها

بالتحديد والتقدير . ولما كانت كل ملة تحتوى على معتقدات وأعمال ، فعلم الفقه جزءان :

١ ـ جزء في الآراء .

٢ ـ وجزء في الأفعال .

ويختتم الفارابى كتابه بعلم الكلام ، وهو عندنا من أحسن فصول الكتاب . والفارابى يعرف هذا العلم بأنه « ملكة يقتدر بها الانسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التى صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل » .

والذى يسترعى النظر هنا أن الفارابى يضع « علم الكلام » من جملة العلوم « العملية » ، بمعنى ان المقصود منه ليس هو حصول رأى أو اعتقاد يقينى فحسب ، بل حصول صحة رأى من أجل عمل . ويفرق الفارابى بين الفقيه والمتكلم تفرقة دقيقة : فالفقيه « يأخذ الآراء والأفعال التى صرح بها واضع الملة مسلمة » ، ويجعلها أصولا ، فيستنبط منها الاشياء اللازمة عنها والمتكلم ينصر الأشياء التى يستعملها الفقيه أصولا من غير أن يستنبط عنها أشياء أخرى » .

وينتهى فيلسوفنا الى تحليل بارع يبسط فيه « المتكلمين » ، ويصور وجهة نظرهم فى الدفاع عن الدين ، فيذكر أن فريقا منهم يرون ان ينصروا الملل بقولهم ان عقائدنا مأخوذة عن وحى الهى ، فلا ينبغى ان تخضع للنقد ، لأن فيها أسرارا الهية تضعف العقول البشرية عن ادراكها .

هدف الفارابى

من كتاب الاحصاء

اختلف الباحثون من شرقيين وغربيين ، على قصد الفارابى من كتاب « احصاء العلوم » ، فذهب بعضهم الى ان الكتاب أشبه بموسوعة ، أو « دائرة معارف » ، واعترض البعض الآخر على هذا الوصف .

الظاهر لنا ان الفارابى لم يقصد ان يكون « الاحصاء » دائرة معارف أو « موسوعة » بمعناها الدقيق المتعارف عليه الآن ، وانما قصد أن يكون كتابه مختصرا لعلوم زمانه ، ومرشدا موجزا لمن أراد الوقوف عليها أو التبحر فيها : فهو يعطى القارىء فكرة واضحة عامة عن موضوع كل علم ومنفعته النظرية والعملية ، فيؤدى الخدمة التى لا يستغنى عنها المثقف ، من المشاركة فى أهم العلوم فى عصره ، وهذا ما يصرح به الفارابى نفسه فى عبارة جلية ، اذ يقول : « قصدنا فى هذا الكتاب ان نحصى العلوم المشهورة علما علما ، ونعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها ، وأجزاء كل ماله منها من أجزاء ، وجمل ما فى كل واحد من أجزائه .. وينتفع بما فى هذا الكتاب الانسان اذا أراد أن يتعلم علما من هذه العلوم وينظر فيه ، علم على ماذا يقدم ، وفى ماذا ينظر ، وأى شىء سيفيد نظره ، وما غناء ذلك ، وأى فضيلة تنال به ليكون اقدامه على ما يقدم عليه من العلوم على معرفة وبصيرة لا على عمى وغرر . وبهذا الكتاب يقدر الانسان على ان يقايس بين العلوم ، فيعلم أيها أفضل ، وأيها أنفع ، وأيها أتقن .. وينتفع به أيضا فى تكشيف من ادعى البصر بعلم من هذه العلوم ، ولم يكن كذلك : فانه اذا طولب بالاخبار عن جملة ما فيه ، وباحصاء أجزائه ، ومجمل ما فى كل جزء منه ، فلم يضطلع به ، تبين كذب دعواه وتكشف تمويهه . وبه يتبين أيضا فيمن يحسن علما منها ، هل يحسن جمعه أو بعض أجزائه ، وكم مقدار ما يحسنه . وينتفع به المتأدب والمتفنن ، ومن أحب ان يتشبه بأهل العلم ، ليظن به أنه منهم » .

ومع ذلك فان الفارابى ـ بكتابه هذا الذى يشتمل على عدد معين من العلوم ـ قد وضع الحجر الأساسى الذى سيبنى عليه مؤلفو الموسوعات العربية ، كما سنرى عند بحثنا لأثر « احصاء العلوم » فى الشرق . ولابد للقارىء أن يلاحظ ان تأليف الكتاب قد جاء وفقا لترتيب عقلى معين

لم يصرح به الفارابى هنا ، وان يكن قد أوضحه فى أكثر من موضوع من مؤلفاته الأخرى ، فكأن ما راعاه الفارابى من الترتيب فى كتاب « الاحصاء » جاء على سبيل التطبيق العملى لنظريته فى « تقسيم العلوم » وترتيبها ·

أما نظرية الفارابى فى ترتيب العلوم فقد أجملها فى كتابه « التنبيه على سبيل السعادة » اذ قسم العلوم قسمين كبيرين :

١ ـ قسم تحصل به معرفة الموجودات التى ليس للانسان فعلها ، وهو العلوم النظرية ·

٢ ـ وقسم تحصل به معرفة الأشياء التى شأنها ان تفعل ، والقوة على فعل الجميل منها ، وهو العلوم العملية والفلسفية المدنية ·

والعلوم النظرية تشتمل على ثلاثة أصناف :

١ ـ علم التعاليم (أى العلم الرياضى) ·

٢ ـ والعلم الطبيعى ·

٣ ـ والعلم الالهى (أو علم ما بعد الطبيعة) ·

وكل واحد من هذه العلوم يشتمل على صنف من الموجودات التى شأنها ان تعلم فقط ·

أما العلوم العملية والفلسفة المدنية فهى صنفان :

١ ـ صنف يحصل به علم الأفعال الجميلة ، والأخلاق التى تصدر عنها الأفعال الجميلة ، والقدرة على أسبابها ، وهذه تسمى « الصناعة الخلقية » أو علم الأخلاق ·

٢ ـ وصنف يشتمل على معرفة الأمور التى تحصل الأشياء الجميلة لأهل المدن ، والقدرة على تحصيلها لهم ، وحفظها عليهم ، وهذه تسمى « الفلسفة السياسية » أو علم السياسة ·

فاذا نظرنا الآن فى كتاب « احصاء العلوم » وجدنا الفارابى نفسه يقسمه الى خمسة فصول تحتوى على ثمانية علوم ، وهى : علم اللسان ، وعلم المنطق ، وعلم التعاليم ، والعلم الطبيعى ، والعلم الالهى ، والعلم المدنى ، وعلم الفقه ، وعلم الكلام · واذا تأملنا هذا التقسيم نفسه وجدناه فى صميمه تطبيقا لنظرية الفارابى التى ذكرها فى كتاب « التنبيه على سبيل السعادة » : فقد قدم علم اللسان وفروعه ، وأعقبه بعلم المنطق · وتفسير ذلك ظاهر من كلامه ، لأن علم اللسان عند كل أمة أداة لتصحيح ألفاظها ، وتقويم عباراتها ، فوجب تقديمه على سائر العلوم · ثم ان علم

اللسان مما لا يستغنى عنه فى دراسة « أوائل صناعة المنطق » كما قال الفارابى فى بعض كتبه ، ولأن « موضوعات المنطق هى المعقولات من حيث تدل عليها الألفاظ ، والألفاظ من حيث هى دالة على المعقولات » كما قال فى كتاب « الاحصاء » ٠

وبعد ان فرغ الفارابى من علم اللسان ، عرض مباشرة لعلم المنطق، وقد قدمه على سائر العلوم لأنه « يعطى جملة القوانين التى شأنها ان تقوم العقل ، فتسدد الانسان نحو طريق الصواب » ٠ وبعبارة أخرى لأن قوانين المنطق قوانين عامة كلية لابد من مراعاتها فى أى علم لعصمة الأذهان من الزلل فى الأحكام ٠ واذن فتقدم المنطق على العلوم الأخرى هو عند الفارابى تقدم بالذات ، أو بالحيثية : لأن المنطق ، فى نظره ، « رئيس العلوم » وحكمة نافذة فيها ٠

وبعد ذلك قسم الفارابى العلوم قسمين كبيرين :

١ ـ علوم نظرية ، وهى التى تكلم عليها فى الفصلين الثالث والرابع ، وجعلها مشتملة على العلوم الرياضية بأنواعها وأجزائها ٠

٢ ـ وعلوم عملية ، وقد تكلم عليها فى الفصل الخامس ، وذكر منها العلم المدنى (أى الأخلاق السياسية) ، وأضاف اليه علم الفقه وعلم الكلام ٠

واذن فالمطابقة ظاهرة بين المذهب العام للفارابى فى ترتيب العلوم وبين الترتيب الذى اتبعه بالفعل فى كتاب « احصاء العلوم » ٠

★★★

أثر احصاء العلوم
فى الشرق والغرب

كتب الفارابى « احصاء العلوم » فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، فذاع الكتاب لدى العلماء والمؤلفين فى العالم الاسلامى ، وأصبح نواة لغيره من الموسوعات العلمية العربية ٠

وأول ما نذكر من تلك المؤلفات « رسائل اخوان الصفا » التى ظهرت فى منتصف القرن الرابع الهجرى وهى أشبه بموسوعة فى الفلسفة والعلوم ، وتحتوى على اثنتين وخمسين رسالة ، قسمها مؤلفوها أربعة

أقسام كبرى : رياضية تعليمية ، وطبيعية جسمانية ، ونفسانية عقلية ، والهية ناموسية ·

ويقول « اخوان الصفا » في الرسالة الأولى : « الفلسفة أولها محبة العلوم ، وأوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة الانسانيـة ، وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم · والعلوم الفلسفية أربعة أنواع : أولها الرياضيات ، والثاني المنطقيـات ، والثـالث العلوم الطبيعيات ، والرابع العلوم الالهيات ·· » ·

ونذكر في هذا الصدد أيضاً كتاب « مفاتيح العلوم » لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي (المتوفى في سـنة ٣٨٧ هـ ـ ٩٩٧ م) · والكتاب في مقالتين : الأولى في ستة أبواب ، وتحتوى على علوم الشريعة وما يتصـل بها من العلوم العربية (الفقه ، والكلام ، والنحو ، والكتابة ، والشعر ، والعروض ، والأخبار) · والثانية في تسعة أبواب ، وتتناول علوم العجم · من اليونانيين وغيرهم من الأمم (الفلسفة ، والمنطق ، والطب ، وعلم العدد ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى ، والحيل ، والكيمياء) · ويلاحظ ان أساس التقسيم في « مفاتيح العلوم » مخالف لأساسه في « احصاء العلوم » · ثم ان الخوارزمي قد أضاف علمي الطب والكيمياء الى العلوم التي ذكرها الفارابي ·

ومما يدخل في هذا الباب كتاب « الشفاء » لابن سـينا (المتوفى سنة ٤٢٨ هـ ـ ١٠٧٣ م) · وهذا الكتاب المشهور أشبه بموسـوعة للعلوم التي أوردها الفارابي · ولابن سينا أيضا رسالة في « أقسـام العلوم العقلية » · ويبدو لنا ان التقسيم الذى اتبعه الفارابي في كتاب « الاحصاء » قد أصبح بعد أساسا لتقسيم ابن سينا الذى بسطه في هذه الرسالة ، وجعل فيه « الحكمة » قسمين : قسم نظرى مجرد ، وقسـم عملي · فالقسم النظرى هو الذى يكون المقصود فيه هو حصول الاعتقاد اليقيني بحال الموجودات التي يكون وجودها غير متعلق بفعل الانسان ، كعلم التوحيد ، وعلم الهيئة · والقسم العملي هو الذى تكون الغاية فيه حصول صحة رأى من أمر يحصل بقدرة العلم النظرى هي « الحق » ، وغاية العملي هي « الخير » · والحكمة النظرية ، بدورها ، تنقسم عند ابن سينا ثلاثة أقسام : العلم الأسفل ، ويسمى العلم الطبيعي ، والعلم الأوسط ، ويسمى العلم الرياضي ، والعلم الأعلى ، ويسمى العلم الالهي · والحكمة العملية تنقسم كذلك أقساما ثلاثة : علم الأخلاق ، ويعرف به كيف يكون تدبير الانسان لمنزله ، وعلم سياسة المدنيـة ، ويعرف به أصناف السياسات والرياسات والاجتماعات في المدينة الفاضلة والفاسدة ·

وقد يلاحظ القارىء بين هذا التقسيم الذى بسطه ابن سينا ، ومن التقسيم الذى ذكرناه للفارابى تطابقا بينا من حيث الجوهر والأساس ، وان اختلفت الصيغ والعبارات ٠

أما رسالة « ارشاد القاصد الى أسنى المقاصد » لشمس الدين محمد بن ابراهيم بن ساعد السنجارى الاكفانى (المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ـ ١٣٤٨ م) ، فقد ذكرت طائفة كبيرة من العلوم ٠ ويظهر أن مؤلفها استقى فيها من « احصاء العلوم » شيئا غير قليل ٠ ونظرة فى مقدمة هذه الرسالة تجعلنا نتبين انها اتفقت فى أكثر من موضع مع مقدمة « الاحصاء » اتفاقا لايقتصر على المعنى ، بل يتناول العبارات بنصها ٠

ومما هو معلوم للباحثين ان ابن خلدون (المتوفى سنة ٧٨٤ هـ ـ ١٣٨٢ م) قد عقد فى « مقدمته » المشهورة لكتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » فصلا مستفيضا فى العلوم وأنواعها وسائر طرقها وأنحائها ، فتكلم على طائفة كبيرة من علوم الحضارة فى زمانه ، كعلوم القرآن ، والفقه ، والكلام ، والتصوف ، والرياضة ، والمنطق ، والطبيعيات ؛ والطب ، والالهيات ، والسحر ، والطلسمات ٠٠٠ الخ ٠ ويبدو أن أساس لقسيم العلوم عند ابن خلدون لايختلف كثيرا عن أساسه عند الخوارزمى فى « مفاتيح العلوم » ٠

ولعل أكمل الموسوعات العلمية فى اللغة العربية كتاب « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » لطاشكبرى زادة (المتوفى سنة ٩٦٨ هـ ـ ١٥٦٠ م) ٠

وفى هذا الكتاب أفاض المؤلف فى الكلام على العلوم وموضوعاتها وأعلامها المبرزين فيها ٠ وهو قد قسم العلوم سبعة أقسام ، هى : البيان ، والفصاحة ، والمنطق ، والفلسفة النظرية ، والفلسفة العملية (العلم الايجابى النظرى والعلم الايجابى العملى) ٠ ونلاحظ ان هذا الكتاب بدوره قد استقى من رسالة « ارشاد القاصد » وغيرها ، وزاد عليها فى بعض المواضع ، ونقل الكثير من تعريفاتها للعلوم بنصها فى مواضع أخرى ٠

وبعد ذلك بنحو قرن من الزمان ظهر كتاب « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » لمصطفى عبد الله ، الشهير بحاجى خليفة ، وبكاتب جلبى (المتوفى سنة ١٠٦٨ هـ ـ ١٦٥٨ م) ٠ وهذا الكتاب أشبه بمعجم كبير فى عناوين الكتب العربية والتركية والفارسية التى تيسر للمؤلف ان يقف عليها ٠ وقد لخص حاجى خليفة فى مقدمته ل (كشف الظنون) بعض ما ورد فى المقدمة الخلدونية وفى (مفتاح السعادة)

وغيرهما ، وقد ســلك فى ذلك مسلك طاشكبرى زادة ، وان كان قد تعرض له بالنقد حينا وبالنقل عنه وبالزيادة عليه حينا آخر • وقد تكلم حاجى خليفة فى المقدمة أيضاً عن ماهية العلم وموضوعه وغايته وتقسيمه ، وعن منشأ العلوم والكتب فى البلاد الشرقية ، وعن مسائل أخرى متصلة بتاريخ المعارف واللغة العربية وآدابها • وقد ترجمت هذه المقدمة كلها فى « انسيكلوبيديا » ، « فون همر » الألمانيــة التى طبعت فى مدينــة « ليبزج » سنة ١٨٠٤ •

وينبغى ان نشير أخيرا الى كتاب « أبجد العلوم » لصديق حسن خان ملك بهوبال الهند (المتوفى سنة ٣٠٧ هـ ـــ ١٨٩٨ م) • وقد نقل هذا المصنف عمن سبقوه فى هذا الفن : كالألفانى ، وابن خلدون وغيرهما •

وما دمنا بصدد هذا البحث فلا بأس من أن نذكر كتاب « كشاف اصطلاحات الفنون » للمولوى التهانوى الهندى ، وقد جاء فى مقدمة الكتاب بيان عن العلوم المدونة ، مع ذكر موضوعاتها • ونلاحظ هنا أيضا أن المصنف قد أخذ كثيرا من التعريفات والشروح عمن ســبقوه كصاحب « كشف الظنون » ، وصاحب « ارشــاد القاصد » وصــاحب « مفتاح السعادة » ـ، وغيرهم •

وقد رأينا أن هؤلاء جميعا قد تأثروا بكتاب « احصــاء العــلوم » للفارابى • ولا شك أن الفارابى هو السابق الى الكتابة فى تقسيم العلوم وترتيبها ، وهو أيضا واضع الحجر الأساسى لبناء موســوعات العلوم فى اللغة العربية واللغات الشرقية •

ولم يقتصر أثر « احصاء العلوم » على الحياة العقلية فى العـــالم الاسلامى أو العالم العربى ، بل امتد الى المؤلفين والمصنفين من أهل القرون الوسطى فى العالم الغربى أيضا • والظاهر ان الكتاب أصبح فى المدارس المسيحية ، كما كان فى المدارس الاسلامية ، من المؤلفات التى « لايستغنى عنها » ، على الرغم من ذيوع كتاب المستشرق الاسبانى « جند سالينوس » (ابان القرن الثانى عشر) فى « تقسيم الفلسفة » •

وخلاصة القول انه ليس ثمة شك فيما كان لكتاب « احصاء العلوم» من اعتبار فى نظر المتقدمين ، ولا فى مبلغ ما أحدث من أثر عند المتأخرين من شرقيين وغربيين •

القانون المسعودي في الحياة والنجوم

أبو الريحان البيروني

١٠٣٠ م

● للعرب نظريات مبتكرة لم يسبقهم اليها انسان ، بعضها ظل مخلدا باسمهم على مر السنين والأعوام ، وبعضها اقتبسه علماء الغرب بعد ذلك بعدة قرون فصار منسوبا اليهم دون أصحابه الشرعيين · ويرجع السبب فى هذا اللبس الى العدد الهائل من المخطوطات العربية التى تحتاج الى دراسة شاملة ومقارنة علمية بالنظريات الحديثـــة ، وندرة الخبراء العرب الذين تخصصوا فى هذا النوع من الدراسات ·· أما المستشرقون الأجانب ، فعذرهم عدم الالمام الكافى باللغة العربية ، ناهيك عن اللغـة العلمية والاصطلاحات الخاصة التى استخدمها علماء العرب فى القـرون الوسطى ـ هذا بالاضافة الى صعوبة قراءة المخطوطات العربية والأخطاء التى وقع فيها الناســـخون القدماء ، وأكثرهم غير ذى دراية بمـــا يقوم بنسخه ·

وعلماء العرب الذين بزغت أسماؤهم فى القرون الوسطى ، وأدلوا بقسط وافر فى تقدم العلوم ، هم فى الحقيقة مجموعة ضخمة ، احتل منهم الكثيرون مراكز الصدارة ومن بينهم العالم أبو الريحان البيرونى ·

وقبل ان نخوض فى تراث البيرونى العلمى ينبغى لنـــا ان نزيح الستار عن الدور الكبير الذى أسدته العناية الالهية للحضارة الاسلامية فنجد جورج سارتون أكبر مؤرخ لتاريخ العلم فى العصر الحديث يقول فى كتابه العظيم « مقدمة لتاريخ العلم » : « عندما أمسى الغرب مستعدا استعدادا كافيا للشعور بالحاجة الى معرفة أعمق ، وعندما أراد آخر الأمر ان يجدد صلاته بالفكر القديم ، التفت ، لا الى المصادر الاغريقية ، ولكن الى المصادر العربية » ·

أما بريفو فى كتابه « تكوين الانسانية » فيقول : « العلم هو أجل خدمة أسدتها الحضارة العربية الى العالم الحديث ، فالاغريق قد نظموا ، وعمموا ، ووضعوا النظريات ، ولكن روح البحث ، وتركيم (٥٤) المعرفة اليقينية ، وطرائق العلم الدقيقة ، والملاحظة الدائبة المتطاولة كانت غريبة

عن المزاج الاغريقى ، وانما كان العرب هم أصحاب الفضل فى تعريف أوربا بهذا كله ، وبكلمة ، فان العلم الأوربى مدين بوجوده للعرب » ٠

وقال نيكلسون (٥٥) : « ٠٠٠ وما المكتشفات اليوم لتحسب شيئا مذكورا ازاء ما نحن مدينون به للرواد العرب الذين كانوا مشعلا وضاء فى القرون الوسطى المظلمة ولاسيما فى أوربا ٠٠ » ٠

وقال دى فو : « ٠٠٠ ان الميراث الذى تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام به ٠ أما العرب فقد أتقنوه وعملوا على تحسينه وانمائه حتى سلموه الى العصور الحديثة ٠٠٠ » ويذهب « سيديو » الى ان العرب هم فى واقع الأمر أساتذة أوربا فى جميع فروع المعرفة ٠

وقد يقول قائل : ان المعارف القديمة لاتهمنا ، وليس فيها ما يلائم العصر الحاضر فى شتى ميادين المعرفة ، فالقدماء العرب ومن قبلهم اليونان لم يقدموا صورة عن الكون ، ولم تكن آراؤهم فى بعض نواحى المعرفة ناضجة ٠ وفى كل يوم نشهد تحولا وانقلابا فى الفكر والعلم ٠ اذن ما هى ميزة تراث الأقدمين حتى توجه اليه العناية والاهتمام ؟ ٠

وفى هذا مغالطة ليس بعدها مغالطة : فالتراث الذى خلفه الأقدمون ، والانقلابات التى تتابعت ، هى التى أوصلت الانسان الى ما وصل اليه ٠ وجهود فرد أو جماعة فى ميادين المعرفة تمهد السبيل لظهور جهود جديدة فى أفراد أو جماعات أخرى ٠ ولولا ذلك لما تقدم الانسان ولما تطورت المدنيات . ذلك لأن الفكر الانسانى يجب ان ينظر اليه ككائن ينمو ويتطور ، فأجزاء منه تقوم بأدوار معينة أو أوقات خاصة تمهد لأدوار أخرى معينة ٠

وعلى هذا يمكن القول : لولا جهود العرب لبدأت النهضة الأوربية فى القرن الرابع عشر من النقطة التى بدأ منها العرب نهضتهم العلمية فى القرن الثامن للميلاد ٠

★★★

البيرونى فى عصره

هو أبو الريحـان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى ، الرياضى الفلكى ، الجغرافى ، المؤرخ ، وهو مؤلف عربى وان كان من أصل فارسى· ولد فى (ذى الحجة سنة ٣٦٢ هـ ـ سبتمبر سنة ٩٧٣ م) بضاحيـة من ضواحى خوارزم ، ودرس فى استيعاب وتفصيل الرياضيات والفلك والطب والتقاويم ، والتاريخ · وكان متصلا بالشيخ الرئيس ابن سينا ، وكانت بينهما مراسلات ، قيل انها ذات أثر فى حياة البيرونى العلمية ، وبالرغم من انه كان على صلة قرابة بابن سينا والفارابى الا أنه فى نزعته العلميـة كان يعد حقـا تلميذا للكندى والمسعودى ، ويقول المستشرق الألمانى « سخاو » : « البيرونى أعظم عقلية عرفها التاريخ » ، ولا ريب ، فالبيرونى صاحب اليد الطولى فى الرياضيات والنجوم والتاريخ ، وفضلا عن ذلك كان لغويا أديبا · وسمى البيرونى بلغة أهل خوارزم ، لأنهـم كانوا يسمون الغريب بيرونى ، وذلك لأن اقامته بخوارزم كانت قليلة ، اذ كان لايقيم بها الا وهو على سفر ، فلما طالت غيبتـه عدوه غريبـا ، وأطلقوا عليـه لقب « بيرونى » ويقول السمعانى فى اللباب : « سمى بذلك لانه كان يسكن بظاهر مدينة خوارزم وكان هذا الجزء من المدينة خاصا بالغرباء ، واسمه بيرون ، فنسب اليه » · وقيل انما لقب بالبيرونى نسبة الى بلده « بيرون » من بلاد الهنـد ، يقال انه نشـأ بها ، أو أقام بها مدة طويلة ، فعرف بأنه من أهلها ، الراجح من أقوال المؤرخين انه بدأ حياته فى خوارزم ، ثم انتقل منها الى جرجان ، وأقام فيها مدة ، ثم ارتحل الى « كوركانج » شمالى خوارزم ، وانه كان على جـانب كبير من الدهـاء وسعة الحيلة ، والذكاء الخارق ، فاستطاع أن يتقرب الى ملوك خوارزم ، وان تكون له الحظوة عندهم والمكانة الاثيرة · ولما استولى السلطان محمود الغزنوى على ممتلكات آخر ملوك الدولة الخوارزمشـاهية الأولى انتقل أبو الريحان الى بلاط محمود الغزنوى ، ويقول ياقوت : انه أقام بمدينة غزنه أيام السلطان محمود الغزنوى ، الذى عرف بحبـه الشديد للعلم وتكريم العلماء ·

وكان أبو الريحان معروفا بسعة الاطلاع ، فكان لايرى الا مكبا على تحصيل العلوم ، عاكفا على تصنيف الكتب ، مع الاحاطة التامة بما فيها ، فلا يفـارق يـده القلم ، ولا عينه النظر ، ولا عقله التفكير الا فى يومى

النيروز والمهرجان ، لاعداد ما تمس اليه حاجته من زاد ومتاع ، ولذلك قيل : انه قضى معظم حياته فى كشف قناع المشكلات · وحسبك دليلا على مقدار تشبع هذا العالم النادر المثال بحب العلم ما يرويه ياقوت عن النيسابورى من أن قاضيا من أصحاب أبو الريحان قال :

دخلت على أبو الريحان وهو يجود بنفسه وقد حشرج نفسه وضاق به صدره ، فقال لى فى تلك الحال :

كيف قلت لى يوما حساب الجدات الفاسدة ؟

فقلت له اشفاقا عليه : أفى هذه الحالة ؟

قال لى : يا هذا ، أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ، ألا يكون خيرا من أن أخليها وأنا جاهل بها ؟

· فاعدت ذلك عليه ، وحفظه ، وعلمنى ما وعد ، وخرجت من عنده وأنا فى الطريق فسمعت الصراخ (٥٦) ·

ومن كانت هذه حاله مع العلم فانه ولا شك لا يمارسه ليتقرب به الى الملوك ولا ليكتسب به الجاه عند الناس ، وهكذا كان أبو الريحان مستغنيا عن الملوك وما عندهم من جهة ، غير مبال بأن يفوز بالحمد من سواد الناس ، أو يشتهر عندهم بالعلم من جهة أخرى ·

كان حب الاطلاع والعلم والاخلاص فى طلبه غريزة من غرائز علمائنا السـابقين · فأحب شىء لدى العالم منهم ألا يودع الدنيـا ألا وهو يقرر مسألة من مسائله ، ولذلك كان البيرونى يتمتع بمنزلة علمية سامية ، حتى قيل ان شمس المعالى قابوس بن وشـمكير (٥٧) أراد أن يستأثر بصحبة أبو الريحـان · على ان تكون له الكلمة النـافذة فى ملكـه الواسع ، فأبى البيرونى ذلك فى أول الأمر ، وحينما سـمحت نفسـه بذلك بالغ شمس المعـالى فى توقيره واحترامه ، فأسـكنه معـه فى قصره ، وكان يستشـيره فى كل ما يعـرض له من أمـور مهمة ، وفيما يسنح له من أمر السـماء والنجوم ، لأنه كان أكبـر عالم فى الفلك فى عصره ، وقـد حـدث أن رسـولا جاء من أقصى بـلاد الترك الى غزنة ، فحدث الحاضرين فى مجلس السلطـان ، ومن بينهـم البيرونى عما شاهده وراء البحر نحو القطب الشمالى من دوران الشمس عليه وهى ظاهرة فى أثناء دورانها فوق الأرض · ولما كان لهذه المسألة أثر فى اختلاف مواقيت الصلاة أسرع السلطان ، وكان معروفا بالتشدد فى الدين فى رمى الرسول بالالحاد · وكان ممن حضروا هذا المجلس أبو نصر ابن مشكان وكان عالما فاضلا فقال : ان مثل هذا الرسول لايحدث الا عما

شاهده وارتآه بعينه ، وتلا قوله تعالى : « وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » • ولما سئل أبو الريحان قرر وجه الحق فيما قاله الرسول على طريق الاقناع ، وسنرى فيما بعد أن أبا الريحان قد وضع الكتاب الذى نحن بصدده فى تقرير هذه المسألة • وكانت اقامته بغزنه من الأسباب التى ساعدته فى القيام بعدة رحلات علمية الى الديار الهندية المفتوحة • ولكى يتمكن من دراسة بلاد الهند من حيث تاريخها وثقافتها وأديانها ، تعلم اللغة السنسكريتية على بعض العلماء الوطنيين ، ففتحت له هذه المعرفة أبواب الثقافة الهندية من الناحيتين العلمية والدينية ، حتى اذا كانت سنة ١٠١٧ م ، شرع فى تأليف كتابه المشهور عن الهند ، الذى يعد صورة كاملة عن عالم ثقافى غريب ، ويقول (بروكلمان) المستشرق الألماني الكبير : ان هذا الكتاب يعد نسيج وحده فى الأدب العربى ، وقد أدى للدراسات الأوربية خدمة جلى • ولم تكن مدارسته للعلوم والتأليف مقصورة على الفلك والرياضيات ، بل انه تناول الآداب والتاريخ ، واختص فى الفن الأخير بتدوين أخبار الامم الشرقية عامة والأمة الهندية خاصة ، فقد استقصى حوادث الهند وأخبارها وأســـاطيرها ، ووصف عاداتهـا وأخلاقها وأزياءها فى افاضة عجيبة ، ولهذا انعقد اجماع النقاد على أن تواليفه فى التاريخ من خير المراجع ، لاستطلاع أخبار الشعوب الشرقية ، وحوادثها وأساليب معيشتها والمستشرقون مجمعون على انه كان أكبر عالم فى العالم الاسلامى وأكثر المفكرين الاسلاميين ابداعا • واذا كان عصر البيرونى حافلا بعدد كبير من العلماء فانه هو ومعاصره ابن سينا ســـبقا غيرهما فى ميادين العلم والمعرفة سبقا عظيما ، فأبن سينا لم يكن خلفا عظيما لأبقراط وجالينوس فى الطب فحسب ، بل كان فيلسوفا كبيرا جمع بين أفكار ارسطو والأفلاطونية الحديثة ، وضمنها علوم المسلمين ، وأما البيرونى فقــد كان رحالة ، وجغرافيـــا ومؤرخا ، ورياضيا وعالما طبيعيا وفلكيا • وفضلا عن ذلك فقد كانت له مهارة فائقة فى لغات كثيرة ، كان يتكلم بلهجة خوارزم مسقط رأسه ، وكان يجيد العربية والفارسية كل الاجادة ، هذا الى المامه باللغات السنسكريتية واليونانية والعبرية والسريانية • وأما معرفته بالأدب العربى وبخاصة الأدب الجاهلى فقد كانت معرفة ألفة وممارسة • واذا كان ابن سينا يمثل الروح العلمى الفلسفى فى جمع الأفكار ووضعها على شكل نظريات أو أحكام عامة ــ فان البيرونى يمثل روح الناقد الجرىء ، فقد كان ذا رغبة قوية فى نقد الأمور ، جريئا فى ابداء الرأى ، ولاريب فى ان شجاعته الفكرية ، وحبه للاطلاع العلمى ، وميله الشديد الى الحقيقة والتســامح والاخــلاص ــ كانت من الصفات النادرة فى القرون الوسطى • والبيرونى فى الحقيقة مدين لمن أتاحوا له فرص البحث من أمراء خوارزم وملوك الدولة الغزنوية • وقد استغل هذه

الفرصة خير استغلال · فتفرغ للبحث فى النجوم · ومن الأمراء الذين حبوه برعايتهم الامير قابوس بن وشمكير أمير جرجان ، وقد أشرنا اليه من قبل ، وقد عبر البيرونى عن وفائه لهذا الأمير المحب للعلماء ، فأهدى اليه بعبارات تفيض بالشعور الفياض ، والاعتراف بالجميل — مؤلفــه الأول من مؤلفاته الكبرى المعروف بالآثار الباقية عن القرون الخالية فى الفلك والنجوم ، وكان قد وضع هذا الكتاب فى أثناء اقامته فى بلاطه · ولما توفى السلطان محمود الغزنوى وتولى بعده ابنه السلطان مسعود ، ورث أباه فى حبه للعلماء والميل الى علم النجوم بصفة خاصة · وكان من المسائل الفلكية التى شغلت الأذهان فى ذلك الوقت مسألة اختلاف مقادير الليل والنهار على الأرض ، فعرض السلطان مسعود هذه المسألة على أبى الريحان ، ويقول ياقوت : ان أبا الريحان قال للسلطان مسعود : « أنت المتفرد اليــوم بامتلاك الخافقين ، والمستحق بالحقيقــة اسم ملك الأرض ، فأخلق بهذه المرتبة ايثار الاطلاع على مجارى الأمور ، وتصاريف أحوال الليل والنهار ، ومقدارها فى عامر الأرض وغامرها » ثم صنف له كتابا فى موضوع اختلاف الليل والنهار على منهج جديد ، يبعد كثيرا عن مصطلحات المنجمين فى ذلك العهد ، وكان السلطان يفهم العربية ، فسهل وقوفه عليه ، ومن أجل ذلك أجزل فى الاحسان الى أبى الريحان ·

ويقال ان البيرونى بعد أن تنقل كثيرا فى بلاد الهند ، وبعد اقامته الطويلة بها — ألقت به عصا التسيار الى خوارزم مرة أخرى ، ولم تعرف سنة وفاته بالدقة · وقيل انه توفى فى سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٤٨ م · ويقول ياقوت انه استمر يقيم بغزنة حتى مات سنة ٤٠٣ هـ تقريبــا ، وقد بلغ من العمر سنا عالية ، ويصفه بأنه كان حسن المحاضرة ، طيب العشرة ، عفيفا فى أفعاله ، لم يأت الزمان بمثله علما وفهما ·

تراث البيرونى العلمى

عرف معاصرو البيرونى فضله ، وقدروا سبقه فى مختلف العلوم حق قدره ، فذاعت شهرته فى حياته ، وصار يعرف بين علمـاء العصر باللقب الذى انفرد به وهو « الأسـتاذ » ، كمـا كان معاصره وقرينه فى الشهرة العلمية ابن سينا يعرف بلقب « الرئيس » ، وهما لقبان اذا أطلقا من غير اضافة كانا كافيين للدلالة على شخصى البيرونى وابن سينا كدلالة الأسماء سواء بسواء · وكما كان البيرونى يعرف فى الشرق بلقب الأستاذ كان يعرف لدى الغربيين فى القـرون الوسطى باللقب نفسـه مضـافا الى اسـمه محـرفا فهـو عندهم « الأسـتاذ أليبورون » Master Aliporon كما نجده فى الكتب اللاتينية لذلك العهد ·

وعالم مثل أبى الريحان فى سعة آفاقه وتعدد مناحيه يصعب الالمام بما أحرزه العلم على يده من تقدم وما حقق فى مختلف الميادين من سبق علمى ، على انه لا بأس باشارات قليلة تدل على ما وراءها من كنـوز خبيئة فى مؤلفات البيرونى ــ ما نشر منها وما لايزال ينتظر النشر ــ والحق ما قاله المستشرق ساخاو ــ ناشر كتب البيرونى فى القرن الماضى ــ من ان تقدير أبى الريحان حق قدره والاعتراف له بكل فضله يحتاج الى عمل أجيال من الباحثين ينكبون على تراثه العلمى بحثا ودراسة وتحقيقا·

بعد ان يعدد ياقوت بعض كتب البيرونى يقول : « واما سائر كتبه فى علوم النجوم والهيئة والمنطق والحكمة فانهـا تفوق الحصر ، رأيت فهرسها فى وقف الجامع ب (مرو) فى نحو الستين ورقة بخط مكتنز »· ويقدر الدكتور حسن ابراهيم حسن عدد مؤلفاته ب (١٠٠) مائة مؤلف ، والأستاذ قدرى طوقان ب (١٢٠) عشرين ومائة مؤلف نقـل بعضها الى اللغات اللاتينية والانجليزية والفرنسية والألمانية ·

وسطر العالم الألمانى « سخاو » فى مقدمته لكتاب البيرونى الموسوم ب (الآثار الباقية) العشرات من مؤلفـاته ومقالاته ورسـائله · وقدر (جاك بوالو الدومنكى) عدد مؤلفاته بين موجـود ومنقود وبين مطبوع ومخطوط ب (١٨٠) مؤلفا · وعلى رأى الأستاذ أحمد سـعيد الدمرداش (١٨٣) كتابا ضاع الكثير منها والباقى موزع فى مكتبات العالم · وفيما يلى أبرز مؤلفاته :

● الآثار الباقية عن القرون الماضية :

وهو أول كتاب وضعه عندما كان فى بلاط جرجان وأهداه الى أميرها قابوس ســـــنة ١٠٠ م · وهو يبحث عن التقاويم والشهور عند مختلف الأمم · ويتخلل ذلك بحوث رياضية وطبيعية وفلكية عديدة · كما يحوى معلومات تاريخيـــــة عن ملوك آشـــــور وبابل والكلدان والقبط والروم واليونان · وعنى « سخاو » بنشر نص هذا الكتاب وطبعه فى (ليبزك) عام ١٨٧٨ · كما ترجمه الى الانجليزية ونشرة فى لندن سنة ١٨٧٩ وطبع طبعة جديدة مع شروح سنة ١٩٢٣ ·

● القانون المسعودى :

والذى نحن بصدده فى هذا الفصل ، وهو مصنف ضخم يبحث فى علم الفلك والهندسة والجغرافيا · طبعته مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن بالهند فى ثلاثة أجزاء ســـــنوات ١٩٥٤ ، ـ ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ·

● تحقيق ما للهند من مقولة معقولة فى العقل أو مرذولة :

ويحتوى على ٨٠ بابا ، تناول فيه أحوال الهند وأعيادها وتقاويمها وقوانينها وسكانها ، وذكر معتقداتهم بالله والموجودات العقلية والحسية وغيرها · نشر فى لندن سنة ١٨٨٧ ·

● التفهيم لاوائل صناعة التنجيم :

ألفـــه فى غزنه ، بالعربيـــة والفارسية ســـنة ١٠٢٩ م على طريقة السؤال والجواب فى الفلك والرياضـــــيات وقدمه لريحانة بنت الحسن الخوارزمية · نشره « رمزى رايت » مع ترجمة انحليزية فى لندن سنة ١٩٢٤ عن مخطوط محفوظ فى المتحف البريطانى ·

● الصيدلة :

ترجمه فى الهند الى الفارسية أبو بكر بن عثمان الأصغر الكاسانى عـــــام ١٢١١ م استقصى فيه ماهيـــات الأدوية ، وأسماءها واختـــلاف آراء المتقدمين وما تكلم كل واحد من الأطباء وغيرهم فيه ، وقد رتبه على ظروف المعجم · نشره مع ترجمة مقدمته فى برلين عام ١٩٣٢ ماكس مايرهوف وقام بتحقيقه المستشرق السوفيتى الكيميائى عبد الله كاديموف من كلية الدراسات الشرقية بجامعة البيرونى بطشقند · وقد أطلق عليها الروس اسم البيرونى تمجيدا له ·

● الجماهر فى معرفة الجواهر :

ألفه للملك مودود بن مسعود وهو يبحث فى علم الجيولوجيــا والمعادن والأحجار الكريمة ، قام بتحقيقه المستشرق السوفيتى كرمكوف كما طبعته جمعية دائرة المعارف العثمانية سنة ١٩٣٦ م

● تحديد نهايات الأماكن :

يحوى معلومات دقيقة فى علم الجيولوجيا ، توجد منه نسخة مكتوبة بخط المؤلف فى مكتبة استنبول ، وقد طبع النص الكامل للكتــاب سنة ١٩٦٢ فى أنقرة ٠٠ وقام المستشرق السوفيتي د٠ بوكاكوف بتحقيقه ٠

● الفلسفة الهندية :

ذكر فيه أحوال الهند ، واعتقادهم فى الله وفى الموجودات العقلية والحسية وفى سبب الفعــل وتعلق النفس بالمادة وغير ذلك من الأمور الفلسفية ٠ راجعه وقدم له د ٠ عبد الحليم محمود ٠

● استخراج الأوتار فى الدائرة :

صنفها فى رجب سنة ٤١٨ هـ ، وتعود كتــابة النسخة الموجودة بحيدر آباد الدكن الى سنة ٦٣١ هـ ٠

● رسائل البيرونى :

طبعت بمطبعة دائرة المعارف العثمانيــة بحيدر آباد الدكن سـنة ١٩٤٨ هـ وتتكون من أربع رســائل فى الرياضــيات ، وعلى الأخص الهندسة ، وهى : ١ ــ استخراج الأوتار فى الدائرة ٢ ــ افراد المقال فى أمر الظلال ٣ ــ تمهيد المستقر لمعنى الممر ٤ ــ راشيكات الهند ٠

ومن مؤلفاته الأخرى « مقالة فى النسب » ويتضمن خلاصة أبحاثه فى الوزن النوعى و « الأســطرلاب » (٥٨) وقد وردت فيــه نظــرية لاستخراج محيط الدائرة ، و « تقاســيم الاقاليم » الذى كتبــه بخطه سنة ٤٢٢ هـ عندما كان بغزنه ٠ وله مؤلفات عديدة غيرها ٠

وفق البيرونى فى تقرير بعض الآراء العلمية ، التى تشهد بعقليته الجبارة فى ميدان البحث ، والكشف العلمى الدقيق ، انه لم يكن ناقلا لآراء السابقين من علماء اليونان وغيرهم فحسب ، بل كان محققا مصححا لآراء علماء اليونان وغيرهم ، وكان المفكرون من العرب فى زمانه يؤمنون برأى الاغريق فى الجاذبية ، الذى يقول : « ان الأجسام الثقيلة مجذوبة الى معدنها من مركز الأرض ، والأجسام الروحانية مجذوبة الى أصلها فى السماء » ٠

ولكن البيرونى يشك فى هذا الرأى ، ويوجه الى ابن سينا سؤاله ، الذى يدل على ميله الى القول : بأن الأجســـام كلها مجذوبة الى مركز الكرة الأرضيّة ، وذلك حين يقول : ما الصحيح من هذين الرأيين ؟ الرأى الذى يقول : ان الماء والأرض يتحركان الى المركز ، والهواء والنار يتحركان من المركز ، أو الرأى الذى يقول : ان جميع الأشياء تتحرك نحو المركز ، ولكن الأثقل منها يسبق الأخف فى الحركة اليه ؟

والبيرونى يؤيد الرأى الثانى ، وقد مهد هذا الرأى وغيره من الآراء أمام العالم الانجليزى « اسحق نيوتن » الى كشف قانون الجاذبية ، وتعليل الثقل على الأساس العلمى الحديث ٠ ولكى يصل البيرونى الى معــرفة الوزن النوعى لبعض العناصر والمركبات ابتكر تجربة فريدة ، تتكون من اناء مصبه الى أسفل ، وىن وزن الجسم فى الهواء والماء تمكن من معرفة مقدار الماء المزاح ، ومن هذا الأخير ووزن الجسم فى الهــواء قدر الوزن النوعى ، وبهذه التجربة وصل الى معرفة الوزن النوعى لثمانية عشر عنصرا ومركبا من الأحجار الكريمة ٠

وقد وضع البيرونى كتابا فى خواص العناصر والجواهر وفوائدها التجارية والطبية ، كما وردت فى كتبه شروح وتطبيقات لبعض الظواهر ، التى تتعلق بضغط السوائل وتوازنها ، وشرح صعود مياه الفوارات والعيون الى أعلى ، كما شرح تجمع مياه الآبار بالرشح من الجوانب ، حيث يكون مأخذها من المياه القريبة منها ، وتكون سطوح ما يتجمع منها موازية لتلك المياه ، ثم بين كيف تفور مياه العيون ، وكيف يمكن ان تصعد مياهها الى القلاع ورءوس المنارات ٠ وقد شرح كل ذلك بوضوح تام ، ودقة متناهية ،

وباسلوب سهل بعيد عن التعقيد · ويمكن القول بعد هذا انه من القـــادرين الذين وضعوا بعض القواعد الأساســـية فى « الميكانيكا » و « الأيدروستاتيكا » · والبيرونى أول من شرح الأرقام الهندية شرحـا وافيا ، وهى الأرقام التى اتخذت أساسا للأرقام العربيـــة ، وقد انتشر استعمالها فى بلاد المغرب والأندلس ، وعن طريق هذه البلاد دخلت الأرقام الغبارية الى أوربا ، وعرفت عندهم باسم الأرقام العربية Arabic-numerals

ووفق الى قياس محيط الأرض بطريقة علمية ، ذلك انه حينما كان فى الهند ، استطاع ان يتعرف على محيط الأرض ، عن طريق قياس درجة انحراف الأفق عن جبل قائم فى هذه الناحية ، وبذلك يعد من أول علماء الفلك الذين ابتكروا النظريات الجديدة لاستخراج مقدار محيط الأرض ، ثم استعمل معادلة حسابية لحساب نصف قطر الأرض ، ســماها علماء الغرب « قاعدة البيرونى » ويقول الأستاذ « نلينو » : « انه مما يستحق الذكر ان البيرونى بعد تأليفه كتابه فى « الاسطرلاب » أخرج تلك الطريقة من القول الى الفعل فى كتابه « القانون المسعودى » ·

ومن نظـرياته أن الزهرة يجب أن تحمل ثلاث ورقات « بتلات » أو اربعا أو خمسا أو ستا أو ثمانى عشرة ، وان من المستحيل ان يكون لها سبع أو تسع وهذه النظرية لم تجد الى الآن من ينقضها ، وهو أول عالم عربى استخدم طريقة « ارشميدس » · ومن آرائه الجغرافية ان العمارة على سطح الأرض فى النصف الشمالى من هذه الكرة العظيمة ، ومن أقواله : ان اليونان قد انقطع العمران من جانبهم ببحر أوقيانوس ، فلما لم يأتهم خبر الا من جزائر بعيدة عن الساحل ، ولم يتجاوز المخبرون عن الشرق ما يقارب نصف الدور ــ جعلوا العمارة فى أحـــد الربعين الشماليين ، لا ان ذلك موجب أمر طبيعى ، فمزاج الهواء الواحد لا يتباين ، ولكن أمثاله من المعارف موكول الى الخبر من جانب الثقة ، فكان الربع دون النصف هو ظاهر الأمر ، والأولى ان يؤخذ به الى أن يرد دليل لغيره

ومعنى ذلك أن العقل يقضى بوجـود جانب مغمـور فى الجـــانب الغربى من الكرة الأرضية ، ولكنه لايقطع بوجوده الا بعد المشاهدة وتواتر الخبر من الثقات · وهذه هى الحقيقة التى اعتمد عليها « كولمبس » فاقتحم بحر الظلمات ، وكان يؤمل تحقيق الفكرة المنطقية برؤية العيان ، وقد فعل كولمبس ذلك اعتمادا على رأى البيرونى ، وذلك على الرغم من ان آراء الأوربيين كانت لاتزال تقول بتسطيح الأرض ، وكانت الكنيسة فى نفس الوقت ما تزال تنكر استدارتها ودورانها ، فكأن العرب بفضل البيرونى قد وفقوا الى الرأى الصحيح فى هذه المسألة الجغرافية ، وهى تعمق كروية

الأرض فى الوقت الذى كانت أوربا فيه تؤمن بالأوهام ، وكان تعمق البيرونى فى الدراسات الفلكية والجغرافية من الاسباب التى جعلته ينشىء مرصدا خاصا ، كان يسمى « مرصد البيرونى »

ان البيرونى بعد أن حلق فى ميادين العلم الطبيعى والرياضيات والفلك لم ينس الفلك ، فقد كان يعدها ظاهرة من ظواهر المدنية ، ومن الطريف اننا نراه يبين أحسن بيان وجوه التوافق بين الفلسفة الفيثاغورثية والأفلاطونية الحديثة والحكمة الهندية والكثير من مذاهب الصوفية ، وهو يعترف بسمو العلم اليونانى اذا قيس بمحاولات العرب والهنود ، فيقول فى كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » : ان بلاد الهند ـ دع عنك بلاد العرب ـ لم تنجب فيلسوفا مثل سقراط ، ولم يكن للهنود منهج علمى يخلص علمهم مما يخالطه من أوهام ، وهو مع ذلك ينصف بعض الهنود ، ويرتضى بعض تعاليمهم ، ويذكر منها : يكفينا معرفة الموضع الذى يبلغه الشعاع ، ولا تحتاج الى ما لا يبلغه وان عظم فى ذاته ، فما لا يبلغه الشعاع لا يدركه الاحساس ، وما لا يحس فليس بمعلوم .

ومن هذا يتضح لنا أن فلسفة البيرونى قائمة على أساس من ان العلم اليقينى لا يحصل الا من احساسات يؤلف بينها العقل على نمط منطقى ، كما كان يرى أن مطالب الحياة تجعلنا فى حاجة الى فلسفة عملية ، تميز بها العدو من الصديق ، ويعتقد انه بهذا القول لم يقل كل ما يقال ، ولا آخر ما يمكن ان يقال .

★★★

تقدير العلماء « للأستاذ » البيرونى

لا شك أن عبقريا فذا ، وعالما جليلا ومفكرا كبيرا كالبيرونى لابد أن يتطرق الى ذكره وذكر مآثره عدد كبير من المفكرين والعلماء من العرب والمستشرقين قديما وحديثا ٠

فقد كان المستشرق العلامة سخاو Sachau ممن درســوا آثار البيرونى العلمية دراسة عميقة ، وقد أعجب بعقليته العلمية النادرة أيما عجب ، فقال : « البيرونى أعظم عقلية عرفها التاريخ » ٠ ولا شك ان لهذا الاعتراف قيمته العظيمة ، لأنه صدر من عالم خطير ذى كفاية ممتازة فى ميادين البحث العلمى ، ويقول العلامة « سيديو » : « ان أبا الريحان اكتسب معلوماته المدرسية البغدادية ، ثم نزل بين الهنود حين أحضره الغزنوى ، فأخذ يستفيد منهم الروايات الهندية المحفوظة لديهم قديمة أو حديثة ، ويفيدهم استكشافات أبناء وطنه ، ويبثها لهم فى كل جهة مر بها ، وألف لهم ملخصات من كتب هندية وعربية ، وكان مشيرا وصديقا للغزنوى ، استعد حين أحضره بديوانه لاصلاح الغلطات الباقية فى حساب الروم والسند وما وراء النهر ، وعمل قانونا جغرافيا كان أساسا لأكثر القسموغرافيات المشرقية ، واستند الى قوله سائر المشرقيين فى الفلكيات ، واستمد منه أبو الفدا الجغرافيا فى جداول الأطوال والعروض ، وكذا أبو الحسن المراكشى » ٠

ويقول الأستاذ « سميث » فى كتابه تاريخ الرياضــيات ٠ « ان البيرونى كان ألمع علماء زمانه فى الرياضيات ، وان الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرها فى العلوم » ٠

ويقول د٠ سارتون فى كتابه مقدمة لتاريخ العلم : « كان البيرونى باحثا فيلسوفا رياضيا جغرافيا من أصحاب الثقافة الواسعة ، بل من أعظم علماء الاسلام ، ومن أكابر علماء العالم » ٠

ويقول المستشرق د٠ يوسف شخت : « والحق ان شجاعة البيرونى ، وحبه للاطلاع العلمى ، وبعده عن التوهم ، وحبه للحقيقة ، وتسامحه ، واخلاصه ـ كل هذه الخصال كانت عديمة النظير فى القرون الوسطى ، فقد كان البيرونى فى الواقع عبقريا مبدعا ذا بصيرة شاملة نفاذة » ٠

ويقول الأستاذ « نللينو » : « ان قياس المأمون وقياس البيرونى لمحيط الأرض من الأعمال العلمية المجيدة والمأثورة للعرب » ٠

ويقول الأستاذ « كويلر بونج » أستاذ العلاقات الأجنبية بجامعة « برنستون » ورئيس قسم اللغات والآداب بها : « ومن أعلام الاسلام فى الطبيعة والميكانيكا البيرونى ، الفارسى الأصل المتوفى سنة ١٠٤٨ ، وقد استخدم طريقة حمام (أرشميدس) فاستخرج الأوزان المضبوطة لثمانية عشر حجرا من الأحجار النفيسة والمعادن » .

ويقول الأستاذ « أدور دشاسو » : « ان الشيخ أبا الريحان البيرونى أعظم مفكر ظهر على وجه البسيطة » .

وتقول دائرة المعارف الفرنسية فى الجزء السادس : « ومع أن البيرونى كتب أغلب مؤلفاته باللغة العربية ، فقد كان بارعا فى الكتابة باللغة الفارسية ، سهل العبارة فيها ، وله فى اللغتين كتب كثيرة » .

لا ريب أن الباحث يخرج من هذه الاعترافات التى مبعثها اليقين العلمى والتجرد من روح التعصب بأن البيرونى كان شخصية علمية فذة ، وأنه ضرب بسهم وافر فى الفلك والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والعلوم الطبيعية . وفضلا عن هذا فهو أول عالم عربى أماط اللثام عن القارة الهندية بنقله علوم هذه البلاد وعقائدها وفلسفتها وأساطيرها الى اللغة العربية ، ولم يكن البيرونى ناقلا فحسب ، بل كان عالما باحثا دقيق النظر ، له آراؤه وابتكاراته العلمية والذى يلفت النظر حقا ان علماء الغرب قد وضعوا هذا العالم فى مرتبته اللائقة بهذه الاعترافات ، فكانوا منصفين فى حكمهم . فاعترفوا فى اخلاص بقدرته العلمية الفائقة ، وفضله العظيم فى ميدان البحث والابتكار ، وغير شك أن هذه الشهادة لها قيمتها الكبيرة من الناحية العلمية ، فالبيرونى كان واحدا من الخالدين الذين يمثلون العقلية العربية العلمية ، فيما وصلت اليه من امتياز فى التفكير . لقد كان مؤرخا ، وفيلسوفا ، وعالما رياضيا ، وفلكيا جغرافيا . ولم تكن عبقريته مقصورة على انه كان خزانة كتب واعية كما كان شأن بعض علماء القرون الوسطى ، وانما كان عالما دقيقا ، يعرض آراء السابقين بعد أن يدرسها ويمحصها ، ويضيف اليها الكثير من انتاجه العلمى الخاص ، فزاد بذلك فى ثروة الانسانية العلمية ، وتراثها الفكرى صفحات لامعة مضيئة .

ومما يرفع من قيمة بحوثه انه كان لا يتعرض للتأليف فى أى موضوع الا بعد الدراسة الطويلة ، والبحث العميق ، وقد حمله ذلك على دراسة لغات كثيرة ، كانت عونا صادقا له على التأليف العلمى الخصب ، وكان منهجه فى البحث قائما على أصول الطريقة العلمية الحديثة ، لا ينشد الا الحقيقة مهما كان مصدرها . ولذلك تميزت مؤلفاته بروح التسامح .

والتجرد من التعصب القومى والدينى ، وبالجرأة فى النقد ، وكان اسلوبه فى كتبه واضحا سهلا ·

لا ريب أن البيرونى كان شخصية فذة ، وعقلية علمية جبارة ، وحقلا مخصبا من حقول التفكير العربى الاسلامى ، لذلك وضعه مؤرخو الحضارة فى طليعة الصفوة المختارة من علماء المسلمين الذين اتصفوا بالعالمية فى تفكيرهم ·

***

منهاج البيرونى فى القانون المسعودى

أهم مؤلفات البيرونى فى علم الفلك كتابه هذا « القانون المسعودى فى الحياة والنجوم » الذى كتبه عام ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) وأطلق عليه هذا الاسم نسبة الى السلطان الغزنوى مسعود بن محمود ـ ويقول يافوت ان مسعود أهدى المؤلف حمل فيل من القطع الفضية مكافأة له على هذا العمل ، لكن البيرونى رفض الهدية ـ والكتاب يعتبر موسوعة فلكية نادرة ، تناول فيه بالتفصيل كل ما يتعلق بعلم الفلك سواء فى ذلك المبادىء الأساسية ، وأبحاثه ونظرياته مقارنة بأبحاث السابقين والمعاصرين له ٠

وصلت الينا منه سبع نسخ مخطوطة موزعة فى عدة دول :

أقدمها التى توجد بمكتبة بادلين بأكسفورد منسوخة عام ١٠٨٢ م ، ثم النسخة الموجودة فى فرنسا بالمكتبة الأهلية فى باريس وقد نسخت عام ١١٠٨ م ، والنسختان الثالثة والرابعة موجودتان فى تركيا احداهما بمكتبة الملة باستنبول وقد كتبت عام ١١٣٦ م والثانية بمكتبة بايزيد باستنبول وتاريخها قبل عام ١١٤١ م ، ونسخة فى المانيا بمكتبة جامعة توبنجن فى برلين وهذه نسخت قبل عام ١١٦٦ م ، وأخرى فى انجلترا بالمتحف البريطانى فى لندن نسخت عام ١١٧٤ م ٠ أما فى مصر فهناك نسخة بدار الكتب فى القاهرة كتبت عام ١٢٧٤ م ٠

وقد قامت دائرة المعارف العثمانية فى الهند بمجهود ضخم فى سبيل طبع هذا الكتاب النفيس الذى « لم يصنف فى فنه مثله وقد بقى فى عالم الخفاء لم يطبع الى الآن مع ان كثيرا من الفضلاء والحكماء والادارات العلمية والمعاهد الحكمية فى الشرق والغرب كانوا حريصين على نشره منذ ألف سنة » ٠ وكان نشره بعد مقارنة لفظية بين النسخ السبع مع اعتبار الرابعة منها الموجودة فى مكتبة بايزيد باستنبول أساسا للطبع ٠

ومع ان الكتاب المطبوع فى الهند لم يتناول التحقيق اللفظى والعلمى ، الا أنه أصبح عونا كبيرا لمن أراد أن يقوم بهذه المهمة ، وقد استعان الكاتب به ـ الى جانب المخطوط الموجود فى دار الكتب بالقاهرة ـ لدراسة النظريات الرياضية والفلكية التى نقلها البيرونى وناقشها عمن سبقوه أو التى ابتدعها بنفسه بعد بحث عميق ٠

ويشمل القانون المسعودى على احدى عشرة مقالة ، كل منها مقسم الى عدد من الأبواب تبلغ فى مجموعهـا مائة واثنين وأربعين بابا تغطى جميع الأرصاد والنظريات الفلكية فى ذلك الوقت بالاضافة الى ما توصل اليه علماء الحضارات السابقة والمعاصرون للبيرونى ، مع نقد العالم المطلع وتفنيد الآراء دون تحيز أو محاباة · وقد وضع البيرونى نصب عينيه الا يأخذ النظريات والأرصاد قضية مسلما بها بل ناقش البراهين والأدلة وأضاف اليها من عندياته وأعاد الأرصاد أكثر من مرة لكى يستوثق من صحة النتائج ، وكان البيرونى فى كتابه جم التواضع دعا الى مناقشة آرائه وتصحيح ما يكون قد وقع فيه من زلل · وفى ذلك يقول فى مقدمة كتابه :

« ولم أسلك فيه مسلك من تقدمنى من أفاضل المجتهدين من طالع أعمالهم واستعمل زيجاتهم على مطايا الترديد الى قضايا التقليد ، باقتصارهم على الأوضاع الزيجية ، وتعميتهم خير ما زاولوه من عمل ، وطيهم عنهم كيفية ما أصلوه من أصل ، حتى أحوجوا المتأخر عنهم فى بعضهـا الى تكلف الانتقاد والتضليل · اذ كان خلد فيها كل سهو بدر منهم لسبب انسلاخه عن الحجة ، وقلة اهتداء مستعمليها بعدهم الى المحجة · وانما فعلت ما هو واجب على كل انسان أن يعمله فى صناعته من تقبل اجتهاد من تقدمه بالمنة ، وتصحيح خلل ان عثر عليه بلا حشمة ، وخاصة فيما يمتنع ادراك صميم الحقيقة فيه من مقادير الحركات وتخليد ما يلوح له فيها تذكرة لمن تأخر عنه بالزمان وأتى بعده ، وقرنت بكل عمل فى كل باب من علله ، وذكر ما توليت من عمله ، ما يبعد به المتأمل عن تقليدى فيه ويفتتح له باب الاستصواب لما أصبت فيه ، أو الاصلاح لما زللت عنه أو سهوت فى حسابه » ·

والى جانب الناحية الفلكيـــة المباشرة ، نرى البيرونى قد خصص بعض أجزاء من كتابه تنــاول فيها عدة مواضيع تتصل بعلم الفلك من قريب أو بعيد·ففى المقالة الثانية تعرض بصورة موجزة لتواريخ الأنبياء والملوك من عهد آدم عليه السلام حتى ملوك عصره وذلك للصلة الوثيقة بينها وبين التقاويم المختلفة والتواريخ المشهورة · ولم يقتصر على سرد الأعياد والمناسبات بل أشار الى أصلها والأسباب التى جعلت منها عيدا دينيا أو مناسبة مشهورة · فالبيرونى لم يسرد التواريخ والأعياد دون روية أو تفكير ، بل ناقش أصولها وأسباب التعارض فى أقوال المؤرخين · والمقالة الثانية من القانون المسعودى حافلة بالأمثلة المشابهة سواء فى أصل الأعياد أو فى تحويل التقاويم المختلفة بعضها الى بعض ·

وفى المواضيع الأخرى المتصلة بعلم الفلك ، أفرد البيرونى المقالة الثالثة للرياضة والقوانين الخاصة وجداول حساب المثلثات التى تعتمد عليها النظريات والأرصاد والحسابات الفلكية · وحتى فى هذا الموضوع

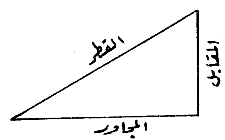
الفرعى ظهر نبوغ البيروني وعمق أبحاثه وآرائه وتوخى الدقة فى المسائل الرياضية فتوصل الى قوانين الاستكمال فى صورتها المبسطة التى نسبت الى نيوتن وجريجورى بعده بستمائة عام • ولم يكن توصـله الى هذه القوانين من قبيل المصادفة أو التخمين ، بل نتيجة للبحث فى دقة الجداول الرياضية السابقة وطرق استخدامها • فقد وجد ان الفترات المتساوية بين الزوايا لا تقابلها تغيرات متساوية في النسب المثلثية ، وتأكيدا لهذه الحقيقة أثبت صحتها بالطرق الهندسية • وكان فى ذلك حافز له على البحث عن مخرج للوصول الى أدق القيم حين استعمال الجداول المثلثية وتعميم ذلك الى كافة الجداول الرياضية • وقد سـلك فى سبيل ذلك مسلكين ،أولهما أخذ فترات صغيرة قدر الامكان بين قيم المتغير (الزوايا) وعمل جداول على هذا الأساس وقام فعلا بحساب جداول للجيوب لكل ربع درجة بدلا من الجداول الشائعة حينئذ والتى كانت محسوبة لكل درجة ، وقد كان يتمنى أن يعملها لكل دقيقة قوسية لولا طول الوقت وكثرة الحسابات ، وهو فى ذلك يقول :

« فلهذا لو لم يتعذر تدقيق العمل لطوله ، لكان تحليل الجيوب الى دقائق أجزاء القسى أصوب لينتقل التساهل من أجزاء الأجزاء الى التى لم تستعملها ، وكان الأولى بنا أن نفعله ، لأن مدار أمور هذه الصناعة عليها ، ومرجع الزيجات اليها » وكانت حساباته من الدقة الى درجة أن جداوله كانت صحيحة الى الرقم السابع أو الثامن العشرى ! •

وثانى المسلكين ، تحسين طريقة استعمال هذه الجداول ، وذلك ما أدى به الى استنباط قانون الاستكمال مقربا بطريقة هندسية بسيطة ، وكانت فكرته كما يلى معبرا عنها بالاصطلاح الحديث :

اذا زادت قيمة الزاوية من (س) الى (س + ١) تغير جيبها من ($ج_1$) الى ($ج_2$) ، فاذا زدنا الزاوية فترة أخرى من (س + ١) الى (س + ٢ أ) تغير الجيب من ($ج_2$) الى ($ج_3$) ، ومع أن الفترات متساوية (= ١) الا ان فروق الجيوب ($ج_2 - ج_1$) ، ($ج_3 - ج_2$) غير متساوية • فاذا أردنا ايجاد (ج) جيب زاوية (س + أ + ب) واقعة بين (س + أ) ، (س + ٢ أ) بالطريقة العادية الشائعة كانت نسبة الجزء (ب) الى الفترة (أ) مساوية لنسبة الزيادة ($ج - ج_1$) الى الفرق ($ج_2 - ج_1$) ، وذلك غير صحيح كما أثبتنا لأن فروق الجيوب لا تتناسب مع فروق الزوايا • ولكن ما حدث فى الحقيقة هو ان التغير فى الزاوية من (س + أ) الى (س + ٢ أ) صاحبه تغير تدريجى فى فروق الجيوب (لا فى الجيوب نفسها) من ($ج_2 - ج_1$) الى ($ج_3 - ج_2$) وعلى ذلك تكون نسبة الجزء (ب) الى الفترة (أ) مساوية لنسبة فرق

الجيوب المناسب (ج - ج١) الى الفرق (ج٣ - ج٢) - (ج٢ - ج١) ٠ وبتعويض فرق الجيوب المناسب الخارج لنا فى القانون الشائع نحصل على قيمة أدق لجيب الزاوية المطلوبة ٠



وفى تلك المقالة أيضا نرى ان البيرونى هو أول من استعمل النسب المثلثية بمعناها الحديث المعروف لنا ، فان الجداول المستخدمة حتى ذلك - العصر لم تكن جيوبا أو ظلالا بالمعنى المفهوم ، بل مضروبة فى معامل ثابت يختلف باختلاف مصدر الجدول ، وذلك العامل الثابت قيمته ٢½ طبقا للنظام الهندى أو ٦٠ طبقا للنظام الفارسى أو اليونانى ٠ والسبب فى ذلك يرجع الى أن هذه الجداول لم تكن نسبا بين المقابل ، والقطر مثلا ، بل أطوالا مطلقة للمقابل ٠ فهى اذن تتوقف على قيمة القطر المأخوذة وهى ما اعتبرها اليونان ٦٠ وبعض علماء الهند ٢½ ٠ وكان البيرونى أول من اعتبر الوحدة قيمة للقطر وبذلك أصبحت الأطوال المطلقة للمقابل هى بعينها النسبة بينه وبين القطر ٠

ويجدر بنا فى هذا المجال ان نشير الى طريقة التقريب المتتابع المعروفة للرياضيين فى الوقت الحاضر والتى استخدمها البيرونى لايجاد طول وتر فى دائرة زاوية قدرها ٤٠° عند المركز (أى $\frac{1}{9}$ الدورة الكاملة) وكان هدفه ايجاد الأوتار التى تقابل من الدورة الكاملة ثلثها وربعها وخمسها ٠٠٠ الخ ، وذلك تمهيدا لحساب جداول الجيوب ٠ وقد استنتج قوانين رياضية مبسطة لحساب قيم هذه الأوتار فيما عدا وترى السبع والتسع كما استنتج قوانين لوتر مجموع زاويتين أو الفرق بينهما أو قيمة نصف الزاوية ٠

بدأ البيرونى طريقة التقريب المتتابع فأخذ وترى الخمس والسدس (يقابلان ٧٢° ، ٦٠°) واستخراج وتر الفرق بينهما (وتر ١٢°) ، ومن وتر السدس أيضا باستعمال قانون التنصيف وصل الى وتر ٣٠° - ثم استخدم قانون المجموع لايجاد وتر (٣٠° + ١٢°) أى ٤٢° وذلك قريب من ٤٠° ٠ والخطوة التالية هى تنصيف ٤٢° مرتين ومن ذلك وصل الى وتر ١٠°-٣٠َ فلما أخذه مع وتر ٣٠° حصل على وتر ٤٠ر٣٠° وبذلك اقترب كثيرا من ٤٠° ٠ وبمتابعة

نفس هـذه الخطوات الأخـيرة أمكن الاقتراب قدر الامكان من وتر ٤٠° المطلوب · ولما اتبع البيروني هذه الطريقة وصل الى وتر ٤٠ درجة ، صفر دقيقة ، صفر ثانية ، صفر ثالثة ، ٢٤ رابعة ·

بعد أربع وستين عملية حسابية لايجاد الجذر التربيعي ولن نشير الى طرقه الأخرى التى أوصلته الى معادلات من الدرجة الثالثة قام بحلها بطريق (المحاولة والخطأ) حتى توصل الى قيمة صحيحة حتى الرقم السادس العشرى ·

وفى المقالة الرابعة التى تحتوى على ٢٦ بابا ناقش البيرونى عدة مسائل ، من بينها ايجاد الزاوية بين مسار الأرض حول الشمس ومستوى خط الاستواء أو بمعنى آخر ميل محور الأرض على مسارها حول الشمس ، وتحويل الاحداثيات السماوية بعضها الى بعض ، وتعيين الوقت ، وتعيين خطوط الطول والعرض للبلدان · وهو فى مناقشـاته ذكر كل الطرق المختلفة التى عولجت بها المواضيع بالاضافة الى طرقه الخاصة وتحسين السابقة كلما استطاع الى ذلك سبيلا ·

فعندما تناول موضوع ميل محور الأرض ، بدأه بذكر العلاقة بينه وبين ارتفاعات الشمس عند المنقلبين الصيفى والشتوى · ثم أردف ذلك بوصف للجهاز المستخدم فى هذه الأرصاد مقارنا فى ذلك بين آلة بطليموس والآلة التى استعملها العرب ومشـيرا الى الحاجة الى نكبير حجم الحلقة الدائرية المدرجة حتى يمكن تقسيمها الى أكبر عدد من الأقسام فيكون قياس ارتفاع الشمس بها أقرب الى الدقة مما لو كانت صغيرة الحجم وأوضح من ناحية أخرى أن تكبير حجمها يؤدى الى زيادة ضغط أجزائها بعضها على البعض مما ينتج عنه تغير شكلها وانحرافه عن دائرة ، وكيف تغلب القدماء على تلك الصعوبات ببناء حائط رأسى واستعاضتهم عن الحلقة برسم دائرة على ذلك الحائط ·

وكعادة البيرونى فى الاشارة الى أعمال الآخرين ، جمع النتائج التى توصل اليها علماء الفلك فى الهند واليونان والمعاصرون له من العرب وكيف ان هذه النتائج قد اختلفت فيما بينهم · وهو فى تسجيله لهذه النتائج أعطى كل ذى حق حقه ، حتى ولو كان عن طريق السماع ·

ولم يطمئن البيرونى لهذا الاختلاف فقرر أن يقوم بارصاده الخاصة ، وكررت ذلك أربع مرات أولاها قبل عام ٣٨٧ هـ أى قبل ان يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ! ثم اضطر الى الهجرة بعيدا عن بلاده ولما عاد اليها بعد حوالى خمسة عشر عاما أعاد تلك الأرصاد عام ٤٠٧ هـ ولم يلبث أن انتقل الى غزنة مع السلطـان محمود بن مسـعود حث أعاد الرصد للمرتين الثالثة والرابعة عامى ٤١٠ ، ٤١١ هـ ·

شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، أقلق باله تضارب النتائج الفلكية لصفوة العلماء فقرر أن يصنع آلته الخاصة ويقوم بأرصاد تقضى على حيرته فى اختيار القيمة الحقيقية التى يبنى الاعتماد عليها فى أعماله الفلكية ، ثم لا يكتفى بالرصد مرة واحدة بل يكرره مثنى وثلاث ورباع دون أن تصرفه الحوادث والحروب عن عزمه ولو بعد عشرات السنين !!

ولما كانت الأرصاد الفلكية على اختلاف أنواعها وما يتصل بها من تحديد الأوقات وتعيين اتجاهات أماكن العبادة تعتمد على معرفة الجهات الأصلية ، فقد أفرد بابا خاصا لتعيين خط نصف النهار (اتجاه الشمال والجنوب) ٠ وذكر سبع طرق مختلفة للوصول الى ذلك ، مشيرا الى مزايا ومساوىء كل منها ، واحدى هده الطرق من أصل هندى ، ناقشها ثم أضاف اليها بعض التحسينات وأخيرا شرح مع البرهان طريقا هندسيا له يوفر الوقت الذى يقضيه الفلكى فى انتظار اللحظات المناسبة للأرصاد ٠

وتعيين الوقت أمر من الأمور الفلكية المهمة الجديرة بالاشارة اليها ، وقد تناولها البيرونى بالمناقشة فى ثلاثة أبواب من هذه المقالة حيث بين فى أحدها كيفية حساب ما مضى من النهار منذ شروق الشمس عن طريق رصد ارتفاعها ، وفى الثانى عن طريق رصد اتجاهها بالنسبة لخط الشمال والجنوب ، بينما خصص الثالثة للأرصاد الليلية على النحوم وتعيين الوقت عن طريقها ٠

واختتم البيرونى هذه المقالة بتحويل المعلومات الفلكية من أى مكان على الأرض الى قبة الأرض ، وهذه القبة هى منتصف العمران ٠ ولما كان القدماء يعتقدون ان نصف النصف الشمالى من الأرض فقط هو الآهل بالعمران ، وان تلك المنطقة تمتد من شواطىء المغرب الى شواطىء الصين فان منتصف ذلك هو جزيرة بالهند عند خط الاستواء شرقى طول بغداد بمقدار ٥٠َر٣٠ْ٥ ٠ وتذكر الأساطير الهندية ان بهذه الجزيرة قلعة (لنك) وهى مستقر للشياطين ووصفوا من ارتفاعها فى الجو ما يمكن أن يشبه بالقبة فأطلق عليها اسم قبة الأرض ٠

والمقالة الخامسة من القانون المسعودى تبحث فى المسائل الأرضية المتصلة بالظواهر الفلكية ، كتعيين خطوط الطول والعرض للبلدان ، واتجاه مكان بالنسبة لمكان آخر ، وقيــاس حجم الأرض أو محيطهــا ، وخصائص الكرة السماوية فى خطوط العرض المختلفة ، ووصف موجز لجغرافية الأرض مع جدول لخطوط الطول والعرض جمع فيه ما يزيد على ستمائة بلد ومكان ٠

ولايجاد خطوط الطول أشار الى استخدام خسوف القمر برصد وقت حدوثه فى مكانين احدهما معلوم الطول ثم ناقش الأسباب فى استحالة الاستعانة بكسوف الشمس أو ستر القمر للنجوم • وثمة طريقة أخرى لا تعتمد على الخسوف ولكنها تحتاج الى معرفة عرض المكانين حيث يرصد فيهما وقت عبور القمر لاتجاه الشمال والجنوب فى ليلة معينة ، وبعد بعض التصحيحات ينتج فرق الطول بين البلدين • أما اذا عرفنا المسافة بين بلدين وعرضيهما فان الفرق فى الطول يمكن حسابه • ولما كان المجال غير متسع أمام البيرونى ليتناول مواقع البلدان وتعيينها شيء من التفصيل فى نطاق القانون المسعودى ، فقد أفرد لهذا الموضوع كتابا كاملا هو « تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن » شرح فيه جميع الطرق الحسابية والرصدية الممكن استعمالها فى هذا الشأن وضرب الأمثلة المختلفة لأن « الأمثلة تكون مرشدة للحاسب ومعينه على الامتحان والتعبير » ومسجلا النتائج التى أدت اليها أرصاده وأرصاد غيره

وقد اهتم البيرونى بمسألة تعيين اتجاه بلد بالنسبة لبلد آخر لأهمية ذلك فى اتجاه المصلين نحو الأماكن المقدسة • وذكر فى ذلك طريقين ، يعتمد احدهما على الحسابات المثلثية باستخدام قوانين الرياضة المعروفة ، أما الطريق الثانى فهندسى بحت أو كما أسماه « الطريق الصناعى لمعرفة سمت القبلة وغيرها » لا يحتاج الى الحسابات المعقدة تسهيلا للأئمة فى البلدان المختلفة فى معرفة الاتجاه الصحيح ، كما يسر لهم ولغيرهم من قبل اتجاه الشمال والجنوب بالطرق الهندسية •

وعند وصفه لتضاريس الأرض ومسالك البحار والمحيطات أشار لأول مرة الى انه ليس ما يمنع من اتصال المحيط الهندى بالمحيط الأطلنطى جنوب القارة الأفريقية وهو عكس ما كان شائعا فى ذلك الوقت • ثم دلل على ذلك بالعثور على ألواح مراكب مخروزة عند مضيق جبل طارق ومصدرها هو المحيط الهندى وليس المحيط الأطلنطى لأن المراكب فى هذا الأخير تسمر بالحديد ولا تخاط •

هذا وقد قارن أرصاده بأرصاد ميطن واقطيمن (٥٩) وبأرصاد أرسطرخس (٦٠) ثم رصدتين لبطليموس فخرجت له أربع نتائج مختلفه هى على التوالى ٣٦٥ر٢٤٢٦ ، ٣٦٥ر٢٤٢١ ، ٣٦٥ر٢٣٩٨ ، ٣٦٥ر٢٤٠٨ يوما (٦١) كما قارن أرصاد هؤلاء بعضها ببعض فوجد أيضا اختلافا فى النتائج • وقد أرجع ذلك الى تخاليط فى التواريخ « كاستعمال الشهور فى غير سنيها ، واستعمال شهور مختلفة لأمم متباينة ، ان كان حينئذ أمرها له معلوما فانه خفى علينا مجهول » • والمصدر الذى استقى منه البيرونى معلوماته عن الأرصاد وتواريخها هو كتاب المجسطى لبطليموس •

وقد دلل على اختلاط التواريخ فى المجسطى بضرب أمثلة عديدة من هذا الكتاب

وفى معرض الحديث عن القمر ، تنـــاول بالتفصيل شرح مسيرة المختلف والمستوى أى الناتجين عن السرعة الحقيقية غير المنتظمة وعن السرعة النظرية المتوسطة · وقد افترض فى شرحه ان مستوى مســار القمر حول الأرض ينطبق على مستوى مسار الأرض حول الشمس مع انه فى الحقيقة مائل عليه بزاوية معينة · وقد علل أســباب هذا التقريب بامكان الوصـــول عن طريقه الى المعـلومات الصحيحة باستخدام طريقة التقريب المتتابع · ثم يشير الى زاوية الميل ـ أو أعظم عروض القمر ـ فيسجل وجود اختلاف بين الآراء وعدم سنوح الفرصة له كى يتعرف على الحقيقة ·

وسجل البيرونى أعمال العرب فى مجال النجوم ، فعند تقسيم النجوم حسب أقدارها (درجة لمعانها) أشار الى جداول بطليموس المحتوية على النجوم وأقدارهـا والى توســط بعض النجوم بين قدر وآخر حتى ان أبو الحسين الصوفى (٦٢) فى جداوله نقلها من مرتبة الى أخرى · ولعل تلك أول فكرة فى تقسيم الأقدار الصحيحة الى كسور وهو المعمول به فى الوقت الحاضر أما عن ثبات النجوم فى السماء وعدم وجود حركة لها خلاف الشروق والغروب ـ وهو أمر بعيد عن الصحة كما ثبت من الدراسات الدقيقة فى العصور الحديثة ـ فقد أشار الى اكتشـــاف العرب للحركة الثانية عندما قال :

« قيل فيها انها كلها متحركة نحو التوالى بحركة واحدة شرقية على مثال تحركها جملة بالحركة الغربية ، وأى شىء أظهر فيهـا من وجود ابرخس قلب الأسد (٦٣) متقدما للدائرة المارة على الأقطاب الأربعة (٦٤) الى خلاف التوالى بسدس جزء (١٠) ، وكونه الآن مجاوزا اياها الى التوالى بأكثر من نصــف برج (٥١٥) · فظاهر انه متحرك ، الا ان شــكله (أى وضعه) من سائر الكواكب (الكواكب الثابتة أى النجوم) باق على حاله ، فكلها اذن متحركة حركة مشابهة لحركته » ·

ويستطرد بعد ذلك فيبرهن ان هذه الحركة للنجوم على محور فلك البروج Ecliptic ويبحث تأثير وجود هذه الحركة على خصائص النجم كالشروق والغروب وموقعه بالنسبة للنجم القطبى ولنقطة الاعتدال ، ولم ينس هذا التأثير عندما وضع جداوله لمواقع النجوم حيث جمع ١٠٠٢٩ نجما وصف مكان كل منهـا فى كوكبته وأعطى موقعه الى أقرب دقيقة قوسية ، وقدره كما رآه بطليموس والصوفى · أما الصحيح الذى أضافه فكان للموقع ·

وأنهى حديثه عن النجوم بذكر منازل القمر ونجومها طبقـا لرأى العرب والهند ، كما قارن بين هدف كل منهما فى دراسة تلك المنازل ، فالهند استعملتها بقصد التنجيم والتنبو بالحوادث بينما اهتم بها العرب ليربطوا بينها وبين أحوال السنة وفصولها وما يحدث فيها من تغير فى أحوال الجو وغيره ٠

وبعد النجوم جاء ذكر الكواكب ، فأعطى شرحا هندسيا لحركاتها وفسر مع البرهان أسباب حركتها المستقيمة والاقامة والرجوع العارض (٦٥) واختتم ذلك باقتران كل كوكبين أى باجتماعهما فى جزء واحد من فلك البروج ثم شروط حجب احدها للآخر وحجب القمر لسائر الكواكب ٠

ولم يكن البيرونى ممن يؤمنون بالتنجيم ، ومع ذلك فقـد اختص المقالة الأخيرة من القانون المسعودى بالحديث عنه ، ولكنه تنـاوله من الناحية الرياضية وطرق الحسابات الفلكية البحتة التى يحتاجها المنجمون ٠ وليس أدل على سخطه على المنجمين ما ذكره فى بداية هذه المقالة :

« هذه الصناعة (٦٦) التى قصر الكتاب عليها ، على استغنائها بذاتها لنفاسة قدرها فى نفسها ، لا تكاد تميل اليها القلوب التى لا تتصـور كيفية اللذة الا فى مقدمات الآلام الجسمانية ، ولا النفع الا فى الأمور الدنياوية ٠ واذا لم ترغب فيها رغبت عنها وعافتها ، فعادتها وأهلها ٠ ولهذا السبب رجز القدماء أكوان العالم بقضاياها ، وطرقوا الى تقديم المعرفة بها من تأثيراتها طرقا ، أشبهت شيئا من الاقناع ، وقننوا عليها صناعة الأحكام » (٦٧) ٠

★★★

شرح تشريح القانون

ابن النفيس

١٢٨٠م

● كان ابن النفيس اماما فى الطب لا يضاهى فى ذلك ولا يدانى استحضارا واستنباطا · هذا ما قاله أحد معاصريه ·

صنف فى المنطق والفلسفة وأصول الفقه والعربية والحديث وعلم البيان · وله فى هذا كله رسائل نفيسة وتآليف قيمة ·

وكان لتضلعه فى هذه الألوان المختلفة من المعرفة أكبر الأثر فى قوة الاستيعاب عنده وفى التوسع فى ميادين الفكر والعلم والطب · ولم يكن هذا هو الذى حلق به فى أجواء العبقرية والنبوغ ، بل ان سر سبقريته ونبوغه يكمن فى مزايا لم يحملها غيره من معاصريه أو من كثير من الذين أخذ عنهم ودرس عليهم ·

فقد كان مستقلا فى التفكير والرأى ، يعتمد فى استنتاجاته على العقل والملاحظة والتجربة · وقد أشرب روح النقد مما دفعه الى مخالفة الآراء الشائعة المتداولة ومعارضة الفلاسفة والحكماء من الذين سبقوه ·

كان يمحص الآراء ويدرسها ويسلط عليها عقله ومنطقه وخبرته ، فاذا خرج بصحتها أخذ بها ، واذا لمس فيها الخطأ أو الشذوذ بين فسادها ودعا الى نبذها واهمالها ·

ولعل استقلاله هذا وروح النقـد ـ التى كان يحملها ـ كانا من العوامل التى جعلت ابن النفيس يسبق عصره فى العلاج والتطبيب العلمى فجاء بآراء ونظريات هى فى الواقـع فتح فى ميدان الطب وعلم وظائف الأعضاء ·

لقد كشف « ابن النفيس » الدورة الدموية الصغرى ، وقال : « ان الدم ينقى فى الرئتين » قبل « سرفيتوس » بثلاثة قرون ·

لقد كان الشائع فى زمن ابن النفيس الرأى الذى قال به جالينوس وابن سينا ، وهو « ··· ان الدم يتولد فى الكبد ومنه ينتقل الى البطين

الأيمن فى القلب ثم يسرى بعد ذلك فى العروق الى مختلف اعضاء الجسم فيغذيها ، وان بعضه يدخل البطين الأيسر عن طريق مسام فى الحجاب الحاجز حيث يمتزج بالهواء الذى يأتى من الرئتين · وكان هذا المزيج يسمى بالروح الحيوى الذى ينســـاب فى الشرايين الى مختلف أنحاء الجسم · والظاهر أن هذا الاعتقاد جاء مصداقا للحقيقة الآتية : وهى ان عروق الموتى تكون عادة طافحة بالدم مملوءة به فى حين تكاد الشرايين ان تكون خالية منه · على اننا نعلم الآن السبب فى ذلك يعود الى أن النبضات الأخيرة للقلب تنضح بالدم من الشرايين ·· ولكن الأطبـاء فى العصور الوسطى والقديمة لم يدركوا هذه الحقيقة ولم يعرفوا شيئا عن الدورة الدموية ··· »

ولقد قام ابن النفيس يعارض هذه الآراء وينقدها حتى ولو كانت من جالينوس أو ابن سينا ·

ولم يقف عند هذه الحدود ، بل خطا خطوات ايجابية وخرج من ملاحظاته وخبراته ودراساته الى أن الدم ينساب من البطين الأيمن الى الرئة ، حيث يمتزج بالهـواء ثم الى البطين الأيسر ، وهى الدورة التى نسميها اليوم بالدورة الدموية الصغرى ·

وهكذا أصبح ابن النفيس الامام الأول « لهارفى » الطبيب البريطانى الشهير ، الذى خطا فى المسألة خطوة جديدة، وكشف سنة ١٦٢٨ الدورة الدموية الكبرى من البطين الأيسر الى الشرايين ، ومنهـا الى الأوزدة ثم البطين الأيمن ·

الحياة العملية لابن النفيس

توصيات طبية رائعة

ولد ابن النفيس حوالى سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) وذلك فى دمشق ابان حكم الأيوبيين لها ، وكانت كعبة للعلم والعلماء آنذاك بها بيمارستان أى مستشفى يضم أعظم الأطباء ، وعلى رأسهم مهذب الدين عبد الرحيم على المسمى « بالدخوار » أستاذ ابن النفيس ونظرة الى ما وصف بـه « الدخوار » وما كتب عنه تعطينا ضوءا عن نشأة ابن النفيس وثقافته ·

ففى كتاب « مسالك الأبصار فى أخبار ملوك الأمصار » كتب مؤلفه عن « الدخوار » يقول : « كان فى الحكماء علما ، وفى اثبات الحكم قلما ، وكان لفروع الطب شجرة يكاد زيتها يضىء · وكأنه جالس ارسطاطاليس »·

وقال عنه ابن أبى أصيبعة : « كان رحمه الله أوحد عصره ، وفريد دهره ، وعلامة زمانه ، فاق أهل زمانه فى صناعة الطب ، وحظى عند الملوك ، ونال من جهتهم من المال والجاه ما لم ينله غيره من الأطباء ، وولاه السلطان الكبير رئاسة أطباء ديار مصر بأسرها وأطباء الشام » ٠

وقد أوصى الدخوار بأن يحول بيته ومكتبته بعد مماته الى مدرسة للطب لقبت بالدخوارية ٠

وتتلمذ ابن النفيس كذلك على عمران الاسرائيلى ، وكان طبيبا ذائع الشهرة ، زامل الدخوار فى البيمارستأن الكبير ٠

وكانت طريقة تعليم الطب تمتـــاز بالتدقيق فى فحص المرضى ، وبمتابعة مظاهر المرضى فى تطورها ، واستجابتها للعلاج ، وابداء الرأى سواء من الأساتذة أو الطلبة ، كل حسب ما يرى ، وما يمليه عليه فكره وعقله ٠ وتلك هى الطريقة « الاكلينيكية » الصحيحة التى ابتدعها العرب لفترة طويلة قبل أن يأخذها عنهم الغرب ٠

وفى هذا الجو العلمى الصحيح المبنى على الخبرة ، والأصالة فى التفكير والبحث والتنقيب ، وابداء الرأى بحرية تامة نشأ ابن النفيس ٠

ثم عمل ابن النفيس فى مصر بالمستشفى الذى أقام صرحه الناصر صلاح الدين الأيوبى والمسمى « بالناصرى » ، وتدرج فى مناصبه الى أن أصبح رئيسا لاطبائه ، وفتح باب داره على مصراعيه لطلاب العلم والغلماء ، وكان يحضر مجلسه الخيرة من أهل العلم ٠

ولقد درس ابن النفيس كتب جالينوس وابن سينا ، ولكنه كان يمحصها ، ويحكم فيها عقله ، ويبعد عن تلاميذه الأقوال التى يشك فى صحتها ، ولا أدل على ذلك من قوله : « وأما منافع الأعضاء فانما يعتمد فى تعريفها على ما يقتضيه النظر المحقق ، والبحث المستقيم ، ولا علينا أوافق ذلك الرأى من تقدمنا أو خالفه » ٠

كلمات رائعة ، وتوصيات نابعة من عقل مجرب حكيم ، وما أجدر لو اهتدى بها الأطباء ، فليس كل ما قيل صحيحا ، وما زال كل باحث فى علم الطب يجد ان ما توصل اليه الآخرون فى زمن مضى ليس من الجائز أن يكون كله صحيحا ، بل يحتاج الى تمحيص واستقصاء على هذا الأساس المتين كان ابن النفيس دائم الدرس والتجربة ، لا يقتنع برأى الا بعد التأكد منه ٠ فأوصى بدرس التشريح المقـــارن ، تشريح الحيوانات المختلفة ، لكى يكون هناك المام بالاختلافات والتباين بين هذه الحيوانات ٠ وكان من نتـــائج هــذا البحث والتنقيب ان توصـــل الى الاكتشافات الآنية :

– كان ابن النفيس اول من اكتشف ان القلب يتغذى بواسطة شرايين منتشرة فى أجزاء القلب المختلفة • وبذلك يكون أول من اكتشف الدورة الدموية فى الشرايين التاجية أو الاكليلية للقلب •

٢ – ان هناك اتصالا بين أوردة الرئتين وشرايينها يتمم الدورة الدموية ضمن الرئة • وقد ادعى كولومبو الايطالى انه أول من توصل الى هذا ، علما بأنه نشر هذا البحث بعد وفاة ابن النفيس بما يقرب من ٢٧٢ عاما •

٣ – اكتشف قبل « سارفتيوس » الذى نسب اليه هذا الاكتشاف ، ان جدران أوردة الرئة أسمك بكثير من جدران شرايينها •

٤ – وبكل تأدب واحترام لجالينوس نقد نظريته ، وقال لعلها تكون منقولة خطأ ، وقال فى أدب العالم الجليل : « ليس بين البطينين منفذ ، فان جرم القلب هناك سميك ليس به منفذ ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم – كما ظنه جالينوس – فان مسام القلب هناك مستحصنة وجرمه غليظ •

٥ – بعد أن توصل لهذا الكشف هداه ذلك الى الكشف الخالد للدورة الرئوية « بعد أن يلطف الدم فى التجويف الأيمن من القلب ينفذ الى الرئة ؛ وهناك يخالط الهواء ، ويرشح ألف ما فيه ، وينفذ الى الشريان الرئوى (كما سماه) والمسمى الآن بالوريد الرئوى ، ليوصله الى التجويف الأيسر ، وقد خالط الهواء ، وصلح لأن يتولد منه الروح ، وما بقى منه أقل لطافة تستعمله الرئة فى غذائها •

وقد أكد كشفه هذا فى مواضع أخرى من كتابه الخالد الذى نحن بصدده « شرح تشريح القانون » حين قال « ان نفوذ الدم الى البطين الأيسر انما هو من الرئة بعد تسخنه وتصعده من البطين الأيمن » •

ومن الروايات التى رويت عن ابن النفيس ، والتى تدل على عمق تفكيره وسرعة خاطره انه كان يوما فى الحمام فتركه فجأة الى قاعة اللبس ، وأمر باحضار ما يلزم للكتابة ، وأسرع بكتابة رسالة طويلة فى النبض ! وكان يكثر من الكتابة • وبالرغم من أن أكثر كتاباته كانت تعليقات على مؤلفين سبقوه ، الا انه كان يؤلف بسرعة ودون رجوع الى الأصل • فكانت الاقلام تبرى له ، حتى اذا حفى قلم رماه واختار آخر ، واستمر فى الكتابة دون انقطاع •

وتوفى ابن النفيس بعد مرض دام ستة أيام سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) حسب رواية حاجى خليفة أو سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) حسب رواية

اخرى . وروى ان بعض زملائه وصف له أثناء مرضه أن بتعاطى النبيذ فكان جوابه انه لا يود المثول أمام ربه تعالى وفى جسمه خمر .

ولم يفته قبل وفاته أن يوقف داره الفخمة ، وكتبه ومؤلفاته العديدة على البيمارستان المنصورى فخدم العلم فى حياته وبعد مماته .

هذه صورة رائعة لعالم عاش فى كنف الاسلام ، نبغ فى علمه ، وكرس حياته فى خدمته .. ولا غرو فى ذلك ، فهذا شأن العلماء العرب الذين خدموا الانسانيـة ، وقدموا لها من دمهم وعرقهم وجهدهم أجل الأعمال ، ورفعوا من شأن العلم صرحا باقيا على مر الأجيال . وسبقوا غيرهم فى كل مضمار ، وعلى مائدتهم تعلمت أوربا والعالم بأسره .

العـالم المؤلف

الذى سبق عصره

كان ابن النفيس كثير التاليف ، كما أسلفنا ، وكان ـ حسبما ذكر المؤرخون ـ « يكتب اذا صنف من صدره من غير مراجعة حال التصنيف » . وكان على ثقة اليقين بمـا يقوله ، فقد روى انه قال : « لو لم أعلـم أن تصانيفى تبقى مدة عشرة آلاف سنة ما وضعتها » (٦٨) . وكان ملما بكل ما كتب قبله وموهوبا بقوة نقدية نادرة فى ذاك الوقت ، فقد اشتهر بانتقاده لجالينوس الذى لم يجرؤ على نقضه الا قلة من العلماء . وهذا ما أشير اليه فى عدة تراجم ، وبالعكس فانه كان يعظم كلام أبقراط ، وقيل : « انه شرح كتبه كلها وان لأكثرها شرحين، مطولا ومختصرا » ، وكان يجل ابن سينا « ويحفظ كليات القانون ولا يشير على مشتغل بغير القانون » ، وهو الذى جسر الناس على هذا الكتاب ، ومعنى هذا انه بدأ به فى دراسة كتب ابن سينا وبكثرة تصنيف الشروح لهـا تمكن من تبسيط ما جاء بها ووضعها فى متناول الطالب المتوسط . وهو لم يكتف بمؤلفات ابن سينا فى الطب ، بل اختصر له أيضا ، حسب رواية كثير من المؤرخين كتاب « شرح الهداية » فى المنطق ، وقد اعترف له معاصروه بهذه المقدرة فلقد قال أبو الصـفاء : « قال السديد : قلت يا سـيدى لو شرحت الشفاء لابن سيناء كان خيرا من شرح القانون لضرورة الناس الى ذلك . « قال : الشفا على فيه من مواضع . قلت انه يريد انه ما فهم تلك المواضع لان عبارة الرئيس (أى ابن سينا) فى الشفاء غلقة » ، وقد وضع شرحا للقانون فى عشرين مجلدا شرحا « حل فيه المواضع الحكيمة ورتب فيـه القيـاسات المنطقيـة وبين فيه الاشكالات الطبية ولم

يسبق الى هذا الشرح لأن قصارى كل من شرحه ان يقتصر على الكليات الى نبض الحبالى ولا يجرى فيه ذكر الطب الا نادرا » ٠ ولعل شغفه بدراسة كتابات ابن سينا وبتفسيرها هو سبب نعته بابن سينا الثانى ٠

وكان كريمـــا بمعلوماته وأوصى بوقف داره وما جمعه من الكتب للبيمارستان المنصـــورى ـ كمـــا ذكرنا من قبل ـ وقد يكون استعداده لمشاركة تلاميذه فى معلوماته السبب فى انه قيل عنه انه : « الحبل الذى لا يعلق به الا الفريق السالم ، لم يبق الا من اغترف منه غرفة بيده وأخذ منه حلية لمقلده » ٠ كما قيل انه « كان لا يحجب نفسه عن الافادة ليلا ولا نهارا » ٠

ومن المؤسف حقا انه لم يبق من سيل كتاباته الا النزر اليسير ، ولعل سبب قلة ما وصل الينا منها انها كانت ـ بسبب كبر أحجامها ـ مما يصعب استنساخه ، وربما كشف المنقبون فى خزائن الكتب فى المستقبل عن شىء مما ضاع منها كشرح الاشارات أو المقالة فى النبض أو شروح كتب أبقراط غير التى وصلتنا ٠

على اننا نعرف منها الآتى :

١ ـ كتاب الشامل فى الطب : قال العمرى (٦٩) ان فهرسته تدل « على انه يكون فى ثلاثمائة سفر ، هكذا ذكر بعض أصحابه ، وبيض منها ثمانين سفرا ٠ وهى الآن وقف بالبيمارستان المنصورى بالقاهرة » ٠

ويرجح ان ابن النفيس قصد بهذا المؤلف الضخم بجميع كل ما وصل اليه الطب فى زمانه فى موسوعة تضاهى موسوعة « الحاوى » للرازى ٠ ولا يوجد الآن من هـــذا المصنف الا بعض فقرات فى مكتبـــة البودليان باكسفورد (رقم ٥٣٦ ـ ٥٣٩) ٠ وقال مايرهوف انه غير موجود فى أية مجموعة شرقية وان كان يعلم انه كان موجودا بالقاهرة فى سنة ١٣٥٠ ٠

٢ ـ كتاب المهذب فى الكحل : الموجود فى مكتبة الفاتيكان ، ذاع صيت هذا المؤلف فى زمانه ولم يصل الى علمنا منه الا نبذة اقتبسها منه صدقة بن ابراهيم الشاذلى (عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى) وهى خاصة بتدهور حالة المصابين بانسكاب صديدى فى الخزانة المتقدمة من العين اذا تحركوا ، ونبذة أخرى فى علاج الرمد الحبيبى ذكرها هرشبرج ٠

٣ ـ كتاب المختار من الأغذية : وهو كتاب لم يذكر فى أى ترجمة من تراجمه ولكنه موجود فى مكتبة برلين ، وهو يعنى بالغذاء فى الأمراض

الحادة ، ولذا فقد يكون ايحاؤه من مؤلف أبقراط المسمي « الغذاء فى الأمراض الحادة » ، وقد لقب ابن سينا فى عنوان هذا الكتاب بالرئيس ·

٤ ـ شرح فصـــول أبقراط : موجود فى مكتبـات برلين وجوتا واكسفورد وباريس والاسكوريال وفى أياصوفيا نسخة مؤرخة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) أى سنة وفاته ·

٥ ـ شرح تقديمات المعرفة : وهو تعليق على تكهنات أبقراط · ذكره حاجى خليفة وبروكلمان ·

٦ ـ تعليق على كتاب الأوبئة لأبقراط : موجود فى آياصوفيا ·

٧ ـ شرح تشريح جالينوس (آياصوفيا ٣٦٦١) · وهذا الكتاب يبدأ من الكتاب الثامن ·

٨ ـ شرح مسائل حنين بن اسحق : وأصله موجود بمكتبة ليدن بهولندا ·

٩ ـ شرح القانون ، وقيل انه شرح « فى عشرين مجلدا شرحا حل فيه المواضع الحكمية ورتب فيه القياسات المنطقية وبين فيه الاشكالات الطبية ، ولم يسبق الى هذا الشرح لأن قصارى كل من شرحه ان يقتصر على الكليات الى نبض الحبالى ، ولا يجرى فيه ذكر الطب الا نادرا » ·

١٠ ـ شرح مفردات القانون ومنه نسخة فريدة فى آياصوفيا ·

١١ ـ كتاب موجز القـانون وهو شرح مقتضيب تناول كل أجزاء القـانون فيما عدا التشريح ووظائف الأعضـاء ، الأمر الذى جعله سهل التناول ومحبوبا من الوجهة العملية لمارسى الطب · ولذا فانه انتشر فى كل الشرق وكان له تأثير بالغ فى طب هذه البلاد · أما أصله فموجود منه نسخ فى باريس واكسفورد وفلورنسا وميونخ والاسكوريال ، ويقع فى أربعة أجزاء لا خمسة كما هى حال القانون ، اذ انه ضم كتاب الأدوية الى الجزء الثانى ، وقـد كثرت ترجمته الى اللغـات الأجنبية وتعددت التعليقات عليه ·

١٢ ـ تفاسـير العلل وأسـباب الأمراض : وهو مؤلـف ذكره بروكلمان (٧٠) ·

١٣ ـ شرح « الهداية فى الطب » ·

١٤ ـ شرح تشريح القانون : وهو فى نظرنا مفخرة الطب العربى وجدير بأن نفرد له هذا الفصل من الكتاب ·

● تكرر التاكيد فى ترجمات ابن النفيس وفيما قال عنه معاصروه بان هذا العالم الفذ والذى قيل عنه « انه فرد الدهر وأخو العلم ووالده » ، تكرر التاكيد بانه لم يقتصر مجهوده على ضرب واحد من ضروب العلم ، فلقد قيل فى لغة زمانه المزدهرة انه « لم يكن على علم واحد بمختصر ولا يشبهه بالبحر الا مختصر » الى عبارات أخرى من الاطراء ، وان كانت تبدو غريبة على آذان قارىء القرن العشرين · كما جاء فى « مسالك الابصار) أنه صنف فى المنطق مختصرا وشرح الهداية لابن سينا فى المنطق ، وكان له فى ذلك اتجاه خاص ، اذ يبدو أنه كان يميل فى ذلك الى طريقة المتقدمين كابن سينا ، كما كان يكره طريقة معاصريه من أمثال الخونجى والأثير الأبهرى · والف غير ذلك كله فى اللغة وعلم البيان والحديث ·

أما الفقه فانه تولى تدريسه بمدرسة المسرورية بالقاهرة ، وشرح فيه فى أول التنبيه الى باب السهو شرحا حسنا · وكان ينتمى الى المذاهب الشافعية ، حتى ان تاج الدين السبكى ترجم له فى كتاب « طبقات الشافعية » الذى تناول أعيان هذا المذهب ·

ويمكن اختصار ما ألفه ابن النفيس فى غير الطب على الوجه الآتى :
* فى النحو : « طريق الفصاحة » ·

* فى القانون : « شرح لكتاب التنبيه فى فروع الشافعية لأبى اسحق ابراهيم الشيرازى » ·

* فى المنطق : (١) « شرح كتاب الهداية فى الفلسفة لابن سينا » وهو كتاب يتناول المنطق · وقد قيل انه شرح كتاب الهداية فى الطب لابن سينا ولعل هذا خطأ فى النسخ اذ يبدو أنهما كتاب واحد ، ومما يؤسف له انه لم يصل الينا لا كتاب ابن سينا ولا شرح ابن النفيس له · (٢) « شرح الاشارات » وهو كتاب ابن سينا الرئيسى فى المنطق ·

* فى العلوم الدينية :

١ ـ « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » ·

٢ ـ « مختصر فى علم أصول الحديث » ·

٣ ـ « فاضل بن ناطق » ·

لو أن ما ذكرناه هو كل ما يؤهل اسم ابن النفيس للخلود لكان كافيا لأن يكفل له مكانة رفيعة في مصاف هؤلاء الأفذاذ ، الضالعين في العلم والفكر ، الذين وزعتهم العصور الوسطى في بلاد متعددة ، والذين أحاطوا بفضل عقولهم النادرة بكل ما توصل اليه عصرهم من شتى صنوف المعرفة ··· وانما فخر ابن النفيس ، بل فخر العرب في كل مكان ان يكون هذا العالم الفذ قد تطاول على القيود التقليدية التى كانت تشل نشاط المشتغلين بالعلم ، وتحرر من سيطرة جالينوس وابن سينا ، وأنكر — في جرأة — كل ما لم تره عينه أو يصدقه عقله ، وهذا في مؤلفه العظيم « شرح تشريح القانون » الذى بات في غمار المكتبات ، لم يثر انتباه القراء خلال ستة قرون حتى ان لكليرك leclerc اكتفى في مؤلفه عن طب العرب بأن قال : انه موجود في مكتبات باريس والاسكوريال واكسفورد ، الى أن عثر عليه طبيب مصرى هو الدكتور محيي الدين التطاوى ســـنة ١٩٢٤ في مكتبة برلين وقد قام التطاوى بدراسته في الرسالة التى قدمها لنيل الدكتوراة من جامعة فريبورج بالمانيا ·

ولنلق نظرة الآن على هذا المؤلف ·· فنجد انه ليس هناك أكثر دلالة على الروح السائدة فيه ، مما ورد في مقدمته ، تلك الروح التي عبرت عن احترامه للدين والشريعـة ثم للقدماء أى جالينوس وابن ســينا ، وافصحت أخيرا عن اعتماده على النظر المحقق والاستقصاء الشخصي مهما كان رأى هؤلاء ، قال :

« وبعد حمد الله والصلاة على أنبيائه ورسله ، فان قصدنا الآن ابراز ما تيسر لنا من المباحث على كلام الشيخ الرئيس أبى على الحسن بن عبد الله ابن سينا رحمه الله في التشريح في جملة كتاب القانون · وذلك بأن جمعنا ما قاله في الكتاب الأول من كتاب القانون الى ما قاله في الكتاب الثالث من هذه الكتب ، وذلك ليكون الكلام في التشريح جميعه منظوما ، وقد حدانا عن مباشرة التشريح وازع الشريعة ، وما في أخلاقنا من الرحمة ، فلذلك رأينا ان نعتمد في تعرف صور الأعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر خاصة الفاضل جالينوس ، اذ كانت كتبه أجود الكتب التى وصلت الينا في هذا الفن ، مع انه اطلع على كثير من العضلات لم يسبق الى مشاهدتها ، فلذلك جعلنا أكثر اعتمادنا في تعرف صور الأعضاء وأوضاعها ، ونحو ذلك على قوله الا في أشياء يسيرة ظننا انها من

أغاليط النساخ ، أو اخباره عنها لم يكن من بعد تحقق المشاهدة فيها . وأما منافع كل واحد من الأعضاء فانما نعتمد فى تعرفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم ولا علينا وافق ذلك رأى من تقدمنا أو خالفه » .

ولكى ندرك أثر الاتجــاه فى التفكير ومداه البعيد يستحسن أولا عرض نظرية حركة الدم حسب رأى جالينوس التى كملها بعده ابن سينا ، ثم ذكر تعليقات ابن النفيس عليها .

وحين نقول حركة الدم نود أن نميز بين الحركة والدورة ، اذ أن فكرة الدورة لم تنشأ الا فى القرن السابع عشر ، وان تلك الحركة كانت تعتبر مجرد مد وجزر فى الأوعية . وتبعا لهذه النظرية كان الوريد البابى ينقل الغذاء من الأمعاء الى الكبد حيث كان يتحول الى دم . ثم كان الدم يسرى من الكبد الى سائر الأعضاء عن طريق الأوردة ، فكان يذهب الى المخ عن طريق الوريد الأجوف العلوى .

وكان ما يسمى بالوريد الأجــوف العلوى مكونا من جزء الوريد الأجوف السفلى الحالى الواقع بين الكبد والقلب ، ومن الوريد الأجوف العلوى الذى كان يعتبر مكملا له ، أما القلب الأيمن فانه كان ينظر اليه كجيب للوريد لا منفذ له . وكان الدم ــ تبعا لهذه النظرية ــ يصل من الكبد الى التجويف الأيمن ، فيتخلص فيه من الشوائب التى تكون قد علقت به فى مختلف الأعضاء ، ثم يعود مطهرا الى الأوردة ، ومنها الى الأحشاء ، بينما تذهب الشوائب عن طريق الوريد الشريانى (الشريان الرئوى) الى الرئة ، وتتصعد الى الزفير .

الا ان جالينوس وجد أن الأوعية الواردة الى القلب أكثر اتساعا من الأوعية الخارجة منه ، فاستنتج من ذلك ان الدم الوارد اليه أكثر من الخارج منه عن طريق الأوعية ، مما جعله يزعم ان هناك منفذا يتسرب منه الفرق بين الكميتين الى البطين الأيسر ، وان هذا المنفذ يقع فى الحاجز بين التجويفين ، ويفسر وجود بعض الدم فى الشرايين .

وكذلك الحال بالنسبة للقلب الأيسر فان الأورطى كانت تعتبر امتدادا للقصبة الهوائية وتوصل الهواء الى القلب ، حيث يمتزج الدم النافذ من البطين الأيمن فتتولد منهما الروح التى تسرى فى الشرايين .

لقد كــان الجهــاز الوريدى فى نظر جالينوس منفصلا تمامــا عن الجهــاز الشريانى فيما عدا منــافذ القلب المزعومة ، وكانت وظيفتاهما مختلفتين ، فالأول ينقل الــدم من الكبـــد الى القلب ، ومن القلب الى

الأنسجة ، أما الآخر فينقل الروح من القلب الى كافة الاعضاء • ظلت هذه النظرية عقيدة جامدة حتى القرن السابع عشر ، وحتى بين أكبر الأطباء استقلالا فى الفكر ، فقد آمن بها ابن سينا ، وسجلها « ليوناردو دافنشى » فى لوحاته التشريحية ، عندما كانت النهضة العلمية الايطالية فى ذروتها ، بالرغم من انه قام هو نفسه بتشريح عدة جثث •

لننظر الآن الى ما ورد من تعليقات ابن النفيس على ما قاله ابن سينا وجالينوس •

ويمكن حصر ما أتى به ابن النفيس من جديد فى الفقرات التالية الخاصة بالروح ، والتى يتضح منها مبدئيا ان المؤلف قبل النظرة السائدة ، وهى ان البطين الأيسر والشرايين مليئة بالروح ، وان الروح تتولد فى التجويف الأيسر باختلاط الدم بالهواء • قال ابن النفيس :

« والذى نقوله نحن والله أعلم ان القلب لما كان من أفعاله توليد الروح ، وهى انما تتكون من دم رقيق جدا شديد المخالطة لجرم هوائى ، فلابد ان يحصل فى القلب دم رقيق جدا وهواء ليمكن أن يحدث الروح من الجرم المختلط منهما ، وذلك حيث تولد الروح وهو فى التجويف الأيسر » •

ثم يفسر ضرورة الرقة الشديدة فى الدم الواصل الى التجويف الأيسر وكيفية حدوث هذه الرقة • فيقول : « ولابد فى قلب الانسان ونحوه مما له رئة من تجويف آخر يلطف فيه الدم ليصلح لمخالطة الهواء ، فان الهواء لو خلط الدم وهو على غلظه لم يكن جملتهما جسما متشابه الأجزاء ، وهذا التجويف هو التجويف الأيمن » •

نستطيع اذن أن نستخلص ان وجود تجويف آخر محتم فى نظره لضرورة تلطيف الدم تمهيدا لمخالطته الهواء • وهذا استنتاج غائى بحت ، ونعنى بذلك استنتاج وجود شيء من ضرورته •

ويسترسل ابن النفيس فى سرده لآرائه فيقول :

« واذا لطف الدم فى هذا التجويف (أى الأيمن) فلابد من نفوذه الى التجويف الأيسر حيث مولد الروح » • وهذا بالطبع ضرورى لاتمام نظريته فى تكوين الروح •• ثم يضيف : « ولكن ليس بينهما منفذ فان جرم القلب هناك سميك ليس فيه منفذ ظاهر كما ظنه جماعة ، ولا منفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم ، كما ظنه جالينوس • فان مسام القلب هناك مستحصنة وجرمه غليظ » •

من أين اذن يكون مرور الدم ؟ ألم ينكر صراحة وجود مسام فى الحاجز ؟ لقد بحث ابن النفيس عن مكان هذا الاتصال ، فلم يزد من أن

يقطع بأن الدم بعد ان يلطف فى التجويف الأيمن ينفذ الى الرئة وهناك ـ على حـد قوله ـ يخالط الهواء ويرشح الطف ما فيه وينفذ الى الشريان الوريدى (الوريد الرئوى) ليوصله الى التجويف الأيسر ، وقد خالط الهواء وصلح لأن يتولد منه الروح ويضيف : ما بقى منه أقل لطـافة تستعمله الرئة فى غذائها » ٠

وقد أكد هذا فى موضع آخر بقوله : « فان نفوذ الدم الى البطين الأيسر انما هو من الرئة بعد سحبه وتصعده من البطين الأيمن كما قررنا أولا »

وكأنه لم يكتف بكل هذا ، فأراد زيادة التأكيد بأن الدم انما يجرى فى اتجاه واحد وأنه ليس موضوع مد وجزر ، فقال أيضا قوله : « واتصال الدم الذى يغذو الرئة ، الى الرئة من القلب (وهو يعنى البطين الأيسر) ، هذا هو الرأى المشـهور وهو عندنا باطل ٠٠ وأما نفوذ الدم من القلب الى الرئة فهو فى الوريد الشريانى (الشريان الرئوى) ٠

يبدو بوضوح فى كل هذه الفقرات أن ابن النفيس اهتدى الى أن اتجاه الدم ثابت ، وانه يمر من التجويف الأيمن الى الرئة حيث يخالط الهواء ، ومن الرئة عن طريق الشريان الوريدى (الوريد الرئوى) الى التجويف الأيسر ٠ ويفسر هذا فى فقرة أخرى بقوله : « فلابد ان يكون هذا الدم اذا لطف نفذ فى الوريد الشريانى (الشريان الرئوى) الى الرئة لينبث فى جرمها ويخالط الهواء ويصفى ألطف ما فيه ، وينفذ الى الشريان الوريدى ليوصله الى التجويف الأيسر ٠ ثم فى مكان آخر : وجعل الشريان الوريدى نحيفا ذا طبقة واحدة ليسهل قبوله لما خرج من ذلك الوريد ، ولذلك جعل بين هذين العرقين منافذ محسوسة ٠

وفيما يتصل بهذه المنافذ يجب أن نتذكر ان العدسة المكبرة لم تكن قد اخترعت بعد ، وان مالبيجى لم يكشف عن الأوعية الشعرية الا بعده بقرون ، مما جعل الشرايين تعتبر منفصلة انفصالا تاما عن الأوردة ٠

ولذلك فان ابن النفيس لم يبعد كثيرا عن الحقيقة عندما قال ان الدم فى جرم الرئة ليخالط الهواء ، وانه يمر من مسام بين العرقين ، منافذ محسوسة هى بمثابة الأوعية الشعرية فتنبأ باكتشـاف الأوعية الشعرية ٠

وهناك نقطة أخرى لم يوافق فيها ابن سينا ، وهى : عدد تجاويف القلب قال : « وفيه ثلاثة بطون وهذا كلام لا يصح فان القلب له بطنان فقط احدهما مملوء من الدم وهو الأيمن ، والآخر مملوء من الروح وهو الأيسر ، ولا منفذ بين هذين البطنين البتة ، والتشريح يكذب ما قالوه ٠

وهذه العبارة الأخيرة جديرة بالتأمل • لقد سبق ان قال لنا فى ديباجته : « وقد صدنا عن مباشرة التشريح بوازع الشريعة ، وما فى اخلاقنا من الرحمة » وها هو ذا يقدم لنا الدليل على اعتماده على هـذا التشريح اذ يقول : « والتشريح يكذب ذلك » • ولسنا نجد تفسيرا لهذا التناقض الظاهرى سوى انه حرص على عدم اثارة حنق رجال الدين ، شأنه فى ذلك شأن كثيرين من العبـاقرة المجددين ، أمثال كوبرنيكوس وجاليليو ، عندما استهلوا مؤلفاتهم الثورية بتأكيد تبعيتهم للعقائد الدينية السائدة فى عصرهم • كما انه حرص على ألا يتهم بالجهل ، كما كان يتهم كل من ينكر تعاليم جالينوس اذ اعتذر عن هذا النقد حيث قال فى نفس الديباجة : « الا فى أشياء يسيرة ظننا انها من أغاليط النساخ » وذلك لاثارة الشك فى أمانة النساخ لا فى علم الفاضل جالينوس •

وحسبنا لنستعرض ما فى هذا الكتاب من فقرات أخرى تستحق الذكر وتحض على التأمل والاعتبار ، ان نذكر عبارة واحدة لها أهمية قصوى بالنسبة لتاريخ الطب ، وهى خاصة بتغذية عضلة القلب التى كان قد قال عنها ابن سينا : انها عن طريق الدم الموجود فى تجويفه مباشرة ، يقول ابن النفيس : « ليكون له مستودع غذاء يغتذى به وجعله الدم الذى فى البطين الأيمن منه يغذى القلب لا يصح البتة ، فان غذاء القلب انما هو من الدم المار فيه من العروق المارة فى جرمه •• وهذه العبارة تجعل ابن النفيس أول من فطن الى وجود أوعية داخل عضلة القلب تغذيها ، وهى تضيف دليلا آخر على ان ابن النفيس مارس التشريح ، كما انهـا تجعل منه أول من وصف الشريان الاكليلى وفروعه لنثبت الفارق الجسيم بين نظرة جالينوس وابن سينا من جهة ، ونظرة ابن النفيس من جهة أخرى •

نقارن آراء ابن النفيس بنظريات معاصريه ، فندرك ما ليس فيه من شك وهو ان تفكيره سبقهم بعدة قرون • ولنا أن نتساءل ألم تكن بحوث ابن النفيس جديرة فعلا بالتبصر والاعتبار ؟ أكانت تعاليمه منسية حقا قبل ان يقدر لها البحث اليوم ؟ •• الحقيقة ان هذا الاهمال الذى وقعت ضحيته تعاليم هذا الرجل العبقرى ، والذى لم يكن فى واقع الأمر الا اهمالا من الزمن ، كان منشؤه تلك الهالة ، هالة القداسة التى أحاطت ردحا طويلا من الزمن بأقوال جالينوس وابن سينا ! كان العلماء يؤمنون بكل كلمة من كلماتهما ويذعنون فى خشوع لكل تعاليمهما ، الى حد ان أى انحراف عنها كان يعد بمثابة الحاد • ولقد روى عن « ريولانوس » قوله : ان حدوث أى اختلاف بين نتائج التشريح وبين قضايا جالينوس يكون مرده الى تغير طرأ على الطبيعة •• ولذا فان هذا العبقرى حين ينصف

اليوم ، انما يتحقق له بدل المجد مجدان : مجد اكتشافاته الواقعية ، وقبل ذلك مجد جسارته العلمية النادرة التى دفعته الى رفض سيطرة القدماء ، وتنظيف عقله ـ قبل أن يفكر ـ من كل ما كان عالقا به من صور وآراء • وهذه الجسارة هى من غير شك احدى السمات الأصيلة فى كل انتاج عبقرى •

***

كتاب التشريح كان له أكبر الأثر فى نظرية هارفى من بعده

هكذا نرى مما سبق ان تفكير ابن النفيس سبق معـاصريه بعدة قرون ، الا انه يجدر بنا ان نتساءل من جديد : هل كانت تعاليمه منسية حقا الى أن كشف عنه التطاوى بعد سبعة قرون ؟ ٠

لقد ظل العالم العلمى يؤمن بتعاليم جالينوس ، ولاهيا عما كتبه ابن النفيس طيله قرون ثلاثة ٠ وفجأة ، كما لو أن سدا انفجر ، انبرى ثلاثة علمـاء فى غضون ٦١ سـنة يصفون دورة الدم فى الرئة بنفس الألفاظ التى استعملها ابن النفيس ٠ وهم ميشيل سرفتوس الاسبانى فى مؤلفه اللاهوتى سنة ١٥٥٣ (Christianismi restituto) .

الذى حكم عليه من أجله بالاعدام حرقا ، ثم ريالدو كولومبو الذى شغل كـرسى التشريـح فى بادوا ونشر النظـريات ذاتهـا فى مـؤلفه (De re anatomica) سنة ١٥٥٩ بعـد مرور ست سنوات على مؤلف سرفتوس ، وان كان قد حاول أن يؤكد انه قام بتأليفه قبل ظهور هذا المؤلف وأخيرا هارفى الانجليزى الذى درس فى بادوا وتتلمذ على تلاميذ كولومبو ، وجمع كل ما قاله سابقوه ، وضمه الى تجاربه الخاصة فى مؤلف De motu cardis سنة ١٦٢٢ ،فعد بذلك أول من اهتدى الى سر الدورة الدموية ، وان كان قد سبقه الايطاليون الى ذلك ٠

لقد أصر المؤرخون الغربيون على القول بأن تعاليم ابن النفيس أصابها النسيان ، وبأن سرفتوس وكولومبو وهارفى اهتدوا الى هذا السر مستقلين عنه ، بل مستقلا كل منهما عن الآخر ٠

ولكن هناك ، على الأقل ، برهانين يدلان على ان الغرب لم يجهل ابن النفيس وان كان قد تجاهله ٠

أما أولهما : فهو ترجمة باللاتينية نشرت فى البندقية سنة ١٥٤٧ ، قام بها طبيب ايطالى اسمه (ألباجو) زار دمشق لدراسة اللغة العربية ولتصحيح ترجمات ابن سينا اللاتينية وهى تذكر فقرات كثيرة من كتاب « شرح تشريح القانون » وهو المؤلف الذى نحن بصدده ٠ وان كانت لا تشتمل على الفقرات المتعلقة بدورة الدم الرئوية ٠ وقد أكد (ألباجو) فى مستهل مؤلفه ان هذه هى أول مرة تنشر فيهـا ترجمة لاتينية لهذا المؤلف ٠

وبمقارنة تاريخ نشر تلك الترجمة (١٥٤٧) فقد سبقت بست سنوات مؤلف سرفتوس (١٥٥٣) وباثنتى عشرة سنة مؤلف كولومبو (١٥٥٩) الذى لا يشك أحد اليوم فى أن هارفى قد اقتبسه · هل يعتبر من قبيل المصادفة ان يظهر ، بعد صمت ظل ثلاثة قرون ، ثلاثة مؤلفات الواحد تلو الآخر ؟ ·

أما البرهان الثانى : على تسلل تعاليم ابن النفيس الى الغرب فهو وجود مخطوط عربى يرجع الى القرن السابع عشر فى المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٥٧٧٦ حيث اكتشفه عبد الكريم شهادة · وهذا المخطوط تنقصه للأسف صفحاته الأولى وصفحاته الختامية مما يجعل من المتعذر معرفة اسم مؤلفه · وهو عبارة عن تعليق على قانون ابن سينا يتضمن فى ثناياه اعجابا بالغا بابن النفيس الذى يلقبه بالقرشى · وقد اتبع منهجا يورد بموجبه أقوال ابن سينا أولا ثم يتبع ذلك بقوله « ولكن القرشى يقول كذا وكذا » · وبهذه الطريقة بسط نظرية ابن النفيس عن الدورة الدموية فى الرئة فى عدة صفحات ·

ومن هنا نجد انه من المحتمل أن تكون تعاليم العالم العربى قد تسللت الى علماء النهضة الغربيين عن أحد طريقين : اما عن طريق الأندلس واسبانيا حيث نشأ سرفتوس ، واما عن طريق ترجمة ألباجو · وهذا بالاضافة الى طريق ثالث هو جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا حيث عنى ملوكها النورمانديون أمثال فردريك الثانى بتشجيع العلماء العرب ، وبالبحث على ترجمة مؤلفاتهم ، ومنهما تنتقل الى بالريمو وبولونيا وبادوا وبقية أوربا · ولم تكن الأمانة العلمية من مميزات هذا العهد ، بل ربما كان العلماء المسيحيون يخشون ذكر منابع علمهم غير المسيحية خوفا من الحكم عليهم بالهرطقة ·

★★★

مسرحيات شكسبير

١٥٩٠ - ١٦١٦ م

العصر الذهبى للأدب الانجليزى

بلغت انبعاثات عصر النهضة فى انجلترا ذروة ازدهارها أثناء حكم الملكة اليزابيث الأولى الذى امتد من عام ١٥٥٨ حتى عام ١٦٠٣ ، فقد خرجت انجلترا اذ ذاك من ظلام العصور الوسطى ، ومن عزلتها وأصبحت فى عداد الدول العظمى خصوصا بعد هزيمة الأرمادا الاسبانية ٠

وبدأ تحول فى تفكير الناس من الدعـوة الى التقشف والانشـغال بالحياة الأخرى الى مشـاكل الحيـاة على هـذه الأرض ٠ وكان لدعـوة « الهيومانزم » أو الانسانية أثرها فى نشأة رجال ذلك العصر سواء فى الميدان الفكرى لمعرفة كل جديد طريف ، أو الاقدام على كشف كل مجهول فى النواحى المادية الصرفة ، فظهر من الرواد المغـامرين « والتررالى » و « فرانسيس دريك » ومن أعلام المثقفين ثقافة عليا « فيليب سدنى » ومن الفلاسفة « فرانسيس باكون » ومن العلماء الطبيعيين « وليام جلبرت » كما امتاز هذا العصر بكثرة الرحلات والاسفار والاستكشافات الجغرافية والفلكية ، والرخاء ويسر الحياة والتطور السريع فى لغة القوم وعلومهم وطرز عمارتهم وأنواع ملابسهم وأخلاقهم وفنونهم ، ويقظة فى عالم الأدب سواء فى الشعر أو النثر أو الخطابة أو المسرح حتى أطلق على هذه الحقبة « العصر الذهبى للأدب الانجليزى » ٠

وابان هذا التحول الخطير تألقت عبقرية رجل أصبح اسمه يطرق كل سمع فى انجلترا بل صار فى الصف الأول بين الأدباء العالميين ، وقدر له أن يكون أحد مفاخر بريطانيا ومن أبرز أعمدة تراثها القومى ٠

فمنذ حوالى أربعة قرون واسم وليام شكسبير يلمع كأكبر كاتب مسرحى ، وتحتل مسرحياته مكانا مرموقا فى دور التمثيل ويزداد يوما بعد يوم عدد المستمتعين بمسرحياته التى ترجمت الى معظم لغات العالم ٠

ويرجع الفضل فى دوام شهرته الى أن مسرحياته زاخرة بالمواقف الصادقة والشخصيات الحية ، كما أن لغته صالحة للقراءة أو الاستماع اليها ، وكذا الأداء التمثيلى ... والأهم من ذلك أن شكسبير يعد كاتبا انسانيا عالميا تعمق فى دراسته للمجتمع وتفهمه .

فكوميدياته حافلة بمواقف الغرابة وشخصياتها مرحة ، أما الحوار فيمتاز بملاحة النكتة وسرعة الخاطر ، ويؤثر تأثيرا قويا على مشاهديها وينقلهم الى عالم مفعم بالفرح والسرور .

وتراجيدياته وان كانت تدعو الى الحزن والأسى فانها تأخذ بمجامع القلوب وتحرك المشاعر وتهزها هزا عنيفا وتوقظ فى النفوس والعقول التأمل والتفكير العميق فى جوانب الحياة حلوها ومرها .

***

قصة حياة

اعظم شعراء انجلترا

ولد وليام شكسبير أعظم شعراء انجلترا فى بلدة « ستراتفورد » على نهر أفون بانجلترا فى السنة السادسة لحكم الملكة اليزابيث الأولى يوم ٢٣ ابريل ١٥٦٤ ، وكان الطفل الثالث لأبويه بعد بنتين ماتتا قبل ولادته ثم رزقا من بعده ثلاثة صبية وبنتين ، مات معظمهم فى سن الصبا وقد نجا شكسبير نفسه باعجوبة من وباء الطاعون الذى أصاب ستراتفورد بعد سنة من مولده ٠

كان والده « جون ريتشارد شكسبير » وهو من خاصة الناس يعمل فى التجارة والزراعة فى ستراتفورد التى اتخذ منها موطنا له منذ عام ١٥٥٢ ، وكان يشغل مركز شيخ البلد منذ عام ١٥٦٥ ثم ارتقى الى وظيفة العمدة عام ١٥٧١ ، وقد حالف الرجل سوء الحظ منذ عام ١٥٨٦ فكسدت أعماله وتدهورت حالته المالية ، وتخلى عن وظائفه وأشرف على الافلاس بعد ان فقد معظم ثروته فى آخريات حياته التى اختتمها عام ١٦٠١ وترك لابنه وليام أملاكا ضئيلة مما اضطره الى ان يعول نفسه وهو ما يزال فى سن مبكرة ٠

أما والدته « مارى روبرت آردن » فقد انحدرت من أسرة شريفة ينتهى نسبها الى الملك الفريد الكبير ، وهى أرقى من أسرة زوجها وكان والدها من أصحاب الأملاك الواسعة وقد خلف لها معظم ثروته ، بيد ان هذه الثروة ضاعت فيما بعد أيضا ٠

وتقع بلدة « ستراتفورد » على بعد ٩٢ ميلا الى الشمال الشرقى من لندن بمقاطعة « وروركشير » المسماه قلب انجلترا اذ انها تحتل منطقة ريفيـة جميلة فى وسط انجلترا ٠ وعلى عهـد شـكسبير كانت حافلة بالمزروعات والغابات الكثيفة ٠ وكانت البلدة نظيفة متألقة ويسير فيها التطور بخطى واسعة سريعة ٠ وبالقرب منها تقع غابة الأردن الشهيرة وقصرا ووروبك وكنيلورث ٠

التحق شكسبير وهو فى السابعة من عمره بمدرسة ستراتفورد التى اشتهرت باسم « مدرسة الأجرومية الحرة » وبقى فيها حتى سن الثالثة عشرة حيث درس العلوم الأولية واللغة الانجليزية وعلم البيان والمنطق والتاريخ واللغة اللاتينية وقليلا من اليونانية وجانبا من الآداب القديمة

اليونانية واللاتينية ، ومما يسترعى الانتباه ان هذه المدرسة التى كان يديرها « ماستررو ش » المعروف بصرامته ، كانت مشهورة بأنها من دور العلم التى تعنى عناية فائقة بتعليم طلابها وتثقيفهم ، يقوم بالتدريس فيها طائفة من الأساتذة المتخرجين فى جامعة اكسفورد • وقد اضطر وليام الى قطع دراسته فى هذه السن الباكرة بسبب المتاعب المالية التى لاقاها والده آنذاك وعكف على مساعدته فى أعماله

ويعتقد ان شكسبير حصل على معلومات واسعة فى علم الاحياء وعن الألعاب الرياضية والتجارة والمبادلات وحياة أهل الريف والحضر وهواية الصيد والقنص وفنون الرقص والموسيقى وغير ذلك من فروع الرياضة والفنون ، كما درس الكيميـاء والفلك والفولكلور والطب والقـانون ، فاجتمعت له ثقافة مستفيضة سواء من قراءاته الحرة أو ملاحظاته الثاقبة للعالم المحيط به • كما كان للمناظر الطبيعية فى مسقط رأسه من ريف جميل وحدائق وغابات وأنهـار تأثيرها القوى فى نفسه . اذ ظهر أثرها جليا فى شعره فيما بعد •

ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره اقترن يوم ٢٧ نوفمبر عام ١٥٨٢ بالآنسة « آن هاثا واى » وهى ابنة مزارع غنى من قرية « شوترى » القريبـة من ستراتفورد ، وكان صـديقا لوالده وكانت تكبره بثمانى سنوات ، وهذا التفاوت فى السن كان له أثره فان حياتهما سويا لم تكن سعيدة • وقد رزقا عام ١٥٨٣ بابنتهما الأولى « سوزانا » ثم أنجبا توءمين ذكرا وأنثى هما « هامنت » و « جوديت » •

وتكتنف حياته الغموض فيما بين عام ١٥٨٣ و ١٥٩٢ ويقال انه عمل خلالها معلما باحدى المدارس الريفية وبمكتب أحد المحامين وبأملاك أحد الأغنياء أو انضم الى فرقة تمثيلية جوالة •

وقيل انه قبض عليه هو وبعض أصدقائه وهم يصطادون بغير اذن الأرانب والغزلان فى أملاك السير توماس لوسى أوف كارلكوت بالقرب من وورويك وأثناء حبسه ظهر باكورة أدبه بهجوه هذا الشريف الذى أجبره على ترك البلدة •

كانت هذه الحادثة سببا لتوجهه الى لندن عام ١٥٨٦ باحثا عن الرزق فاضطر بادىء الأمر الى العمل فى مهنة متواضعة فى احد المسارح كملاحظ لخيول النظارة ومناد وملقن ثم اشترك مع تلك الفرقة فى اعادة كتابة المسرحيات وفى التمثيل ، ومن المحتمل انه كان قد تدرب على العمل المسرحى أثناء شبابه فى ستراتفورد أو شاهد على الأقل بعض المسرحيات

التي كانت شائعة في ذلك العصر والتي كانت تقوم بتقديمها بعض الفرق الجوالة ممن ترددت على ستراتفورد ٠

ومما يقال كذلك انه سافر في رحلات خارجية الى أوربا والشرق ، ويحتمل انه كان يتردد على جامعة اكسفورد للدراسة خلال هذه الفترة من حياته ٠

ومن المؤكد انه كان مقيما في لندن عام ١٥٩٢ ، وانه صار معروفا للجمهور كممثل وكاتب مسرحيات في فرقة الايرل أوف لستر ، وأصاب نجاحا سريعا ، وكانت سنه آنذاك ثمانية وعشرين سنة وقد أشير اليه لأول مرة في مؤلف للكاتب المسرحي « روبرت جرين » الذي اتهمه بالاقتباس من أعمال غيره من الكتاب ٠

وفي الفترة بين عام ١٥٩٢ ، عام ١٥٩٤ أغلقت مسارح لندن بسبب انتشار وباء الطاعون فكتب شكسبير خلالها بواكير أعماله الشعرية من النوع المعروف بالسرنيت فلمـــا لاقت نجاحا باهرا تفتقت عبقريته عن قصيدتين قصصيتين طويلتين من الشعر الوجداني الأولى هي « فينوس وادونيس » عام ١٥٩٣ والثانية هي « اغتصاب لوكريس » عام ١٥٩٤ ٠ ومنذ ان ظهرت هاتان القصيدتان توطدت مكانته كشاعر ٠

وبانتهاء الوباء الذي اكتسح لندن عادت المسارح الى نشاطها وتكونت فرق تمثيلية جديدة ، ومن ثم عاد الى عمله المسرحي رغم انه أصيب بكارثة أثرت عليه تأثيرا كليا بوفاة ابنه الوحيد « هامنت » فقدم بعض أعماله في مسارح كان يملكها جيمس بورباج ٠

ولما شرع جيمس بورباج عام ١٥٩٨ في انشاء مسرح « جلوب » شاركه شكسبير بماله وفنه وعمله فاحرزا ربحـا وفيرا من المؤكد ان شكسبير اصابه ذروة النجاح في ذلك العام ومن ثم كان مسرح « جلوب » عزيزا على نفسه وظل بورباج صديقه الحميم حتى آخر أيام حياته الفنية ٠

وقد منح والده ــ تقديرا لخدماته ــ رتبة عام ١٥٩٦ رفعته الى طبقة السادة والنبلاء وكان لها أثر بالغ الأهمية بالنسبة لشكسبير كممثل ، فقد كان الممثلون في تلك الأيام يسلكون في طبقة المجرمين والمتشردين ، وكان حصول والده على هذا التكريم بمساعي وليام الذي صار له أصدقاء كثيرون من النبلاء وفي حاشية الملكة اليزابيث ، وقد كانت هي نفسها مغرمة بشعره يرويه هو نفسه لها ، وبمشاهدة تمثيلياته التي تقدم على مسرح البلاط ٠

وفى العام نفسه أبرز « فرانسيس ميرز » نجاحه كشاعر ومؤلف مسرحي وعلق على اثنتى عشرة من مسرحياته مشيرا الى عبقريته التى استفاضت شهرتها وهو ما يزال على قيد الحياة ·

ولما توفيت الملكة اليزابيث الأولى عام ١٦٠٣ واعتلى العرش الملك جيمس الأول كتب للشاعر بيده خطاب اعجاب وجعل فرقة شكسبير المسرحية تحت رعايته وأطلق عليها اسم « الفرقة الملكية » اذ انها كانت أنجح الفرق المسرحية فى تلك الأيام واعتبر شكسبير وغيره من الممثلين أعضاء فى حاشية الملك ومنحوا رواتب ثابتة ورتبا عسكرية رسمية ، وهذه الفرقة هى التى كانت تعرف من قبل بفرقة « ايرل دربى » فترة ، وفرقة « لورد تشمبرلين » فترة أخرى ·

وفى عام ١٦٠٧ أصبح شكسبير عضوا فى جماعة كتاب العصر العظماء وهذا النادى الأدبى أسسه السير « والتر رالى » وكان رئيسه الروحى هو « بن جونسون » وكان شكسبير ألمع أعضائه لدماثته ونبوغه وكثيرا ما كانت تنشب مساجلات بينه وبين بن جونسون الذى دأب على نقده بقسوة ومع ذلك فقد كان يكن له أبلغ تقدير وقرظه بقصيدة مشهورة مفعمة بأحاسيس وعواطف صادقة ·

ومن العجيب ان يوم وفاته كان مطابقا لتاريخ مولده — ٢٣ ابريل ١٦١٦ — وهو عيد سان جورج ، بعد أن مرض مرضا قصيرا عن اثنين وخمسين عاما بالتقويم القديم « اليولياني » أى يوم ٣ مايو بالتقويم الحالى « الجريجورياني » ودفن فى الخامس والعشرين منه فى محراب كنيسة « الثالوث المقدس » فى ستراتفورد ·

وقد حزنت الأوساط الأدبية آنذاك لفقده وعبر عن كامل الاعجاب به والتقدير له معاصره الأديب « بن جونسون » فقال « ··· انه كان ذا طبيعة رحبة حرة ، وذا خيال ممتاز وأغراض شريفة ، وتعبيرات رشيقة وكان ذكاؤه طيعا لارادته » ·

وبعد خمسة وستين عاما على وفاة الشاعر سجل حياته المؤرخ الانجليزى « جورج اوبرى » أول المترجمين لسيرته فوصفه بأنه « مليح الوجه ذو هيئة حسنة ، حلو المعشر ، وديع النفس ، رضى الخلق ، حاضر النكتة ، لماح البديهة ، خصب القريحة » · ثم ظهرت سيرة دقيقة لحياته بعد وفاته بمائة عام من قلم المؤرخ البريطانى نيقولاس راو ·

كما قرظه غيره من كبار رجال الفكر فى بريطانيا منهم ·· جون ملتون ، وجون دريدن ، والكسندر بوب ، وصمويل جونسون ، وتشارلس

لامب ، وتوماس كارليــل وماكولى ، ومن الألمــان لسنج وهريدر وجوته وشليجل الذى وصفه بأنه « المارد المسرحى الذى يقتحم السماء » ٠

ويرجع الفضل فى ذيوع صيته وانتشار أعماله فى العالم الى ما قام به « فولتير » بدءا من عام ١٧٣٣ من توجيه الأنظار اليه فما وافى عام ١٧٤٦ حتى طبقت شهرته الآفاق خارج وطنه ٠ وحتى وقتنا هذا يتوالى صدور كتب لدراسته لا تقع تحت حصر ٠

ومع أن شكسبير يعد خاتمة اعلام عصر النهضة فى انجلترا ، اذ انه ظهر فى الحقبة الأخيرة لهذا العصر الا انه أعظمهم على الاطلاق فبفنه تبلور التراث الأدبى لعصر النهضة وتركز فى المسرحية التى جعلها فنا مستقلا بذاته وبها تألق الأدب الانجليزى وسبق غيره من الآداب الأوربية التى لمستها عصا النهضة السحرية فى هذا المضمار بل سبق غيره من فنون الأدب كالشعر والنثر والقصة التى تأخر ظهورها فى انجلترا الى القرن الثامن عشر ، فهو بذلك عملاق الأدب الانجليزى فى عصر النهضة ورائد المسرحية الحديثة فى العالم بأسره على الاطلاق ٠

***

المؤلفات الشكسبيرية

كتب وليم شكسبير ـ الذى أجمع النقاد فى كل بلاد العالم على انه سيد كتاب المسرحية الشعرية فى كل العصور ـ سبعا وثلاثين مسرحية : بعضها من الملاهى أو الملهيات ـ كما يقول البعض ـ وهى : « ترويض الشرسة » و « العبرة بالخواتيم » و « الليلة الثانية عشرة » و « حكاية الشتاء » و « العاصفة » و « سيدان من فيرونا » و « زوجات وندسور المرحات » و « صاع بصاع » و « ملهاة الأخطاء » و « جعجعة ولا طحن » أو « لجاج فى غير طائل » ـ و « حلم منتصف ليلة صيف » و « عناء الحب الضائع » و « تاجر البندقية » و « كما تهوى » .

وبعضها من المسرحيات التاريخية ، وهى :

« حياة الملك هنرى الخامس » و « الملك هنرى السادس » جزء أول وثان وثالث ، و « حياة الملك جون وموته » و « حياة ريتشارد الثانى وموته » و « الملك هنرى الرابع » جزء أول و « حياة ريتشارد الثالث وموته » و « حياة الملك هنرى الثامن » و « هنرى الرابع » جزء ثان .

وتنقسم المسرحيات التاريخية لشكسبير الى قسمين :

اولهما : المسرحيات التى تتحدث عن تاريخ انجلترا أو الجزر البريطانية ، وقد اعتمد فى كتابتها اعتمادا كليا على دائرة المعارف التاريخية التى نشرها ريجنان وولف ، كما راجع قبل كتابه بعضها مسرحيات قديمة فى موضوعاتها نفسها ، واقتبس منها ما رأى صلاحيته بعد التنقيح والاصلاح والتقويم .

وثانيهما : المسرحيات التى استمدها من غير تاريخ انجلترا ، والتى يدخلها النقاد فى نوع التراجيديات أو المآسى ، وهى مسرحيات : « كريولينوس » و « يوليوس قيصر » و « أنطونى وكليوباترة » ، وكلها مأخوذة عن كتاب « سير بلوتارك » فى تاريخ الرومان ... ان شكسبير فى بعض هذه المآسى التاريخية ينقل عبارات بنصها من كتاب بلوتارك بعد ان ينقحها تنقيحا لغويا يقصد به زيادة الايضاح أو التأثير ، أو مجاراة اسلوب الحوار التمثيلى .

وبعضها من التراجيديات أو المآسى ، وهى :

« مأساة كريولينوس » و « تيتوس اندرونيكوس » و « تيمون الأثينى » و « روميو وجولييت » و « حياة يوليوس قيصر وموته » و « مأساة ماكبث » و « مأساة هملت » و « الملك لير » و « عطيل مغربى البندقية » و « أنطونى وكليوباترة » و « سمبلين ملك بريطانيا » و « ترويلس وكريسينيا » و « بركليس » .

وقد اختلفت آراء الذين أرخوا لشكسبير فى ترتيب هذه المسرحيات ترتيبا تاريخيا لمعرفة أيها كتب أولا ، وأيها كتب أخيرا ، ولكن خلافهم لم يكن جوهريا ، الى أن استقرت أخيرا آراء ثلاثة من العلماء المنقبين الدارسين هم : اوموند شيمبرز ، وسدنى لى ، وجوزيف كوينس آرمز — بعد بحث تاريخى أدبى دقيق ، أجراه كل منهم بوسائله الخاصة وامكاناته — على أن ترتيب كتابة هذه المسرحيات هو كما يلى :

« هنرى السادس » الجزء الثانى ، « هنرى السادس » الجزء الثالث ، « هنرى السادس » الجزء الأول ، « ريتشارد الثالث » ، « كوميديا الأغلاط » ، « تيتوس اندرونيكوس » ، « ترويض الشرسة » ، « سيدان من فيرونا » ، « عناء الحب الضائع » ، « روميو وجولييت » ، « ريتشارد الثانى » « حلم منتصف ليلة صيف » ، « الملك جون » ، « تاجر البندقية » ، « هنرى الرابع » الجزء الأول ، « هنرى الرابع » الجزء الثانى ، « ضجة بلا طحن » ، « هنرى الخامس » ، « يوليوس قيصر » ، « كما تهوى » ، « الليلة الثانية عشرة » ، « هملت » ، « زوجات وندسور المرحات » ، « العبرة بالخواتيم » ، « صاع بصاع » ، « عطيل » ، « الملك لير » ، « مكبث » ، « أنطونى وكليوباترة » ، « كريولينوس » ، « تيمون الأثينى » ، « بركليز » ، « سمبلين » ، « حكاية الشتاء » ، « العاصفة » ، « هنرى الثامن » .

وقد انعقد اجتماع الباحثين على أن هذه المسرحيات كتبت فى الفترة من عام ١٥٩٠ حتى عام ١٦١٣ ، أى فى أقل من ربع قرن أو فى خلال ثلاثة وعشرين عاما على وجه التحديد .

ان اهتمام النقاد والمؤرخين بترتيب مسرحيات شكسبير ترتيبا تاريخيا مرجعه اعتقادهم ان هذا الترتيب يعاوننا معاونة صادقة على دراسة صلة الكاتب وانتاجه بالمجتمع الذى عاش فيه وبأحداثه .

ينبئنا هذا الترتيب أن شكسبير بدأ بالمسرحيات التاريخية ، والتى تعالج تاريخ انجلترا بوجه خاص ، وكان هذا أمرا طبيعيا ، فقد عاش فى

عصر النهضة أو البعث ، أو المولد الجديد أو عصر احياء العلوم ، كما كانوا يطلقون عليه ·

وفى عصور النهضات تبحث الشعوب الناهضة عن أنفسها كما تبحث عن أمجادها وبطولاتها · واحيانا تبحث عن أمجاد غيرها من الشعوب وبطولاتها ·

ولم يكن شكسبير وحده هو المنفرد بكتابة المسرحيات التاريخية فى ذلك العهد ، بل كان فى ذلك سالكا السبل نفسها التى سلكها غيره من الكتاب ·

وهذا الترتيب ينبئنا أيضا أن أولى مسرحيات شكسبير كانت « هنرى السادس » ، وقد كتبها ـ أو اشترك فى كتابتها بمعنى أدق ـ فى عام ١٥٩١ ، أى عندما كان شابا فى الثامنة والعشرين ··· ومن ثم نستطيع من دراستها ودراسة ملابسات كتابتها ان نعرف كثيرا عن منهج المؤلف الجديد ، وما تأثر به ذلك المنهج ·

ولشكسبير أيضا غير مسرحياته بضع قصائد مثل : « فينوس » و « أدونيس » و « زهرة لوكريس » ، و « شكاة عاشق » · وله ديوان « مقطعات » يعد غرة فى جبين الأدب الذاتى ·

كان اسلوب شكسبير قويا رصينا ، أضاف الى الأدب الانجليزى أسلوبا متفردا معروفا عند المتأدبين · ولم يكن شكسبير ليقف عند حد فى سبيل التعبير عن معنى يعترض ذهنه ، بل استخدم اللغة أداة فى يده يحركها كما يشاء · وكثيرا ما كان يخرج عن قواعد النحو والصرف فى سبيل الغاية التى يرمى اليها ·

وقد سما شكسبير باللغة الشعرية الى أرفع الدرجات واسمى المراتب · وكان مبتكرا فى تعبيراته وتراكيبه ، فكان يبدع ألفاظا جديدة لجمله . ويضفى عليها من روحه الحياة والجمال والجلال · ولم يكن يتقيد بالقواعد النحوية الرتيبة ، انما كان يعول فى عباراته على سمعه وأذنه الموسيقية ، وعاطفته الجياشه ، واحساسه المرهف ·

وحفلت مؤلفات شكسبير بألوان متباينة من التشبيهات والاستعارات التى أصبحت فيما بعد مثلا يحتذى ويقتبس فى الأدب الانجليزى ·

وقد أضفى خيال شكسبير الواسع ، ومقدرته على حبك المآسى وتصوير المشاعر الانسانية برمتها ، وفكاهاته العذبة الرقيقة ، على مسرحياته ألوانا شتى من الجمال ··· حتى ان أدبه أصبح أدب الناس جميعا ، لا أدب الملوك أو السوقة فحسب ·

شخصيات شكسبير

كانت من الأسس التى قام عليها علم النفس الحديث

ويقول المؤرخون ان مسرحيات شكسبير جميعا ــ سواء ما كان منها تاريخيا ، وما كان من نوع المأساة ، أو من نوع الملهاة ــ ماخوذة عن اصول معروفة أو مجهولة ، وانه لم يكن له فضل ابتكار موضوع واحد من موضوعاتها ٠٠ غير ان هذا لا يقلل من قدر شكسبير كمؤلف مسرحى يعد فى القمة بين من ألفوا للمسرح فى جميع العصور والأزمان ٠ ويرجع هذا الى ان شكسبير كان يتناول الموضوع من أى مصدر من المصادر ، كما يتناول البناء مواد البناء فيشيد منها بناء ضخما منيفا من تصميمه هو ، ومن صنع يديه وحده ٠

كان يتناول الأسطورة أو القصة أو النادرة التى قرأها أو سمعها ، فيضع منها مسرحية جديدة تمتاز باسلوب انفرد به وحده دون كل المؤلفين ٠ وكان يتناول الشخصية التى رسمها غيره مهزوزة أو ناقصة أو غير متكاملة ، فيقومها ويبث فيها الحياة ، وينطقها بعبارات حية نابضة ، فاذا بها بشر سوى له طباعه وشخصيته واسلوبه فى حياته ٠

وشخصيات مسرحيات شكسبير كلها ، جلها ، لا تتبادل الحديث الا شعرا ، ولكنه شعر لا مثيل له فى حيويته وفى تلونه ٠ ولما كان المسرح الاليزابيثى لم يعرف المناظر المرسومة التى تصور المكان الذى تجرى فيه حوادث المسرحيات ، فقد استخدم شكسبير شعره فى وصف تلك المناظر ، وأجرى على ألسنة شخصيات مسرحياته عبارات شعرية وصفية كانت تنقل الى مخيلات المتفرجين صورا قوية واضحة للأمكنة التى تدور فيها الحوادث ٠ وكم من موقف فى أكثر من مسرحية استطاع فيه شعر شكسبير القوى المعبر ان ينقل مخيلات المتفرجين الى غابات وحدائق تشبه الجنان ، كما فعل فى ملهاة « حلم منتصف ليلة صيف » عندما وصف المكان الذى تقضى فيه « تيتانيا » جزءا من الليل ٠

وفى كثير من الأحيان كان شكسبير يستخدم الشعر لغرض خلق جو خاص لموقف من المواقف ، كما فعل عندما أجرى على لسان الملكة « جرترود » وصفا حيا مؤثرا لموت « أوفيليا » فى مأساة « هملت » ، وكما فعل فى مسرحية « حكاية الشتاء » عندما أراد تصوير الفرحة التى تشبه الربيع ، فأجرى على لسان برديا حديثا عن الزهرة يكاد يرقص رقصة الفرح والحبور ٠

ولم يقتصر استغلال شكسبير لملكته الشعرية الخصبة على هذين الغرضين ، بل جعله أداته الى تعريف شخصيات مسرحياته نفسها ، والى

الكشف عن أفكارها الداخلية وحقيقة مشاعرها ··· انه يبيح لهذه الشخصيات دائما التفكير بصوت عال ، وفى أثناء هذا التفكير الناطق يتيح للمتفرج فرصة فهمها وتحليلها من خلال استماعه الى أبيات الشعر المرسل البليغ الذى تردده ، كما فعل عندما جعل « مكبث » يفكر بصوت عال ، مصورا للمستمع كيف أثرت جرائمه فى نفسه حتى سلبته لذة الشعور بمعنى الحياة ، وكما فعل فى مواقف كثيرة من مسرحية « هملت » ·

وقد برع شكسبير براعة غير محدودة فى رسم النماذج البشرية على أسس من الخبرة والتجربة لا تتاح الا لعبقرى موهوب ، ولا نقول على أسس من علم النفس ، لأن ذلك العلم لم يكن قد عرف بعد فى عهد شكسبير . وان كان هو قد عرفه ، وبرع فيه ··· حتى ان بعض الشخصيات الشاذة أو المنحرفة التى صورها أصبحت فيما بعد أساسا من الأسس التى قام عليها علم النفس الحديث ··· من هذه النماذج المدروسة فى دقة وعمق شخصيات « هملت » و « الملك لير » و ليدى مكبث « و « عطيل » وغيرها ·

● شخصية هملت :

كان الشاعر الألمانى « جوته » هو أول من كشف عن « هملت » فى الوقت الذى كانت فيه الثورة الفرنسية قائمة · وكان المفكرون فى ألمانيا ابان القرن التاسع عشر يحللون شخصية هملت فلا يرون فيها الا شخصا متشائما يتمنى الموت · وفى فترة نشاط الاستعمار الألمانى لبعض بلاد أفريقيا عارض كارل وارد هذه الفكرة السائدة ، مستندا فى معارضته الى جلاء الناحية السياسية فى المسرحية التى توضح ان هملت كان شخصية لها نشاطها السياسى ·

وعندما بدأت المسرحيات تعالج المشكلات الاجتماعية تحت تأثير الحركة العمالية ، وظهور مسرحيات هنريك ابسن ، أخذ أنصار شكسبير وتلاميذه ينادون بأن مأساة « هملت » سبقت الى معالجة هذه المشكلات ·

وفى أوائل القرن العشرين فسر الناقد الانجليزى « أندرو برادلى » شخصية « هملت » تفسيرا جديدا آخر ، فقال انها شخصية شاب وسيم موهوب أثرت فيه شخصية أمه المنحلة تأثيرا أسلمه « للحزن والأسى » · وأخذ النقاد وتلاميذ شكسبير بهذا التفسير حتى عام ١٩٣٠ ، الى ان اعترض عليه بعض المجتهدين ، ونادوا بأن شخصية هملت اللطيفة التى تعذبت وسعت للوصول الى الحقيقة باسلوب تهكمى ، انما هى شخصية شاب ذى عقل قوى وقلب كبير ، قست عليه الحياة فثار عليها وعلى الجوانب الكريمة فيها ·

ويقول النقاد السوفيتيون الذين تحمسـوا لمسرحية « هملت » · ودرسوها باسلوبهم الخاص فى دراسة الآثار الأدبية : ان شكسبير صور لنا فى هذه المسرحية مأساة انسان نبيل كريم الخلق ، نشأ نشأة تؤهله لأن يصبح رجلا سياسيا مسئولا عن مصائر بلاده وسعادة شعبه ، فكان ابنا بارا ، وفارسا شجاعا ، وأميرا جميل السجايا ، تجتمع فى شخصيته كل الصفات التى تبشر بأنه سيصبح ملكا ممتازا ، ولكنه كان يعيش فى عزلة بعيدا عن العالم ·· الى أن وجد نفسـه فجأة غارقا فى بحر من الكوارث والمصائب ، فكانت النتيجة ان شك فى كل شىء حوله ، وتصور أن كل ما يرى مشوب بالغموض · غير انه ثبت للشدائد ، وراح يبحث عن الأسباب التى تجعل الناس يلجأون الى الشر ، ويحاول ان يبرىء النفوس المحيطة به من الشوائب ، ولم يستثن نفسه من ذلك ، فقد كان يرى انه لا يخلو من العيوب ·

ان شخصية « هاملت » فى رأى هؤلاء النقاد السوفييت – ومن تبعهم من نقاد البلاد الأخرى – هى شخصية رجل أفعم قلبه بحب الانسانية ، ومن ثم نراه يردد أفـكارا وانفعالات وتمنيات أقلقت الناس فى جميع الأزمان ، بل عذبتهم وألهمتهم ··· انها شخصية بثت فى النـاس منذ ظهورها روح الكفاح بغرض الوصول الى أهداف انسانية ·

غير ان علماء النفس يدرسون شخصية هملت من زاوية أخرى · انهم يطبقون عليه مرضا نفسيا أطلقوا عليه اسم « القلق النفسى » · ان موضوع المسرحية يروى قصة رجل قتل شقيقه الملك ، وتزوج من امرأته الملكة · ويعلم الأمير « هملت » ابن الملك المقتول ، بالحقيقة ··· حقيقة الجريمة البشعة من شبح أبيه الذى يطالبه بالانتقام له ·

ولكن هذا الابن الذى وصف بالشجاعة والاقدام وبالسجايا الحسنة ، يتردد فى ذلك ترددا غامضا لا مبرر له ··· بل ترددا غير مفهوم ، فلماذا ؟

لقد تناول نقاد الأدب والمسرح شخصية « هملت » هذه بالتحليل والتفسير ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يكتشفوا السر النفسى الخفى الذى يتحكم فى هذه الشخصية ··· ولعل أقربهم الى الوصول الى ذلك السر هو الناقد الانجليزى « برادلى » الذى وصفه بأنه « شاب رقيق موهوب ، دفعته صدمة خيانة أمه – باشتراكها مع عمه فى قتل والده الملك ، وفى الزواج من القاتل بعد ذلك – الى هاوية الجنون الذى سببه فرط الحزن » ·

وتدخل علم النفس فى الأمر عندما قام الأستاذ « ارنست جونز » بتطبيق نظرية فرويد فى اللاشـعور وعقدة أوديب ··· يرى الأستاذ ارنست ان « كلوديوس » عم هملت قد ارتكب جريمتين شنيعتين فى وقت واحد : أولاهما قتل أخيه ، والثانية افساد زوجته ·

وقد تأكد هملت من ارتكاب عمه لهاتين الجريمتين بالدليل المادى عندما قدم مسرحية بالاشتراك مع بعض الممثلين المحترفين فى القصر أمام والدته وعمه روى فيها ما سمع من شبح والده ·

فلماذا تردد فى الانتقام الذى ناشده شبح والده اياه ؟!

يجيب على هذا السؤال المحير الخالد بقوله : « ان السبب هو عقدة أوديب » · ويفسر ذلك بقوله ، كما جاء فى كتاب السـينما والمسرح وأمراض النفس للدكتور أنيس فهمى اقلاديوس : « لقد كان هملت مرتبطا بأمه كطفل ، يحبها حبا آثما لا يقره المجتمع ··· ولذلك كان يغار من أبيه ، ويشعر بما فى ذلك من اثم شعورا عميقا ، وكانت النتيجة تغطية مصطنعه تبدو فى اعجابه الشـديد بخلال أبيه · ولما قتل أبوه أحس اللاشعور بفرح واغتباط ، اذ تخلص هملت من غريمه الذى كان ينافسه فى حب أمه ، ومن هنا حال اللاشعور بينه وبين قتل عمه الذى خلصه من منافسه العنيد ··· ولكن ألم يأخذ عمه أمه ، كما أخذها أبوه من قبل ؟ ··

« العم هنا بديل عن الأب فى عرف المجتمع الذى يعيش فيـه ، وما دام قد عجز عن التخلص من أبيه من قبل ، فهو اليوم أعجز عن تنحية العم للأسباب نفسها ·· فهملت اذن ضحية لذلك الرباط الذى لم ينقطع بينه وبين أمه منذ الطفولة · ومما زاد فى معاناته موت شخص عزيز عليه ، ونعنى به والده ، وتحطم مثل أعلى وحلم جميل هو أمه التى تردت فى الاثم ···

« ولقد كان فى الامكان أن يكون سعيدا ومنتجا ، ولكن الصراع الذى اضطرم فى نفسه منذ الصغر وتفاقم أخيرا ، فرق طاقته وبددها ··· ولو قد عاش والده ، ولم تخطىء أمه . لأمكن لهملت أن يتخلص رويدا رويدا من عاطفته المنحرفة نحو أمه ، ولاتجه نحو صبيته أوفيليا بقلب سليم » ·

هذا هو التفسير الذى ارتآه علم النفس الحديث لشخصية هملت التى رسمها شكسبير منذ حوالى أربعة قرون ··· انه انسـان ذكى ولكنه ضعيف مشلول الارادة ، ويقول كل من جوته وكولردج انه « مثال للعقل الاكاديمى الذى يغوص ويحلق ، ولا يكاد يفعل شيئا » ·

– كيف رسم شكسبير الشخصية :

رسم شكسبير شخصية هملت كما لو كان قد درس أعراض مرض القلق النفسى دراسة دقيقة مستوعبة · ان نفسه فريسة لصراع نفسى

عنيف ، [illegible]
والتشاؤم والخور والتردد ··· انه ـ نتيجة لخيانة أمه ، وغدرها بأبيه ـ يفقد ثقته بالنساء جميعا ، ويشك فيهن جميعا · وقد أدى هذا الشعور البغيض الى الشك فى الفتاة التى أحبها وأحبته ··· شك فى حبيبته اوفيليا نفسها ، وساقه هذا الشك الى القسوة عليها والاساءة اليها ، مما أدى الى جنونها ومرضها عزفا ··· « بل ان هـذا التشاؤم وفقدان الثقة ، امتدا الى الوجود عامة ، فغدت قبة السماء فى نظره مجموعة من أبخرة دنسة كريهة » ·

ويصور شكسبير فى حواره خوف هملت وتردده وتشاؤمه ، منذ اللحظة الأولى التى يفرغ فيها من الاستماع الى حديث شبح والده ، فيجعله يقول لمرافقيه « هوراشيو » و « مرسلس » : « لننصرف جميعا ، ولكن أبدا أصابعنا على شفاهنا هكذا ، أرجو ذلك منكما · ان الزمن لفى اعتلال واختلال ، ومن نكد طالعى أن أكون أنا المنوط به علاجه ، والعودة به الى النظام ··· هيا بنا » ·

وهل هناك من صورة للقلق النفسى أروع من تلك الصورة التى رسمها شكسبير لبطله ، عندما تركه يفكر تفكيرا بصـوت عال قائلا : « غاية ما دافعت به عن أب وحبيب · وملك عزيز نكب أشد النكبات ، هو اننى أهذى هذيان الحالم ، مع ان شاغل الانتقام مالىء نفسى ·· جبان أنا ؟ » ·· الى أن يقول : « أفبى حاجة كحاجة البغى المومس ، أو الأجيرة القعيدة فى المطبخ ، الى تبديد ما فى قلبى من الحقد بالألفاظ والثرثرات ؟ حراكا يا دماغى حراكا ! » ·

وتتجلى حيرة « هملت » وقلقه النفسى فى المونولوج الشعرى الطويل المشهور الذى يتحدث فيه عن الحياة والموت قائلا : « أكائن أنا ، أم غير كائن ؟ تلك هى المشكلة » ·· الى أن يتساءل : « وما هو الموت ؟ نوم ، ثم لا شىء ·· نوم نستقر به من آلام القلب وآلاف الخطوب التى تصاب بها الأجسام · اننا نخشاه على انه حقيقى بأن نرجوه ···

« الموت رقاد ، وقد تكون به أحلام ··· هذه عقدة المشكلة · اذ ان الخوف من تلك الأحلام التى قد تتخلل رقاد الموت ، بعد النجاة من آفات الحياة ، هو الذى يقف دونه العزم ، وهو الذى يسومنـا عذاب العيش ، وما أطول مداه ! اذ لولا هذا الخوف ، لما صبر أحد على المذلات والمشقات الراهنة ! » ·

وما هى المشقات الراهنة فى رأى هملت القلق ؟

انه يعددها ، او يعدد بعض ما خطر على باله منها : « لا على بغى الباغى ، ولا على تطاول الرجل المتكبر ، ولا على شقاء الحب المرذول ، ولا على ابطاءات العدل ، ولا على سلاطة السلطة ، وقحة القدرة ولا على الكوارث التى يبتلى بها الحب الصحيح والمجد الصريح ، بفعل الجهلة وتهجم السفلة » ٠

ان مرض القلق النفسى ـ كما يعرفه علماء النفس والأطباء ، هو الشعور بخوف غامض ، وانتظار لخطر يتوقع الشخص حدوثه ، والاحساس بالكآبة المشوبة بحالة من التوتر العصبى وسرعة التهيج ٠٠٠ ويصاحب هذا الشعور بالخوف صعوبة فى الاقدام على أى عمل ايجابى ، والاحساس بعدم المقدرة على انجاز أى عمل وهذه هى الأعراض التى صورها شكسبير فى شخصية هملت ، والتى كرر تصويرها فى كل تصرف من تصرفاته منذ استماعه الى حديث شبح والده ، مما يدل دلالة واضحة على اتساع أفق خبرته بالناس ، ودقة ملاحظته لأحـــوالهم وتصرفاتهم فى مختلف حالاتهم ٠٠٠ كما يدل على دقة رسمه لمعالم شخصيات مسرحياته مما لم يتوافر لمعاصر من معاصريه ، كما لم يتوافر الا للقليلين ممن خلفوه فى كتابة المسرحيات فى جميع أنحاء العالم ٠

● شخصية أوفيليا :

وفى مسرحية « هملت » نفسها يقدم لنا شكسبير شخصية رقيقة أخرى تحتاج الى دراسة ٠٠٠ انها شخصية « أوفيليا » بعد ان أصيبت بالجنون على أثر صدمتين نفسيتين عنيفتين رزئت بهما ٠

كانت الصدمة الأولى عندما تخلى عنها هملت وأعلنها فى صراحة وفى قسوة بأنه لم يعد يحبها قائلا : « عليك ان تنسى حبى لك ، وان تقضى حياتك فى دير ، فهذا أفضل لك من أن تتزوجى لتصبحى أما لخاطئين » ٠

أما الصدمة الثانية ، فكانت مقتل والدها الحبيب « بولينوس » بسيف حبيبها هملت نفسه ٠

وكانت الصدمتان كافيتين لاصابة أوفيليا بالجنون ٠ ٠ ٠ « انهـا لا تفتأ تذكر أباها ثم تبكى ثم تضحك ٠٠ تهذى بكلام لا معنى له ، وتخلج بعينيها ، وتهز رأسها وكتفيها » ٠٠٠ سيطرت عليها « الكآبة والوسوسة والألم واليأس » ، « وهى لا تفتأ تغنى فى كل لحظة » ٠ فمرة تقول : « مات ، وانصرف على رأسه عشب أخضر ، ورجلاه مشدودتان بحجر » ، ومرة تقول : « حملوه مكشوف الوجه فى النعش ٠٠ ترالا لا لا ، وعلى ضريحه سالت دموع غزار ٠٠ ليلتك زاهرة يا عصفورتى ! » ٠

وتنطبق هذه الأعراض ـ كما يقول الدكتور أنيس فهمى أقلاديوس ـ على حالة جنون الخلط الذهنى حيث « يبدو المريض كأنه يحلم فى أثناء اليقظة ، وتظهر على ملامح وجهه امارات القلق والكآبة والخوف واليأس • وقد يكون كلامه غير مرتب ولا مفهوم » •

● شخصية الليدى مكبث :

وفى مسرحية « مكبث » يقدم شكسبير شخصية مريضة أخرى ، أحسن دراستها وتصويرها من الناحية النفسية ، هى شخصية « الليدى مكبث » الشريرة التى دبرت مقتل الملك دنكان ونبكو وزوجه مكروف وأطفاله • وكان من نتيجة أفعالها الشريرة هذه ، وجرائمها النكراء ، ان اضطربت نفسيتها ، وأصبحت مسرحا لصراع عنيف كان من نتيجته اضطراب نومها •

ان شكسبير يجعلها تحاول غسل الدم من يديها فى أثناء نومها ، وهى تنهض من فراشها فى كل ليلة « فتلقى عليها رداءها ، فتفتح حجرتها ، فتتناول ورقا تكتب عليه شيئا ثم تختمه ، وتعود الى مرقدها •• وذلك كله فى سبات من النوم » •

وهناك طبيب فى المسرحية لا يدرى شيئا عن حقيقة جرائمها ، ولكنه يقول : « من أدلة الاختلال الشديد فى الوظائف الحيوية ان تكون غافلة وهى تسعى سعى المستيقظين » ••• « انها تمشى وهى نائمة • عيناها مفتوحتان ، ولكن حاسة النظر مفقودة » •

من أين أدرك شكسبير أن المشى فى أثناء النوم يعد دليلا من دلائل الاضطراب النفسى •

● نماذج اخرى :

ولا تقتصر دقة شكسبير وبراعته على تصوير الشخصيات المريضة أو المنحرفة ••• بل انه ليصور شخصياته جميعا بالدقة نفسها ، وهذا المستوى الرفيع من الكمال الفنى • وهو أبرع من قدم النماذج البشرية ، وأدق من صور العواطف والانفعالات والغرائز والوجدانات المتباينة •

ان « جولييت » العاشقة هى أروع مثل للعشق ، و « ديدمونه » البريئة هى أرفع صورة للبراءة والطهر ، و « عطيل » الغيور الأحمق مثال لا يدانيه مثال من نوعه ، و « ياجو » الخبيث المتآمر صورة لا شبيه

لها فى خبثها ومكرها وتآمرها ، و « بروسبيرو » فى مسرحية « العاصفة » مثال للحكمة والصبر وحسن التصرف لا يدانيه مثال آخر ٠

والساحرات واللصوص والخونة والفتيات العاشقات الرقيقات ٠٠٠ هؤلاء كلهم شخصيات أبدع شكسبير فى تصــويرها ، وعاونته عبارته الشعرية البليغة ، وطول باعه فى دنيا البديع ، على تقديمها فى أروع الصور وأبدعها ٠

ويتساءل كثيرون ممن لم يدرسوا حياة شكسبير الدراســة الكافية : كيف اســـتطاع شكســبير وهو القروى الذى خرج من مدارس الريف قبل ان يكمل تعليمه ـ ان يبلغ هــذا المدى فى دقة تصــوير شخصياته تصويرا نفسيا مبنيا على أسس علمية ٠

والجواب على هذا التساؤل : ان شكسبير لم ينقطع عن الدراسة والاطلاع طوال حياته ٠ وقد أثبت بعض مؤرخيه انه كان يختلف الى جامعة اكسفورد قبل زواجه بسنوات ، وانه لم ينقطع عنها الا بعد عقد زواجه والحاح الحاجة عليه ٠٠٠ كما لم ينقطع عن الاطلاع والاجتهاد الشخصى فى الدراسات النظرية والعلمية للحياة فى مختلف أدوارها ، وللناس فى مختلف حالاتهم ومظاهرهم ٠

لقد ثبت « انه زار مستشفى للأمراض العقلية ، يسمى مستشفى « بدلام » مرات كثيرة كى يدرس أنواع الجنون المختلفة دراسة عملية » ٠ وهذا مثل من أمثال دقته ورغبته فى اتقان عمله ينبىء عن أمثلة أخرى لم يوردها مؤرخو حياته ، فليس بمستبعد على من ذهب الى مستشفى لعلاج الأمراض العقلية كى يحسن تصوير مجنون فى احدى مسرحياته ان يذهب الى ظهر سفينة فى الميناء كى يحسن تصوير حياة البحارة أو أن يقرأ كتابا أو أكثر فى سير العشاق الخالدين كى يصور عاشقين خالدين ٠

● نساء شكسبير وأطفاله :

بلغ من دقة شكسبير فى تصوير شخصيات النساء فى مسرحياته ان مؤلفه انجليزية ، تدعى مسز اناجيمسون ، ألفت كتابا ضخما عن بطلات تلك المسرحيــات ، وقسمتهن الى خمســة وعشرين نوعا : منهن الذكيات ، ومنهن الطموحات المغامرات ، ومنهن صاحبات العاطفة المشبوبة والرقيقات ، ومنهن ذوات الشخصيات القوية والمعروفات فى التاريخ ٠٠٠ ولم تجد المؤلفة فى نساء مسرحيات شكسبير واحدة تشبه الأخرى ، أو

تقرب منها من حيث تكوين الشخصية · أما أطفال مسرحيات شكسبير فلم تكن صورهم فيها بأقل دقة ولا اتقانا من شخصيات الكبار ، حتى قيل عنه انه كان يعاشر الأطفال ويعيش معهم — ومنهم ابنه — كى يخرج بهذه الصور البالغة الابداع ·

● **مآسى شكسبير :**

ان اسلوب المأساة الشكسبيرية اسلوب لم يأخذ به فى جملته وتفصيله كتاب آخرون كثيرون · ويرجع الكاتب « نيكول » — مؤلف كتاب علم المسرحية وصاحب كرسى الأدب الانجليزى واللغة الانجليزية فى كل من جامعتى لندن وبرمنجهام على التوالى — سبب ذلك الى سعة خيال شكسبير ، وفرط قوة تصوره مما لا يتوافر لكثيرين · نعم ان كثيرين قلدوا بعض نواحى تلك المآسى ، كما انها كانت ذات أثر كبير ملحوظ فى كل المآسى التى كتبت للمسرح الانجليزى بعد عصر شكسبير · ولكن مجاراتها فى سماتها كلها كان من الأمور المتعذرة ·

والسمات المميزة لمآسى شكسبير هى : القوى الخارقة للطبيعة التى تعمل عملها خفية ولكن فى يقين ، ثم تلك الروابط الغريبة التى تربط البطل بكل ما يحيط به ، وابطال شكسبير كلهم موضوعون فى مواقف لا يستطيعون هم — وهم وحدهم دون الناس جميعا — ان يصارعوا القدر فيهـا ·

ان « هملت » المتدين القلق — كما قد رأيت — هو الذى يختاره شكسبير لاصلاح العـالم ، وهـذا قدرٌ لا يمكن مدافعته ! وعطيل الغبى الأحمق هو الذى يختاره شكسبير للوقوف أمام من ؟ أمام « ياجو » الخبيث الماكر الألعبـان الذى يستهتر بكل القيم وكل المقاييس ··· ومكبث الانسان الضعيف السريع التأثر الذى يسـيطر عليه الطموح ، يضـعه شكسبير أمام الساحرات ، وأمام زوجته القاسية المجرمة · أما أنطونى العاشق المدله ، فلا يختار له شكسبير — ولعل القدر هو الذى اختار له — الا الوقوف أمام كليوباترة ·

يقول « نيـكول » : « وضـعوا فى المواقف المحكمـة المغلقة التى لا يستطيعون منها فكاكا ··· فاذا أنت وضـعت « هملت » فى مكان عطيل ، أو عطيل فى مكان هملت ، لم تجد بين يديك مأساة على وجه الاطلاق ، لا من النمط الشكسبيرى ، ولا من أى نمط آخر ··· ومواجهة البطل بهذه الصورة التى تكاد تكون من صنع الأقدار هى ما يميز مآسى شكسبير » ·

مؤلفات عن شكسبير !!

من أقوال أحد المعجبين بشكسبير : « ان الكتاب المقدس وآثار شكسبير كانت أقوى العوامل الأدبية التى أثرت فى التاريخ » . وسواء سلمنا بهذا الرأى أو رأينا فيه مغالاة فمما لا ريب فيه ان شكسبير هو باعتراف جميع الأمم المتمدينة رب الروايات المسرحية الذى لا يجارى . فلا غرابة اذا افتخرت الأمة الانجليزية بهذا العبقرى الفريد واحتفلت ... وجدير بها ان تفتخر وتحتفل أكثر مما فعلت — بل حقيق بالعالم أجمع أن يشاركها فى هذا التذكار لأن الميراث الذى خلفه شكسبير هو ملك لكل زمان ومكان .

بل انظر الى ما كتب عن شكسبير ومؤلفاته تعرف ما له من المقام الحى بين جميع الأمم . فان آلاف الكتب قد صدرت عن حياة شكسبير ومؤلفاته .. وهو ما لم يحظ بمثله كاتب آخر على مدى تاريخ البشرية كله .. وما زالت الكتب تتتالى عنه ، كل منها يكشف عن جوانب جديدة فى فنه العظيم .. وليس هذا غريبا بالنسبة لكاتب أجمع كبار الدراسين على اعتباره واحدا من أهم صانعى العقل الحديث .

ولم يكن شكسبير كاذبا ولا مغرورا عندما قال عن نفسه : « سيظل فنى خالدا ما دامت هناك عيون ترى وآذان تسمع » .. فها هى ٤٠٠ سنة من عمر الزمن تمضى ، والعالم يحتفل بأعظم من كتب للمسرح حتى الآن .. ف « وليم شكسبير » يعد أول من وضع أسس المسرح التقليدى .

قد يلوح للوهلة الأولى ان كل ما يمكن ان يقال عن شكسبير ومؤلفاته قد قيل ، وانه لم يبق فيه مجال لمستزيد بعد كل تلك الآلات التى ملأت الملايين من الصفحات التى كتبت عنه ، عبر أربعة قرون ولكن ها هو ذا حصاد الدراسات الشكسبيرية فى عصرنا الحديث يشهد بأن الاهتمام به وبمؤلفاته لم ينقص مثقال ذرة ، ولعله ازداد مع زيادة معرفتنا بملامح عصره واتجاهاته .

ومن أهم الدراسات التى صدرت عنه منذ مطلع هذا القرن فقط :

- المدخل الى شكسبير — مسز الدرولانج .
- مزيد من المداخل الى شكسبير — السير أ.ت كويلر . مع مقدمة بقلم هـ.أ. مارشال .
- الحياة فى انجلترا فى عصر شكسبير .. كتاب من النثر الاليزابيثى — جون دوفر ديلسون .

- شكسبير دراسات مسحية ـ السير ادمولد ٠ ك ٠ تشيمبرز ٠
- شكسبير ـ ج٠ب ٠ هاريسون ٠
- رفيق الى شكسبير (١٥٦٤ ـ ١٩٦٤) وضع ف ٠ أ ٠ هاليداى ٠
- مسرحيات شكسبير التاريخية ـ أ ٠ م ٠ و ٠ تيليارد ٠
- مآسى شكسبير ٠٠ منتخبات من النقد الحديث ٠ } لورانس ليونو
- ملاهى شكسبير ٠٠ منتخبات من النقد الحديث ٠ }
- معجم المقتطفات الشكسبيرية ـ وضع د٠ براونتج ٠
- الليلة الأولى من الليلة الثانية عشرة ـ الزلى هوتسون ٠
- الفن والصنعة عند شكسبير ٠٠ دراسة في التقابل والوهم الدرامى ـ المر ادجارستول ٠

- شكسبير الكاتب المسرحى ـ أونا أليس فرمور
- شكسبير والشعر الاليزابيثى ـ م ٠ برادبروك
- شكسبير بلا دموع ـ مارجريت وبستر
- فن شكسبير ـ جون ارثوس
- لغة مسرحيات شكسبير ـ السير ايفور ايفانز
- شكسبير وفكرة المسرحية ـ آلان رايتر
- عصر شكسبير ـ بوريس فورد
- شكسبير : الملاهى ـ كينيث ميور
- شكسبير معاصرنا ـ جان كوت
- شكسبير نظرية وجودية ـ ديفين هوروتيز
- مآسى شكسبير ـ ج ٠ ب هاريسون
- البحث عن شكسبير ـ د٠ لويس عوض
- التعريف بشكسبير ـ عباس محمود العقاد

٠٠٠٠

كما ان جميع طبعات الانسيكلوبيديا بريتانيكا قد وقفت أكثر من ٥٠ عمودا على شكسبير ومؤلفاته !!

وليعلم القارىء ان هذا الاقبال ليس قاصرا على الشعب الانجليزى فقد ترجمت مؤلفات شكسبير الى أهم لغات العالم ولقد ترجم بعضها مرات عديدة ٠ هذا فضلا عن دراسته فى المدارس فانك لا تجد مدرسة راقية فى العالم الا ودرس شكسبير داخل فى برامجها ٠

● **مكتبة المركز الشكسبيرى :**

وفى العيد المئوى الرابع لمولد شكسبير أقيم مركز يعرف « بالمركز الشكسبيرى » « Shakespeare Centre » ٠

كذلك لا تبعد «مكتبة شكسبير التذكارية » فى برمنجهام غير نصف ساعة من ستراتفورد وتكاد تضم مسرحياته فى مختلف لغات العالم ، بما فيها العربية ، وقد أنشئت هذه المكتبة فى العيد المئوى الثالث لمولد شكسبير ، أى قبل مائة عام ، وحاول الأمريكيون محاكاتها فانشاوا فى واشنطن المكتبة التذكارية المعروفة بـ Folger library الا انها اليوم أخذت تبتعد عن الغرض الأصلى الذى أنشئت من اجله اذ توسع نطاقها فأصبحت مكتبة لعصر النهضة وبقيت مكتبة برمنجهام تختص بشكسبير وحده وفيها اليوم ٥٠٫٠٠٠ كتاب بخمس وثمانين لغة ، وتشمل كل ما كتب عن شكسبير فى العالم أجمع ، فهى أعظم مركز للمصادر والبحوث الشكسبيرية أو ما يعرف بالـ « شكسبيريانا » Shakespeariana ٠

والى ذلك كله فقد أقام البروفيسور أولارديس نيكول سنة ١٩٥١ مؤسسة شكسبير للدراسات العليا وهى تابعة لجامعة برمنجهام وتعنى بالأدب الانجليزى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وبخاصة بحياة شكسبير ومسرحياته ٠ وهناك دور للتمثيل اختصت بالمسرحيات الشكسبيرية ، طوال العام ولاسيما دار التمثيل الشكسبيرية الملكية فى ستراتفورد ، وتليها داران للتمثيل فى كوفنترى وواحدة فى برمنجهام (وهى أقدم دار للمسرحيات المعادة) وأخرى فى اكسفورد ٠

ولا يقتصر الباحثون اليوم على المسرحيات الشكسبيرية والكتب المطبوعة وزيارة الأماكن الأثرية المرتبطة بالشاعر وأسرته ، بل تعدوها الى دراسة ونشر العديد من المخطوطات المهمة من العصر الاليزابيثى الذى عاش فيه الشاعر وما يتصل به من عهد سبقه أو تلاه ، لاكتشاف جميع جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، لتتكامل الصورة على أوسع وأوضح ما يمكن أن تكون ، وأهم مركز لمثل هذه المخطوطات مكتبة « بودليان » باكسفورد ٠

★★★

شكسبير

رائد المسرحية الحديثة فى العالم

ان المجال لايتسع لأن نتناول شكسبير من ناحية شعره الخالص واسلوبه الأصيل فى قصائده ، وحسبنا ان يكون هذا الفصل لمسرحياته . وذلك باعتبار انها نهاية النهايات فى أدبه وفنه ·

ومواطن الابداع فى مسرحيات شكسبير من حيث القالب ونظام مشاهدها ، كثيرة متعددة ·· فقد حطم القيد الذى كان مقيدا به مؤلفو اليونان والرومان ومن تبعهم من معاصريه ، فى ان تجرى حوادث الرواية وتتابع مشاهدها فى نهار وفى مكان واحد ، خرج على هذه القاعدة التى ابتدعها الذهن الاغريقي ، وفرضت طابعها على الأدب المسرحى مدى الف وسبعمائة عام ولم يتنبه المتبعون لهذه القاعدة الى ما للزمن ومر الأيام من أثر نافذ في تطور الناس والحوادث ·

وبخروج شكسبير على هذه القاعدة ، أصبحت المسرحية على يديه فصولا متعددة ومشاهد متلاحقة غير مقيدة بزمان أو مكان ، تجرى وتتعاقب لابراز شخصيات الرواية من غير عنت أو افتعال ، تجرى وكأنها سيل من الحياة الدافقة تتلاحق أمواجه لتترامى على هدف معين ·

كذلك نهج شكسبير نهجا جديدا فى الاسلوب اللغوى الذى يكتب به حوار الرواية ، فبعد أن كان مقصورا كتابته على الشعر الموزون المقفى ، أصبح على يديه تارة شعرا مرسلا وتارة أخرى شعرا ونثرا واضحا بينا ، وبهذا تحررت المسرحية من قيد بيانى كان يحد من انطلاق الذهن وتحليق الخيال فى أوسع مجالاته · بهذا قلب شكسبير الأوضاع الشكلية للمسرحية، فكان الأول فيما فعل ، وعنه أخذ كتاب القارة الأوربية فى القرن التاسع عشر ·

فى مدى ثمانية وعشرين عاما · استطاع هذا العبقرى شكسبير ، ان يجعل المسرحية الانجليزية تحيط بالحياة البشرية احاطة شاملة ، فمسرحياته بمآسيها وفكاهاتها ومهازلها هى سفر القلب الانسانى الذى لم يتغير ولن يتغير · ففى مآسيه صور غرائز الكائن الانسانى ملجمة بلجام العقل ، ثم ، وهى جامحة محطمة اللجام ·· أحاط بالآثام البشرية

ورسم مسير القدر وهو يهدف الى غرضه ، صور مصارع الجريمة والخيانة، الطمع والترف والكبرياء غليان الجسد وثورة الغيرة ، يقظة الحس ، ومحاسبة الضمير ، الجحود وقسوته ، الضعف ومحنته ، جلائل العظماء وتفاهات المعوزين ، الحب كأسا شهية والحب كأسا تورد موارد الهلكة ٠

وتمثل مسرحيات شكسبير فى كل زمان ومكان فاذا الدنيا ممثلة بحقائقها ، بكلياتها وجزئياتها ، فى صحوها وكدرها ، فى خيرها وشرها ، ثم يعاد تمثيلها وقد يعاود القارىء قراءتها ، فاذا هو دائما أمام متعة لاتبلى جدتها ، وتفكير تمتد آفاقه على التأمل والنظر ، تتراءى لنا فى ظلاله مواكب انسـانية تتـوالى أفواجها موفورة الاحسـاس بالحياة ، جياشة بصـدق العاطفة ، بل ان العين لتقع على أشخاص بينها لاتنكرها لسابق معرفة بها فى الحياة الواقعية فكان شكسبير ، فى كشفه الدقيق عن دخائل النفس فى مختلف النماذج البشرية ومنازعها ، يريد أن يحيطنا علما بالحيـاة ، بل هو يريد أن يعرفنا أنفسنا ، يعرفنا ما هى النظرة الانسانية التى نعرفها ولا نستطيع تعريفا لها ، ونحسها ولا نقدر على شرح ماهيتها ٠

ومرجع هذا كله لدى شكسبير انه وهب النظرة الكاشفة التى تنفذ الى أعماق فى النفس لا نصل الى أغوارها نظرة أخرى ، ومرجع هذا أيضا القدرة على التحليل النفسى الصادق ، والمقدرة على الابتداع والخلق ٠

وهـكذا ابتدع شكسبير مذهبا فى كتابة المسرحية ، فرض طابعه على الزمن أو تابعه فيه من جاء بعده من الكتاب والشعراء ٠ هذه ناحية من نواحى عظمة شكسبير ولا أدل على اعتراف الناس بها من ان الأمم الراقية ، تذكر كل عيد من أعياد ميلاده بما يجب له من التكريم والتبجيل ٠

فهاهو الشاعر « ملتن » عندما رأى تمثالا لشكسبير فى الكنيسة التى دفن فيها بستراتفورد علق على ذلك بقوله :

ـ « ما حاجة شكسبير الى أحجار فوق أحجار يقيمها الناس مدى قرن كامل لتأوى اليها رفاته المجيدة ؟ ما حاجته ان تدفن بقاياه المقدسة تحت هرم يصعد حتى يصل الى عنان السماء ؟ يا ابن الذكرى العزيزة ، ووارث المجد العظيم ! ماذا يغنيك من هذا الاعتراف الضئيل بفضل اسمك وقد أقمت لنفسك من اعجابنا وعجبنا تمثالا لا يبلى ٠٠ » ٠

وقال أيضا « فيكتور هوجو » عندما رأى تمثال شكسبير :

ـ « تمثالا لشكسبير ! ولماذا !! ان التمثال الذى أقامه لنفسه على عماد هو انجلترا كلها لخير له من كل تمثال ٠ ليس شكسبير بحاجة الى

هرم وله مؤلفاته · وماذا يمكن ان يخلد الرخـام منه ؟ وماذا يستطيع البرونز ان يقيم حيث يقيم المجد ؟ ·· ان الأحجار كلها والفنانين الذين ينحتونها يضيعون جهدهم عبثا · فالعبقرية هى العبقرية من غـير حاجة اليها · ولو اجتمعت الأحجار كلها ، افتراها تكبر هذا الرجل أصبعا ؟ وأى قوس أبقى من هذا القوس : قصة الشتاء ــ العاصفة ــ زوجـات وندسور المرحات ــ يوليوس قيصر ــ كريولان · وأى أثر أعظم من لير ، واشد تجهما من تاجر البندقية وأبهر من روميو وجولييت ، وأبهى من ريكاردوس الثالث · وأى بدر يلقي على هذا البناء ضياء أعجب من حلم ليلة الشتاء ؟ وأى حلية من خشب الزان أو البلوط تبقى بقاء أوتللو ؟ وأى نحاس أصلب من نحاس هملت ؟ ، كلا : لن يوازى بناء من الحجر أو الصخر أو الحديد هذا الروح روح العبقرية العميق · روح الله يتجلى به على لسـان الانسـان ورأس فيه فكرة هو القمة ، أما أكداس الأحجـار فجهود ضائعة ، وأى بناء يساوى فكرة ؟ ان بابل لدون ايزاس ، وخوفو لأصغر من هوميروس ، والكوليزيم لأقل من جوفنال ، وقصر اشـبيليه قزم الى جانب سرفانتس ، وكنيسـة القديس بطرس فى روما لا توازى كعب دانت ، فكيف تستطيعون وان جهدتم ان تقيموا برجا فى رفعة هذا الاسم : « شكسبير » ·

وقال « توماس كارليل » فى حديثـه عن شكسبير : « لو خيرت انجلترا بين التخلى عن أقطار الهند أو مؤلفات شكسبير ، لو أكرهتهـا الأحداث على هذا التخير ، لما ترددت فى ان تستبقى آثار شكسبير وتتخلى عن الهند » ! وأخيرا ها هو أمير الشعراء أحمد شوقى يصف شكسبير فى قصيدته قائلا :

دستورهم عجب الدنيا وشاعرهم ··· يـد على خلقـه لله بيضـاء
ما أنجبت مثل «شكسبير» حاضرة ··· ولا نمت من كريم الطير غنـاء
نالت به وحدة « انجلترا » شرفا ··· مالم تنـل بالنجوم الكثر جوزاء
لم تكشف النفس لولاه ولا بلـت ··· لهـا سـرائر لاتحصى وأهواء
شـعر من النسق الأعلى يؤيده ··· من جانب الله الهـام وايحـاء
من كل بيت كآى اللـه تسـكنه ··· حقيقة من خيـال الشعر غـراء
وكل معنى كعيسى فى محاسنه ··· جاءت به من بنات الشعر عذراء
أو قصة ككتاب الدهر جامعة ··· كلاهمـا فيـه اضحاك وابـكاء
مهما تمثل ترى الدنيا ممثلة ··· أو تقل فهى من الانجيـل أجزاء
والناس صنفان موتى فى حياتهم ··· وآخرون ببطن الأرض احيـاء

روبنسون كروزو

دانيال ديفو

١٧١٥ م

● لعل أول ما يخطر لنا عند ذكر « روبنسون كروزو » هو تلك الساعات الجميلة التى قضاها معظمنا أيام الطفولة فى قراءة هذا الكتاب الممتع ، متعلقين بالبطل ، متتبعين لمغامراته ، مشدودين اليه وهو يجوب أطراف جزيرته النائية باحثا عن الطعام ، مستكشفا معالم عالمه الجديد ، أو وهو يقدح زناد فكره ليجد طريقة يصنع بها آنية يحتفظ بها بغذائه ، او وهو يقاتل عددا من آكلى لحوم البشر لينقذ الضحية المسكينة التى كادت أن تصبح طعاما لبعض أفراد جنسها ، مبتئسين لوحدته حينا ، فرحين بانتصاره حينا آخر ، وأخيرا مهللين لنجاته وعودته سالما لبلاده ٠

ولعل هذا الخاطر الجميل قد ينسينـا ولو لبرهة قصـــيرة ان « روبنسون كروزو » وان قرئت أول ما تقرأ عادة فى سنوات الطفولة الا أنهـا ، مثلها فى ذلك مثل كثير من روائع الأدب العـالمى « كرحلات جاليفر » ، و « دون كيشوت » مثلا ، لم تكتب أصلا للأطفال ٠ فسرعان ما نذكر عودتنا الى هذه القصة فيما بعد الطفولة واستمتاعنا بها كعمل أدبى فريد ، وتناولنـا لهـا بالقراءة الجادة والدراسـة والتحليل ، ف « روبنســون كروزو » ليست احدى الروايات الخالدة التى راجت وأصبحت جزءا من التراث الانسانى فحسب ، ولكنها ذات أهمية خاصة فى تاريخ الأدب أيضا ، فهى تعد بحق أول عمل قصصى روائى ٠ كتبها دانيال ديفو فى أواخر الحقبة الثانية من القرن الثامن عشر فكانت فاتحة لذلك النشاط الروائى الذى ازدهر فى انجلترا فى النصف الأول من ذلك القرن على يد صـموبل ريتشاردســون وهنرى فيلدنج ولورنس ستيرن وتوبياس سموليت ، واكتمل نموه فى القرن التاسع عشر وانتقل من انجلترا الى فرنسا وروسيا اللتين بزتا انجلترا فى هذا المضمار ٠

ولم يكن دانيال ديفو يدرك تماما أهمية العمل الذى قام به وما نظنه كان يرحب بمولد هذا الفن الجديد ـ فن الرواية ـ على يديه ٠ فقد قدم عمله للقـارىء مدعيـا انه سجل لاحداث حقيقية وقعت فعـلا ولا دخل للخيال فيها ٠ لذا فقد عمل بكل وسيلة لايهام القارىء بصحة ادعائه

فأضفى على أحداث قصته الخيالية جوا من الصدق والواقعية ، فوضع بذلك حجر الأساس فى حرفية هذا الفن الجديد ·

ونحن عندما نتحدث عن فن الرواية انما نعنى الرواية كما نعرفها اليوم ونفرق بينها وبين القصص الرومانسية أو قصص البطولة والحب التى كانت تصور عالما خياليا قائما على الأعمال البطولية الخارقة التى يقوم بها الأبطال والأمراء · بل والآلهة أحيانا ، ولاتمت الى عالم الواقع بصلة · كما نفرق بينها وبين القصص « البيكارية » أو قصص « الشطار » التى تقوم أساسا على وصف مغامرات أحد هؤلاء « الشطار » أو الأبطال المتجولين ولا تهتم كثيرا بتصوير الحياة المعاصرة تصويرا واقعيا · ومن الواضح ان « ديفو » عندما قرر فى مقدمة كتابه انه يقـــدم مغامرات حقيقية وانه يهـــدف من وراء ذلك الى جانب ادخـــال السرور الى قلب القارىء ، تلقينه درسا أخلاقيا ، انما كان يرمى بذلك الى التفريق بين عمله وبين تلك الأعمال · وهكذا نجد « ديفو » ينحو نحوا جديدا فى كتابة الأعمال القصصية ويتجه نحو الواقع ليقدم شخصيات من واقع الحياة وان وجدوا أنفسهم فى ظروف غريبة مثيرة · وكأنه يباعد بين عمله وبين تلك القصص الرومانسية التى كان يرى فيها الكثيرون من أبناء عصره عبثا ومضيعة للوقت ٩ ومما لا شك فيه ان هذا الاتجاه كان نتيجة لمزاجه الخاص ولروح العصر الذى عاش فيه ، فمن الواضح ان « دانيال ديفو » وبطل قصته انما يمثلان أبناء تلك الطبقة المتوسطة التى كان لنموها فى ذلك الوقت فضل كبير فى جعل فن الرواية ممكنا ·

والعنوان الكامل لهذا الكتاب هو « حياة ومغامرات روبنسون كروزو الغريبة المدهشة » · ويعتقد البعض أن « ديفو » قد اقتبس موضـــوع قصته عن قصة واقعية ، وقعت أحداثها لبحار اسكتلندى يدعى ألكسندر سيكليرك ذهب فى عام ١٧٠٥ بصحبة الربان المعروف « وليم دامبير » فى رحلة الى البحار الجنوبية ، ولكنه اختلف مع هذا الربان فتركه هذا الى جزيرة خالية من السكان هى جزيرة « جوان فرناندز » بالقـــرب من الشاطىء الغربى لأمريكا الجنوبية حيث بقى بمفرده حتى عام ١٧٠٩ عندما حملته الى انجلترا احدى قطع الأسطول الملكى · وسواء اعتمد « ديفو » على هذه القصة أو على غيرها من قصص الرحالة التى كثرت فى تلك الأيام فان ذلك لايقلل من قيمة عمله شيئا فقد خلق عملا جديدا مبتكرا يختلف عن تلك القصة تمام الاختلاف ، عملا خلد على مـــر الزمن بينما اندثرت معظم تلك الأعمال التى يقال ان « ديفو » قد اعتمد عليها ، ولعل من

حسن حظه أن اختار لنفسه موضوعا يثير الخيـال فى جميع الأجيـال والأزمان ٠

وجدير بنا قبل أن ننتقل الى تحليل « روبنسون كروزو » ودراسة الصفات التى جعلت منها عملا حيـا خالدا ان نتعرف أولا على شخصية كاتبها وأن نشير باختصار الى بعض العوامل التى هيات الجو المناسب لمولد فن الرواية وازدهاره ٠

ديفو ٠٠ حياته وأعماله الروائية

ولد « ديفو » (وكان اسمه الأصلي فو فغيره في أواسط حياته الى ديفو) في عام ١٦٦٠ م في سانت جايلز بلندن من أسرة مزارعين كانت قد انتقلت الى لنـــدن من مقاطعـــة نورثهامبتون ٠ أما أبوه جيمس فو فكان جزارا في مقنطة سانت جايلز وكان ينتمى الى جماعة البروتستانت الذين لايتبعون الكنيسة الرسمية لانجلترا ويدعون nonconformists أى المخالفون ٠

أما ديفو نفسه فكان شخصية مثيرة غامضـــــة ٠ عمل بالتجـارة والصحافة والجاسوسية والأدب وأخيرا استحق ان يلقب « بأبى الرواية »٠ ويختلف كتاب السيرة ومؤرخو الأدب فيمـا يختص ببعض تفاصيـــل حياته ، لما اكتنفها أحيانا من الغموض والتناقض نتيجة لمزاولتـه بعض أنواع النشاط التى تدعو الى السرية والحيطة ٠ والمعــــروف ان والده أراده ان يصبح قسا فألحقه بكلية نيونجتون جرين الدينية ليحصل على التعليم اللازم لذلك ولكنـــه لم يتم دراسته وترك هذا المعهـد بعد خمس سنوات دون ان يحصل على أية مؤهلات دراسية ، ولكنـه حصل على كثير من المعلومات التى اعتمد عليها كثيرا فيما بعد ٠ كما أجاد كتابة اللغة الانجليزية التى أصبحت من أهم الأسس التى قام عليهـــا نجاح كتاباته الصحفية والأدبية على حد ســـواء ٠ ومما هو جدير بالذكر أن « ديفو » لم يتلق التعليم التقليدى الكلاسيكى ولكنه تلقى تعليما حديثا بمعنى أنه درس اللغات الأوربية الحديثة بدلا من اللغات القديمـة كما درس التاريخ والجغرافيا وعلم السياسة ، بدلا من الميتافيزيقا والعـلوم الشكليـــة ٠

ولم يصبح « ديفو » قسا ، بل اتجه نحو التجارة فعمل لدى صانع جوارب أولا ثم استقل بتجارة خاصة به فى عام ١٦٨٥ وراجت أعمـاله وقام برحلات تجارية متعددة الى بعض أجزاء القارىء الأوربية مثل اسبانيا وألمانيا وهولندا ٠

عاش « ديفو » فى فترة مضطربة من تاريخ بلاده ، فترة ســـادها الصراع بين أنصار المذهب البروتستانتى ويشكلون الغالبية العظمى من أبناء البلاد وبين الملوك الكاثوليك الذين حكموا انجلترا بعد عودة الملكية

اثر انتهاء حكم كروموبل ، لذا استهوته السياسة ، ولكونه من المذهب البروتستانتي فقد اشترك في ثورة مونموث سنة ١٦٨٥ التي قادها دون مونموث ضد الملك جيمس الثاني الكاثوليكي ، وكان من حسن حظه ان تمكن من الهرب عند فشل هذه الحركة . ولكنه عاد فاشترك في ثورة ١٦٨٨ أو الثورة المجيدة التي أطاحت بجيمس الثاني وأتت بوليم الثالث البروتستانتي الى العرش .

وقد كان « ديفو » يكتب النشرات سرا للدفاع عن المذهب البروتستانتي ، أما بعد أن فاز أنصار هذا المذهب فلم يتوان في اعلان الولاء للملك الجديد عن طريق اعلانه عن كتاباته بكل شجاعة واقدام ، وسرعان ما جذب الأنظار وعرف في أوساط البلاط ، وأصابت نشراته — وخاصة ما كان منها للدعاية للملك الجديد — نجاحا كبيرا . الا أنه يبدو أن هذا النشاط كان على حساب تجارته ، اذ أفلس في عام ١٦٩٢ ، واضطر الى الانتقال الى بريستول حيث عاش في شبه عزلة تامة حتى أطلق عليه « سيد يوم الأحد » لأنه كان يختفي بقية أيام الاسبوع خوفا من الدائنين . ولكنه ما لبث ان استرد مكانته عن طريق كتابة النشرات. وفي عام ١٦٩٤ بدأت أنجح فترات حياته ، اذ عين محاسبا للجنة ضريبة الزجاج ثم أصبح مديرا لمصنع للآجر والبلاط ، وتحسنت أحواله المالية ، فسدد ما عليه من ديون . ولكن تجارته أفلست مرة أخرى بحيث بدا من الواضح انه أكثر نجاحا ككاتب منه كرجل أعمال . فبالرغم مما حققته كتاباته من أرباح الا أن أحواله المالية استمرت في الارتفاع والهبوط الى آخر حياته . ومما يقال انه قضى أواخر أيامه في السجن لعدم تمكنه من سداد بعض الديون !

ومن أهم النشرات التي كتبها في هذه الفترة « مقال عن المشروع » عام ١٦٩٧ وفيه تقدم بمقترحات كثيرة سابقة لعصره مثل التأمين الاجتماعي وتعليم المرأة ، ثم « الانجليزي الأصيل » عام ١٧٠١ وفيه دافع عن الملك ضد أولئك الذين هاجموه لكونه أجنبيا عن البلاد . أما « أقصر طريق مع المعارضين » (للكنيسة الرسمية) عام ١٧٠٢ فكتبه للدفاع عن هذه الفئة الدينية ولكنه كتبه بلغة عنيفة ومشابهة للغة رجال الكنيسة الرسمية الذين ظنوه خطأ دفاعا عنهم ولكنهم ما لبثوا ان اكتشفوا ما ينطوي عليه من سخرية بالغة فامروا بحرقه ، وحكم على ديفو بغرامة مالية وبالسجن والوقوف في آلة التعذيب ثلاث مرات . ومما يقال ان الشعب وقف الى جانبه في هذه المحنة وبدلا من ان يقذفوه بالطماطم والبيض الفاسد كما كان متبعا مع من يقف هذا الموقف ، الا أنهم قدموا له الزهور

وجعلوا منه بطلا شعبيا محبوبا · وعلاوة على ذلك فقد كانت فترة وجوده بالسجن فرصة للتعرف على كثير من المجرمين من لصـــوص ومزورين وقطاع للطريق الذين أمدته قصص حياتهم بالمادة الخام لبعض أعمـــاله الروائية فيما بعد ·

وفي أوائل نوفمبر ١٧٠٣ أطلق سراحه نتيجة لاتفـاق سرى بينه وبين هارلى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت · وعمـــل ديفو مستشـــارا للحكومة ، مقدما خدماته لها ·

ولعل أهم ما يعنينا من نشاط « ذيفو » فى هذه الفترة هو اصداره لجريدة « ريفيو » وهى دورية سياسية أدبيـــة كانت تصدر مرتين فى الأسبوع وكان ديفو يكتب معظم مادتها بنفسه ، وتعد أول جريدة مهمة ناجحة فى ذلك الوقت · ويتفق النقاد جميعا على ان ديفو قد لعب دورا مهما فى ارساء قواعد الصحافة الانجليزية الحديثة وانه اكتشف معظم أدواتهـا فأصبح بذلك « أبا للصحافة » كما أصبح « أبا للرواية » · فقد جعل من اللغة الانجليزية أداة ســـهلة طيعة لنقل الخبر ونشر الآراء واقناع القارىء والتأثير عليه وذلك عن طريق استخدام أسلوب بسيط ، والتخلص من المحسنات اللفظية التى كانت تثقل اسلوب الكتابة · وهو بذلك لم يخدم الصحافة فحسب ولكنـــه أعد الطريق لمولد الرواية التى أصبح الاسلوب السهل المعبر هو الذى يعتمد على الدقة والصدق ركنا من أهم أركانها · هذا بالرغم مما يتهمه به معاصروه من رواد المدرســة الكلاسيكية التقليدية من سوقية وجهله بأصول الكتابة واهمال للجمال · كذلك فقد عمل من ناحية أخرى على توسيع قاعدة القراء من أبناء الطبقة المتوسطة الذين لم يتلقوا تعليما كلاسيكيا بتقديمه نـوعا من الكتـابة يمكنهم فهمه والاستمتاع به ·

وهكذا نرى ان هذه الأعمال الصحفية والسياسية قد ساعدت فى اعداد « ديفو » لعمله الأهم والأبقى وهو كتابة الأعمال الروائيـــة التى خلدت اســـمه · فقد علمته الى جانب ذلك كيف يقنع قراءه بصـــحة حقائقه وأخباره كما أكسبته تلك القدرة على اختراع التفاصيل المكانية والزمانية الدقيقة واستخدام ما وصف « بالكذب الذى يشبه الصدق » كما سنرى بوضوح فى « روبنسون كروزو » ·

★ ★ ★

اعمال ديفو الروائية

أما هذه الأعمال الروائية فكتبها في الفترة الواقعة بين عام ١٧١٥ وعام ١٧٣١ بعد ان انتقل الى ستوك نيونجتون حيث قضى بقية أيام حيـــاته ٠

وكانت « روبنسون كروزو » أول هذه الأعمـــال وأغراه نجاحها السريع ، فقد صدر منها أربع طبعات فى مدى أربعة أشهر ، على كتابة جزء ثان مكمل لهـــا أســـماه « مغـــامرات أخرى لروبنســـون كروزو » لم يصب ، على عادة مثل هـــذه الأجزاء المكملة كثيرا من النجاح ، ولكنه اتبعه فيما بعد بجزء ثالث أسماه « تأملات جديدة فى حياة روبنســـون كروزو » لم يكن حظه فى ذلك خيرا من حظ سابقه ٠ وتوالت بعد ذلك أعماله الروائية الأخرى التى حجب نجاح « روبنسون كروزو » كثيرا من قيمتها وأهميتها ، اذ يستحق بعضها على الأقل من العنـــاية والتقدير أكثر مما يناله فعلا من ذلك ٠ وأهم هذه الأعمال هى :

- « حياة كابتن سنجلتون » و « تاريخ حياة ومغامرات السيد دنكان كامبل » سنة ١٧٢٠ ٠
- « مول فلاندرز » و « تاريخ سنة الطاعون » سنة ١٧٢٢ ٠
- « حياة الكولونيل جاك » سنة ١٧٢٣ ٠
- « مذكرات فارس » و « روكسانا » سنة ١٧٢٤ ٠
- « رحلة جديدة حول العالم » سنة ١٧٢٥ ٠
- « حياة كابتن جورج كالتون » سنة ١٧٢٨ ٠

وتعتبر الآن « مول فلاندرز » و « تاريـــخ ســـنة الطـــاعون » و « روكسانا » أهمها ٠ ويذهب كثير من النقاد الى ان « مول فلاندرز » احدى روائع الأدب الانجليزى الروائية على الاطلاق ٠

ومن العوامل التى ساعدت على نجاح هذه الأعمال من ناحية وقيام فن الرواية من ناحية أخرى اشباع ديفو لرغبة القراء الذين ينتمون فى الغالبية العظمى الى الطبقة المتوســطة فى القراءة عن أنفســهم أو من يشبههم من الناس واهتمامه بالناحية الخلقية واقناع القارىء المهتم بهذه الناحية بأن للقصة هدفا حقيقيا ٠

مغامرات كروزو

تحكى « روبنســـون كروزو » قصة حياة رجل خاض كثيرا من المغامرات ، كان أهمها إقامته بمفرده فى جزيرة نائية مدة ثمانية وعشرين عاما وشهرين وتسعة عشر يوما · ومما ميز هذه القصة :

أولا : ان المغامرة الكبرى وهى اقامة هذا الرجل بمفرده فى تلك الجزيرة لا تقدم على انها موضوع القصة ، بل على انها احدى المغامرات الكثيرة التى خاضها ·

ثانيا : انه طيلة تلك القصة ، وبالرغـــم مما احتوته من غـرائب واحداث مثيرة فان التركيز يبدو واقعا على شخصية البطل نفســه وعلى سلوكه وأفكاره ومشاعره تحت تلك الظروف القاسية التى يجد نفســـه فيها · أما هذا البطل فهو شخص واقعى من أواســـط الناس لا يميزه سوى جده وجلده واعتماده على النفس وهى صفات يشاركه فيها كثير من أبناء طبقته ·

فاذا ما تذكرنا أن « ديفو » قد زعم فى مقدمة كتابه انه يقدم وقائع حقيقية لا دخل للخيال فيها أدركنا لماذا تعين عليه ان يقنعنا بواقعية قصته قبل أن يلقى بنا فى سلسلة الأحداث و « المغامرات الغريبة المدهشة » التى يشير إليها عنوان القصـــة · لذا يبدأ الكتـــاب بتثبيت شـــخصية روبنسون كروزو فى عالم الواقع عن طريق حشد عدد كبير من التفاصيل الدقيقة التى توحى بجو من الواقعية والصدق ، وكأني به فى ســـبيل اقناع القارىء بكذبته الكبرى يسوق أولا عددا من الكذبات الصغيرة ان يتقبلها القارىء دون جهد أو شك لأنها تبدو كالصدق ·

وتوكيدا لذلك الجو من الصدق والواقعية يستخدم الكاتب طريقة ضمير المتكلم لسرد القصة أى أنه يضعها فى شكل الترجمة الذاتية التى تقوم فيها الشخصية الرئيسية بدور الراوى فتكتسب بذلك قدرة أكبر على اكتساب ثقة القارىء واقناعه بصدقها · فلنر اذن كيف يقدم كروزو نفسه للقارىء :

« لقد ولدت فى مدينـــة يورك فى عـــام ١٦٣٢ من أسرة طيبـــة ، وان لم تكن من أهل هذا البلد ، فان والدى أصلا من أهل بريمن ولكنه

انتقل الى « هل » أولا حيث كون لنفسه ثروة عن طريق التجارة ثم ترك تجارته وعاش بعد ذلك في يورك ـ وهناك تزوج من أمي التي كان يدعى أهلها روبنسون وهم أسرة طيبة جدا في هذا البلد ، وعنهم أخذت اسمي روبنســون كروتزنر • ولكن نتيجــة لما يحدث من تحريف للكلمات في انجلترا فنحن نسمي الآن ، أو على الأصح نسمى أنفسنا ونكتب اســمنا « كروزو » وهكذا يسميني رفاقي دائما •

« وكان لى أخوان أكبر مني سنا • كان احدهما مقــدما في فرقة انجليزية في هولندا تحت قيادة العقيد المعروف لوكهارت ، وقتل في المعركة التي وقعت قرب دنكرك ضد الاسبان • أما أخي الثاني فلم أعرف مطلقا ما حدث له تماما كما لم يعرف والدي ما حدث لي أنا ! » •

وهكذا ينسب الكاتب بطله لأسرة وأبوين واخوة موردا أثناء ذلك بعض التفاصيل الواقعية ، قبل ان ينتقل ليعرفنا بالبطل نفسه •

« ولكوني الابن الثالث لأسرتي ولأني لم أتعلم اية حــرفة فقد بدأ رأسي يمتلئ منذ وقت مبكر بأفكار السفر والتجول • وكان والدي ـ الذي كان مسنا جدا ـ قد كفل لي قدرا كافيـــا من التعليم أي بالقدر الذي يمنحه التعليم في المنزل أو في مدرسة ريفية مجانيـــة عادة ، وقرر ان أعمل بالقانون • ولكن لم أكن لأرضى بغير حياة البحر بديلا ، ولذا فقد دفعني ميلي لهذه الحياة لأعرض عن توسلات أمي وأهلي ومحاولاتهم لاقناعي بالرجوع عن ذلك ، لدرجة كان يبدو معها أن هناك أمرا مقدرا في هذا الميل الطبيعي الذي يدفعني مباشرة لحياة الشقاء التي كانت تنتظرني »•

ثم ينتقل الكاتب تدريجيا الى الظروف التي أحاطت بأول رحــلة لهذا الفتى والتي ارتبطت في ذهنه بعصيانه لوالديه وخشيته من غضب السماء وما قد تنزله به من عقاب • فهو يخبرنا أولا كيف حاول والده أن يثنيه عن عزمه مبينا له ان لا حاجة به للسفر والمغامرة في ســبيل المــال ، اذ يمكنه أن يحيــا حيــاة رغــدة دون أن يترك بيته وأهله ، وموضحا له مزايا الحياة الوسطى وانها خير من الفقر الشديد كمــا أنها خير من الثروة الطائلة • وجدير بالملاحظة ان روبنسون كروزو يقرر منذ البداية أن الدافع للسفر والتجول لم يكن مجرد الميل الى التنقل ورؤية العالم ، بل هو السعي وراء الثروة والربح وتحسين المركز •

وينصت كروزو الى نصيحة والده أول الأمر ولكن ما يلبث أن يعاوده الحنين الى البحر فيذهب الى والدته راجيا اياها التوسط له لدى والده ولكنها ترفض ذلك مؤكدة له ان والده لن يسمح له بالسفر ولن يبارك

حطته مهما يكن من أمر · ثم هي تبدى عجبها لمعاودة ابنها الكرة بعد ما كان بينه وبين والده من حديث ابوى رفيق · ويفقد كروزو الأمل فى موافقة والديه فيترك التفكير في الأمر فترة من الوقت ، ولكن تغلبه الرغبة الجامحة الى المغامرة فى النهاية فيذهب لايلوى على شيء هذا بالرغم من ادراكه لخطئه وتخوفه من نتيجته · وهاهو ذا يصف بدء حياته الحافلة بالمغامرات :

« ولم أفلت الا بعد سنة تقريبا من ذلك الوقت · ولو انى طيلة هذا الوقت لم أكف عن رفض أيه مقترحات بشأن اشتغالى بأى عمل · وكثيرا ما كنت ألوم والدي والدتى لاصرارهما الشديد على رفض ما كانا يعلمان أن ميولى تمليه على · ولكني عندما كنت يوما فى « هل » حيث ذهبت عرضا ودون نية للهرب فى تلك المرة ، فقد حدث أن كان أحد أصدقائى على وشك الابحار الى لندن فى سفينة والده وعرض على الذهاب معه مستخدما لاغرائى تلك الكلمات المعروفة للبحارة وهى أن الرحلة لن تكلفنى شيئا · فلم أستشر أبا أو أما مرة أخرى ، ولم أبعث لهما بكلمة عن الأمر ، بل تركتهما ليسمعا به كيفما اتفق ، ودون أن أطلب بركة الله أو بركة والدى ودون أى اعتبار للظروف أو النتائج · وفى ساعة « نحس » يعلم الله ، ركبت فى أول سبتمبر ١٦٥١ سفينة مصوبة نحو لندن · وانى اعتقد انه ما من مغامر حدث قد بدأت مصائبه بسرعة أكثر مما بدأت مصائبى أو استمرت مدة أطول مما استمرت مصائبى · اذاما كادت السفينة تخرج من الهمبر حتى أخذت الرياح تهب والأمواج ترتفع بطريقة مخيفة للغاية · ولما كنت أبحر لأول مرة فقد أصابنى الدوار والفزع بشكل لايعبر عنه · وبدأت الآن جديا فى التفكير فيما فعلت وكيف نزل بى قصاص السماء العادل نتيجة لخطئى الفادح فى تركى لبيت والدى والهرب من جانبى · وتذكرت الآن نصيحة والدى القيمة ، ودموع والدى وتوسلات والدتى ، ولامنى ضميرى الذى لم يكن بعد قد بلغ تلك الدرجة من التحجر التى بلغها فيما بعد · لامنى لاحتقارى النصيحة واهمالى لواجبى نحو الله ونحو والدى » ·

وكأنما تعبر هذه الفقرة مقدما عما سيلحق بكروزو نتيجة لفعلته هذه بحيث نشعر عندما نجده فى « جزيرة الأسى » بمفرده فيما بعد ان ذلك كان متوقعا · ونلاحظ هنا بوجه خاص انزعاج كروزو وتفكيره فى خطئه وشعوره بالاثم · ويلاحقه هذا الشعور بالاثم طيلة مغامراته ويقوده تدريجيا عندما يدرك مدى عناية الله به الى علاقة أقرب وأوثق بالله · ويمثل هذا الشعور أحد الجانبين المهمين فى شخصيته ، فهو انسان واقعى يسعى الى الثروة من ناحية وانسان دين من ناحية أخرى · أما فى

بادىء الأمر فان تدينه لايعدو ان يكون عادة أو أمرا آليا ، أما بعد أن يمر بتجربته القاسية فانه يدرك ان يد الله وراء كثير مما يحل به من احداث فيركع ساجدا لله شاكرا له عنايته به ، وتتغير نظرته الى الدين فيشعر بوجود الله شعورا قويا مختلفا ، ويصبح الدين علاقة حية بينه وبين خالقه • ولعلنا نرى هنا أثر تربية ديفو نفسه الدينية •

فاذا عدنا الى أحداث الرواية وجدنا أن تلك العاصفة التى تغرق اول سفينة يركبها كروزو ليست سوى الاولى في حياته تتبعها ثانية وثالثة نتيجة لتصميم هذا الشاب الغر على متابعة مغامراته دون أى اعتبار جدى لتلك التحذيرات التى كانت تبدو له جلية واضحة كلما شعر بخطر البحر ثم تضاءلت أهميتها وتخف حدة تأثره بها بعد زوال الخطر ومرور قليل من الوقت ، ففى كل مرة يتعرض فيها للخطر كان ينذر ان يعود الى أهله طالبا الصفح والغفران اذا كتبت له النجاة ، ولكنه سرعان ما كان ينسى ذلك ويعاود الكرة المرة بعد الأخرى •

ولعل من سوء طالعه أن رحلته الثانية التى قام بها تجاه ساحل افريقيا كانت ناجحة مربحة ، فأغرته بالقيام برحلة أخرى الى جزر كنارى كانت نتيجتها ان وقع فى أيدى جماعة من القرصان وبيع كعبد ، ولكنه تمكن أخيرا من الهرب باستيلائه على قارب سيده الذى كان يرسله فيه أحيانا للصيد ، ساعده فى ذلك خادم صغير يسمى أجزورى • ويقضى كروزو فترة من الزمن فى هذا القارب ملازما ساحل أفريقيا الى ان تلتقطه سفينة برتغالية هو وخادمه الصغير وكل ما يحمل من متاع الى البرازيل • وهنا يعرض كروزو على ربان السفينة كل ما يملك لقاء انقاذ حياته ولكن هذا يرفض ذلك محتجا بأنه لم ينقذ حياته من الهلاك فى البحر ليتركه يهلك جوعا على البر فى بلاد غريبة ، ولكنه يطلب منه أن يبيعه قاربا وخادمه وبعض الأشياء الأخرى التى يرغب فى الاستغناء عنها فيفعل ذلك شاكرا • وهنا نلاحظ أن كروزو لم يتردد كثيرا فى بيع خادمه الصغير الأمين ولا يلوم نفسه حقا الا عندما يشعر بالحاجة الى خادم آخر حين تستقر به الأمور فى البرازيل ويشترى مزرعة وتأخذ زراعته فى الاتساع• فهنا فقط يتذكر أجزورى وكيف باعه ويحزن لذلك ، ولكنه سرعان ما يبرر عمله قائلا : انه لم يكن بوسعه أن يرفض للربان طلبا •

وهنا نرى احدى صفات كروزو المميزة فهو لايفتأ يحلل أعماله ويناقشها ويحاول تبريرها أمام نفسه • وما ذلك فى الواقع الا وسيلة من وسائل بناء الشخصية التى يستخدمها « ديفو » • فهو لا يكتفى بتقديم صورة مفصلة لما يقع لكروزو من أحداث وما يقوم به من أعمال ولكنه

يكشف لنا عما يدور بخاطره من أفكار وأحاسيس وان لم يبلغ ديفو فيذلك درجة كبيرة بالمقـارنة بمن تبعه من الروائيين ، الا أنه قد خطـا الخطوة الأولى في هذا المضمار • فعمل على توضيح ملامح شخصيته وتعميق أبعادها بحيث يمكننا القول بأن موضوع العمل القصصي لم يعد المغامرات فحسب، بل أصبح الشخصية أو الشخصيات وهو ما يتفق النقاد على أنه الركن الرئيسي للرواية التى تهدف كفن لتصوير الحياة الانسانية • فما الأحداث سوى العوامل والملابسات التى تبرز الشخصية وتكشف عن معالمهـا • فاذا أردنا مثلا لذلك فلنستمع لكروزو مرة أخرى بعد أن اتسعت مزارعه بالبرازيل وأخذ يلوم نفسه لتفريطه فى الصبى أجزورى لنعلم الى أى مدى هو دائم اللوم لنفسه ، دائم التطلع لشىء آخر :

« ولكن وا أسفاه ! فما من غرابة فى أن أخطىء أنا الذى لا أصيب أبدا • ولكن ما من علاج للموقف سوى أن أستمر ، فهأنذا قد اتخذت لى عملا بعيدا كل البعد عن ميولى ومضادا تماما للحياة التى تدخل البهجة الى نفسى والتى من أجلها تركت بيت أبى ورميت بنصيحته عرض الحائط• نعم ، فهأنذا مقبل على ذلك المركز المتوسط أو الدرجة العليا من الحياة الدنيا التى نصحنى بها والدى من قبل ، والتى اذا ما قررت قبولها لكنت الآن فى بيتى وما كنت تكبدت فى الدنيـــا مـــن المتاعب ما تكبـدت • وكثيرا ما كنت أقول لنفسى لقد كان بوسعى ان أفعل تمـاما فى انجلترا وبين أهلى ما ذهبت ٥٠٠٠ ميل بعيدا لأفعله بين الأجانب والمتوحشين فى هذا الفقر وعلى مثل هذه المسافة التى لايمكن عندها سماع أية أخبار من اى جزء من العالم يعرف عنى شيئا » •

« وهكذا كنت أنظر الى حالتى باسف شديد • فلم يكن هناك من أتحدث معه سوى هذا الجار من وقت لآخر • ولم يكن هناك من عمـــل أقوم به غير العمل اليدوى وكنت أقول لنفسى انى أعيش تماما كانسان ملقى به بعيدا فى جزيرة قفراء بمفرده • ولكن كم هو من العدل وكم يجب أن يفكر الناس انهم عندما يقارنون ظروفهم الراهنـة بظروف اخـــرى أسوأ ، فان السماء قد تجبرهم على تغيير تلك الظروف حتى يتأكدوا عن طريق تجربتهم الشخصية من سعادة ظروفهم السابقة • وانى أكرر انه لمن العدل أن الحيـاة الانفرادية الحقة التى تصورتها فى جزيرة قفراء قد آل اليها مصيرى أنا الذى قارنتها ظلما بالحياة التى كنت أحياها حينذاك والتى اذا ما اســـتمررت بها لأصبحت على أغلب الظن ناجحـــا جـــدا وغنيا جدا » •

ويتضح ذلك الميل الى السفر والتجول مرة أخـــرى عنـدما يترك « ديفو » مزارعه الناجحة ويواصل مغامراته • ذلك أنه نظرا لحاجتــه

وبعض جيرانه من المزارعين للخدم ونظرا لما كان كروزو قد ذكره لهم عن وجود كثير من السود الذين يمكن استحضارهم من افريقيا واستخدامهم فى مثل هذه الأعمال فان بعض هؤلاء المزارعين يعرضون عليه ان يعدوا له سفينة ليذهب لاحضار بعض هؤلاء العبيد على ان يقوموا هم بدفع نفقات الرحلة والاشراف على مزارعه أثناء غيابه · وبعد تردد قليل يوافق كروزو على مقترحاتهم · فيقضى بذلك على كل ما كان ينتظره من استقرار وثروة · ولكنه يدرك تماما انه كان بارادته سبب كل ما أصابه من شقاء « فكل هذه المصائب والاخفاقات كانت نتيجة لتمسكى الواضح العنيد بميلى الأحمق للتنقل فى الخارج ولمتابعة ذلك الميل معارضا بذلك أوضح الأمور لمصلحتى ولتحقيق بوادر الحياة الناجحة التى اتفقت الطبيعة والسماء على منحها لى وجعلها من واجبى » ·

وهكذا يصل بنا « ديفو » الى أهم حدث فى القصة وهو تحطم سفينة كروزو فى عاصفة عاتية ونجاته بمفرده ليقضى الجزء الأكبر من ٢٨ عاما فى جزيرة خالية من السكان بعيدا عن طرق الملاحة المعروفة · ومرة أخرى يؤكد لنا كروزو مسئوليته عما حدث له ويشير الى ان رحلته هذه قد بدأت فى اليوم الأول من سبتمبر ١٦٥٩ وهو نفس اليوم الذى ترك فيه أبويه ليذهب الى « هل » قبل ذلك التاريخ بثمانى سنوات ·

ومما يلاحظ اهتمام ديفو بالتـواريخ فى هـذه القصة · فكروزو يذكر تاريخ كل حادث مهم فى حياته ويربطه بغيره ليستنتج من ذلك ان هناك أكثر من عامل الصدفة وراءها ، هذا من ناحية · أما من الناحية الأخرى فان هذه الدقة فى تحديد الأزمنة هى أحد أوجه الأسلوب الذى يستخدمه ديفو ويعتمد فيه على التفاصيل الدقيقة المحسوسة التى تساعد فى مجموعها على خلق جو من الواقعية والصدق حول ما يبدو فى القصة من مستحيلات ، ومن أمثلة ذلك ان كروزو عندما يكتشف انه نجا من الموت بأعجوبة وانه الوحيد الذى نجا فانه يخبرنا ببساطة لاتترك فرصة للشك وان كانت تدعو للعجب والأسى : « أما عن الباقين فلم أرهم قط بعد ذلك ولا أى أثر لهم ، فيما عدا ثلاث قبعات · وغطاء للرأس وفردتى حذاء مختلفتين » أو عندما يدرك أن هذه النجاة انما هى نجاة مخيفة ، فملابسه مبللة وليس لديه غيرها ليبدلها وليس لديه ما يأكله أو يشربه وليس لديه سلاح يصطاد به شيئا يقتات به أو يدافع به عن نفسه ضد أى مخلوق قد يرغب فى ان يتغذى به : « فبالاختصار ، لم يكن معى سـوى سكين وغليون وقليل من التبغ فى علبة » هذا بينما الوقت مساء والليل على الأبواب · كل هذه التفاصيل الملموسة تساعد على تصوير الأحداث

وتعاون القارىء على « أن يمارس عن رضى ايقاف ميله لعدم التصديق » كما يقول كوليردج ٠

وينجح ديفـو فى اثارة اهتمـام القـارىء لهذا الموقف عن طريق الوصف الدقيق المفصل لكل ما يقوم به كروزو من أعمال وما يدور بخاطره من أفكار واحساسات مبديا عبقرية نادرة فى التفكير فى كل ما يمكن أن يعن للمرء من تفاصيل مهمة تخدم هدفه ٠

اما كروزو فسرعان ما يواجه الموقف ، بعد نوم ليلة هادئة فى أعلى شجرة كبيرة ، بواقعية وشجاعة ، فما يكاد يلمح السفينة التى ظنهـا قد غرقت مرتطمة بالصخور على مقربة من المكان الذى ألقت به الأمواج حتى يسرع اليها وينقل منها كل ما يمكن وكل ما يحسب انه سيحتاج اليه فى اقامته التى يتصور مقدما انها ستكون اقامة طويلة قاسـية ، مبتدئا بالأهم فالأقل أهميه ، ويعرفنا بدقته المميزة انه ذهب الى السفينة أحد عشر مرة أثناء الثلاثة عشر يوما التى بقيتها السفينـة على الصخور قبل أن يبتلعها اليم ٠ ثم ينتقل لوصف احياره للمكان المناسب لاقامة مسكن له ذاكرا كل الاعتبارات التى كان عليه مراعاتها وكيف عمل على المحافظة على سلامة « بضـائعه » من التلف ، ثم كيف نظم أوقاته بحيث جعل للعمل وقتا وللراحة وقتا وللصيد وقتا وللعمل بمكان اقامته وقتا آخر ، ثم كيف بدأ بصناعة أدوات بسيطة وتدرج منها الى صناعة أدوات أخرى أكثر تعقيدا ثم كيف استأنس بعض الماعز وأعـد الأرض لزراعة بعض الحبوب وكيف حصن مسكنه وأقام حوله سياجا من الأشجار ثم كيف نقل بعض ممتلكاته الى كهف بعيد خوفا عليهـا من الأمطار وخشية أن يدهم مسكنه خطر مفاجىء فيفقد كل شىء ٠

وينجح ديفو فى اقناع القارىء بحقيقة مهمة هى مرور الزمن ، وهو عامل مهم لاقناعه بحقيقة قضاء كروزو لكل هذا الوقت فى تلك الجزيرة ٠ ويفعل ذلك فى بادىء الأمر عن طريق المذكرات اليومية التى يدونهـا كروزو ولكن سرعان ما يستهلك كل ما وجده فى السفينة من مداد ولا يجد وسيلة لصنع غيره ٠ ولذا فهو يعتمد أساسا على وسائل أقل آلية من ذلك ، فيوحي للقارىء بمرور الزمن عن طريق غير مباشر بالاشـارة الى تكاثر قطيع الماعز الذي استأنسه مثلا ، أو الى تزايد عدد القطط التى توالدت من قطتين انقذهما من السفينة حتى اضطر الى قتـل معظمها ، أو الى تعلم ببغاء استأنسه وحاول تعليمه بضع كلمات حتى صار قادرا على تكرار بعض الجمل بكل وضوح ، أو الى زيادة محصول القمح والأرز الذى يبدأ ببضع سنابل نمت من بضع حبات ألقى بها عفوا عند نفض

كيس كان يحوى بعض المواد الغذائية التي أحضرها من السفينة ، وتزايدت مع السنوات حتى اصبحت كافيه لان يصنع منها ما يكفيه من الخبز الذى حرم منه لعدة سنوات ، أو الي تكاثف الشجيرات التي غرسها حول مسكنه حتى أصبحت سدا منيعا يستحيل اختراقه دون تسلق احدى الأشجار أو اقتلاعها • كما يشير أيضا الى عدد الأيام أو الأسابيع أو السنوات التى تستلزمها صناعة شيء معين ، فصناعة منضدة مثلا تستغرق أسابيع بينما يستغرق حرث مساحة من الأرض بأدواته البدائية شهورا ، أما قطع شجرة واعدادها وصنع قارب منها فيستلزم سنوات • ويبدو كروزو شديد الاهتمام بالزمن بالرغم من وحدته وتشابه الأيام وعدم توقعه حدوث أمر جديد • ولكنه يخبرنا من بادىء الامر انه قام بحساب السنوات التى قضاها فى الجزيرة وانه كان يحتفل سنويا بذكرى مجيئه اليها بالصلاة وتقديم الشكر لله ، كما يخبرنا فى مكان آخر من القصة ان حسابه كان دقيقا لدرجة أنه عندما عاد الى العالم الخارجى وجد انه لم يخطىء سوى فى يوم واحد يرجع انه نامه بأكمله أثناء فترة مرض ، ونتيجة لتناوله جرعة كبيرة من التبغ على سبيل الدواء •

ويظهر ديفو براعة فائقة فى سرد قصته بحيث يحتفظ بانتباه القارىء وتشوقه فروبنسون كروزو يملأ بنشاطه وسعة حيلته الأيام المتتالية بالأعمال المختلفة التى تتفاوت بين صنع رداء من جلد الحيوان الى صنع غليون من الطين الى محاولة جريئة لاستكشاف سواحل الجزيرة•

وهكذا تمضى الحياة آمنة مستقرة بوجه عام وان كانت لاتخلو من مفاجآت وصعوبات ومخاطر يقابلها جميعا كروزو بشجاعة وصبر ، الى ان يحدث يوما ما يفزع هذا البطل ويُقض مضجعه بحق • ولنتركه يصف لنا هذا الحدث فى فقرة من أشهر فقرات الكتاب :

« حدث ذات يوم حوالى الظهر وأنا متجه نحو القارب أن هالنى على الشاطىء أثر قدم رجل عارية ، يمكن رؤيتها بوضوح على الرمل • فوقفت كشخص أصابه قصف الرعد أو كما لو كنت قد رأيت شبحا ، وأنصت وتلفت حولى ولكنى لم أسمع شيئا ولم أر شيئا ، وصعدت الى ربوة مرتفعة لأرى لمسافة أبعد وسرت على الشاطىء جيئة وذهابا ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئا ، فلم أر أى أثر آخر غير ذلك الأثر • فذهبت اليه مرة أخرى•لأرى هل هناك آثار أخرى ولمعرفة ما اذا كنت قد تخيلت ذلك الأثر • ولكن لم يكن هناك مجال لذلك فقد كان هناك بالضبط ودون أدنى شك أثر قدم وأصابع وكعب وكل جزء من قدم • أما كيف جاءت الى هناك فلم أعرف ولا كان يمكننى ان أتصور ذلك على الاطلاق • ولكن بعد

ان تنازعتنى افكار شتى وكنت مثل رجل مضطرب وفى غير وعيه تماما عدت للمنزل الى حصنى وانا لا أحس كما يقال بالأرض التى أمشى عليها ، بل كنت فى غاية الفزع ، أتلفت خلفى كل خطوتين أو ثلاثة وأتوهم كل شجرة أو شجيرة أو جذع شجرة على بعد رجلا • غير انه من المستحيل ان أصف كيف صور لى الخيال المنزعج أشياء كثيرة ولا كم من الأفكار الغريبة قد وجدت طريقها الى ذهنى طيلة الطريق •

« أما عندما جئت الى حصنى ، فهكذا أظننى قد سميته منذ ذلك الوقت فقد هربت الى داخله كشخص مطارد — وسواء كنت قد صعدت السلم كما كنت أفعل أولا أو دخلت من الفتحة التى فى الصخر والتى كنت أسميها بابا فلا أذكر ، لا ، ولا كان بوسعى أن أتذكر فى الصباح التالى ، فما من أرنب فزع قد هرب الى مخبئه أو ثعلب الى جحره وهو أكثر اضطرابا مما جريت أنا الى هذا المخبأ » •

وهكذا يتابع القارىء كروزو بقلب واجف الى ان يكتشف معه ان جماعة من المتوحشين يؤمون الجانب الآخر من الجزيرة من وقت لآخر لاقامة احتفال يلتهمون فيه ما يحضرون من الأسرى ثم يذهبون تاركين وراءهم آثار فعلتهم البشعة • ويضطرب كروزو ويقسم ان يعاقب أولئك المتوحشين ان هم حلوا بجزيرته مرة أخرى ولكن كثرة عددهم كانت تمسك يده الى ان حانت الفرصة فأنقذ من بين أيديهم أحد الأسرى واتخذه خادما له ، علمه اللغة الانجليزية ولقنه مبادىء الدين فصار خير أنيس له فى وحدته • وينقذ كروزو وخادمه « فارادى » عددا آخر من الأسرى ويشعر كروزو وكأنه أصبح ملكا لرعية صغيرة تعاونه وتأتمر بأمره فيفكر جديا فى محاولة للوصول الى شاطىء القارة الأمريكية التى يأتى منها هؤلاء المتوحشون ، الا أن سفينة انجليزية تعرج على جزيرته عرضا ، ويدرك كروزو أن بعض بحارتها قد خرجوا عن طاعة ربانهم وحاولوا الاستيلاء على السفينة وترك الربان وبعض رجاله على الجزيرة ، فينقذه هو ورجاله من بين أيديهم ويسترجع له سفينته ، فيحمله هذا معه وخادمه الى انجلترا بعد ان يكون قضى فى الجزيرة ثمانى وعشرين سنة وبعيدا عن وطنه خمسة وثلاثين عاما كاملة • ويعود كروزو ليجد نفسه غريبا فى وطنه فقد توفى والداه وتفرقت أسرته ، ولكنه يجد نفسه ثريا جدا فقد درت مزارعه فى البرازيل أرباحا طائلة الا انه بالرغم مما حقق من ثراء وما قد قاسى من أهوال فانه يعود للسفر مرة أخرى مدفوعا كما يخبرنا فى الجزء الثانى من رحلاته ، لا بحب المال فحسب كما يتضح لنا الآن ، ولكن بتلك الرغبة الملحة فى السفر والترحال •

تلك اذن هي قصة كروزو التي ما زالت تثير الخيال وتجتذب القراء من جميع الأجناس والأعمار ، فما سر عظمتها ؟ وما سر خلودها ؟ والى أى مدى أثرت فيما تلاها من أعمال ؟

سر الخلود

لقد كتب « روسو » يقول : « ان (روبنسون كروزو) هو الكتاب الوحيد الذى يمكن ان يعلم كل ما يمكن أن تعلمه الكتب » • وأضاف أن اميل « سيقرأ هذا الكتاب قبل أن يقرأ أى كتاب آخر وأنه سيبقى الكتاب الوحيد فى مكتبته لمدة طويلة ، كما سيشغل دواما مكانا فى الصدارة » •

أما اذا أردنا حكما أكثر موضوعية فلنستطلع آراء بعض كبار نقاد الرواية • يشير « والتر الين » الى نقطة مهمة عندما يقول « ان ديفو يضع التركيز طيلة الوقت لا على الجزيرة أو على الأخطار التى تحيط البطل ، بل على كروزو نفسه كرجل •• ان كروزو هو الذى يملأ الصورة وهو يفعل ذلك بصفاته البطولية حقا ، كرجل يسود الطبيعة » • ثم يضيف ان كروزو أول ممثل لنفردية ولكنه يقنعنا بفرديته لأنه لا يختلف عن غيره من الناس ويذكرنا بقول « كوليردج » الشاعر الانجليزى المعروف من « أن كروزو لم يبلغ درجة فائقة من المهارة فى كل ما فعله ، فهو يجيد النجارة والخياطة وصناعة الآنية الفخارية بالقدر الذى يسد حاجاته فقط •• فهو يبلغ الدرجة التى يشعر جميع الناس انهم يستطيعون بلوغها » ولعل هذا هو سر اجتذابه للقراء ، فهو كما يقول كوليردج أيضا « يمثل العالم بأجمعه • فهو الشخص الذى يمكن لكل قارىء أن يضع نفسه مكانه » • وبالرغم من انه يمثل كلا منا الا أنه صنع المعجزات وتمكن بمفرده دون أدنى معونة أن يتحكم فى ظروفه وينتصر على الطبيعة •

أما النقطة المهمة الثانية فهى أن ديفو استطاع أن يجعل من شخصية كروزو شخصية مقنعة فنيا • وهنا أيضا يتفق النقاد على انها شخصية كاملة بشكل واضح هذا علما بأن هناك مناطق بأكملها من الخبرات الانسانية التى لا تدخل فى نطاقها • ولكن ديفو قد أحسن تصوير النواحى التى تناولها لدرجة تمكننا من تصور تلك التى لم يتناولها •

وجدير بنا ان نؤكد هنا انه ليس من العدل أن نتهم ديفو ، كما يفعل البعض ، بجهله بأهمية الناحية الشكلية والفنية • فاختياره للشكل

السردى المناسب لقصته وتسخيره للترجمة الذاتية الخيالية لأغراضه ، فى الوقت الذى لم تكن فيه حتى الترجمة الذاتية الحقيقية معروفة لاكبر دليل على عبقريته . أما ابداعه فى خلق ذلك الجو من الواقعية والصدق القائم أساسا على دقة الملاحظة واختيار التفاصيل فهو ما يذكره له حميع النقاد ومؤرخى الأدب بالاعجاب والثناء .

أما أهمية « روبنسون كروزو » من الناحية التاريخية فلندلل عليها من أقوال « ايان وات » مؤلف « نشأة الرواية » . يرى وات ان نشأة الرواية مرتبطة بعاملين هامين هما ازدهـار المذهب الواقعى وانتشـار المذهب الفردى . وترجع أهمية « روبنسون كروزو » الى انها أول عمـل قصصى تتمثل فيه الفردية والواقعية خـير تمثيل . فكروزو شـخصية واقعية تختلف عن أبطال القصص الرومانسية من ناحية وشحصية تمثل الفردية الاقتصادية من ناحية أخرى .

ويذهب وات الى أن كروزو يمثل الفردية الاقتصادية أكثر من أى شىء آخر ، فحب المال هو الدافع الرئيسى لجميع أعماله لذا فان العلاقات الاجتماعية وحتى علاقته بالله تأتى فى المرتبة الثانية . أما «أرنولد كتيتل» فيقول : « ان روبنسون كروزو تعد من ناحية قصة فى امتداح الفضائل البرجوازية وهى الفردية والعمل الخاص .. أما من ناحيـة أخرى أهم فانها تشيد بضرورة الحياة الاجتماعية وكفاح الانسان عن طريق العمل لقهر الطبيعة » .

وسـواء نظرنا الى هذه القصـة من خلال هذه النظرة أو تلك فمما لاشك فيه أنها تمثل على المستوى الرمزى ناحية من أهم وأعمق وهى شعور الانسان بالوحدة الكاملة فى علاقته مع الله والوحود . ولعـل تصويرها لهذا الشعور بالوحدة التى يقاسى منها الفرد فى العالم الحديث بوجه خاص هو الذى يقربها الى نفس القارىء الحديث بالرغم مما يرى فيها من تكرار ممل واغراق فى التأملات الدينية والفلسفية التى قد تفسد عليه استمتاعه بها .

مراجع مختارة

١ ـ اصول الكتب الثلاثة عشر
٢ ـ قصة الحضارة — ول وايريل ديورانت
٣ ـ تاريخ العلم — جورج سارتون
٤ ـ العلوم عند العرب — قدرى حافظ طوقان
٥ ـ جولة عبر العلوم — ج . ن . ليونارد
٦ ـ محيط العلوم — نخبة من العلماء العرب
٧ ـ شخصيات من الأدب اليونانى — نعيم عطية
٨ ـ تاريخ الانسانية — أحمد حسين
٩ ـ المعجم الفلسفى — د . جميل صليبا
١٠ ـ دائرة معارف الشعب
١١ ـ ابن النفيس — د . بول غليونجى
١٢ ـ اعلام الفكر الأوربى من سقراط الى سارتر — هنرى توماس
١٣ ـ سقراط — د . على حافظ بهنسى
١٤ ـ تاريخ آداب اللغة العربية — جرجى زيدان
١٥ ـ أدباء العرب — بطرس البستانى
١٦ ـ مهذب الأغانى — محمد الخضرى
١٧ ـ صاحب الأغانى — د . محمد أحمد خلف الله
١٨ ـ هوميروس — د . عبد المعطى شعراوى
١٩ ـ تاريخ العالم — أوروسيوس
٢٠ ـ معالم تاريخ الانسانية — هـ . ج . ولز
٢١ ـ منهج البحث العلمى عند العرب — جلال محمد موسى
٢٢ ـ الحضارة الانسانية بين الشرق والغرب فى عشرة قرون — سامى اليافى
٢٣ ـ تاريخ العلماء عبر العصور المختلفة — الخطيب الشيخ محمد رضا الحكيمى
٢٤ ـ مناهج التاليف عند العلماء العرب — د . مصطفى الشكعة
٢٥ ـ رواد الطب — جون والتون
٢٦ ـ تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه — د . عبد الحليم منتصر

هــوامش الكتــاب

(١) هيرودوت : راجع الفصل الأول من الجزء الثانى من هذا الكتاب ٠

(٢) فن الشعر : راجع الفصل الثالث من الجزء الثانى من هذا الكتاب ٠

(٣) اكسانوفون : (٥٧٠ ـ ٤٨٠ ق٠م) فيلسوف يونانى عاش فى ايليا واسس المدرســـه الايليه ٠ دعا الى فكرة الموجود الكلى ٠ وانتقد الصـــورات الشـــائعة للآلهة الشبيهة بالبشر ٠

(٤) أساتذة جامعيون متجولون ينتقلون من بلد الى بلد يلقون سلسلة من المحاضرات وخاصة فى الخطابة وفن النجاح فى الحياة مقابل أجور يتقاضونها من طلابهم ٠ فـلم تكن لفظة السفوسطائى فى الأصل من الفاظ التحقير بأى معنى من المعانى ، وانما كانت تعنى شيئا يشبه ما تعنيه كلمة « الأستاذ » ٠

(٥) زينون : زينون الايلى (٤٩٠ ـ ٤٣٠ ق٠م) فيلسوف يونانى من المدرســـة الايلية ٠ وضع حججا يدعم بها اراء أستاذه بارمنيدس فى ثبات الوجود ووحدته المطلقة فاثبت بطلان الحركة منطقيا ٠ ولذلك سمى بمكتشف « الجدل » ٠

(٦) دلفى : معبد فى اليونان اشتهر بنبوءات معبد ابولو ٠ كانت توجد فتحة تتوسط أرض المعبد يخرج منها دخان خانق وفوق هذه الفتحة مقعد تجلس عليه كاهنة تدعى بيثيا ٠ وكان يعتقد أن الكلمات التى تتفوه بها بعد استنشاق الدخان تعبر عن رأى أبولو فى المشاكل التى تطرح عليه ٠

(٧) بركليس : (ح ٤٩٥ ـ ٤٢٩ ق٠م) سياسى اثينى ٠ نشأ محبا للفن ٠ شهدت إثينا تحت زعامته أزهى عصورها ٠

(٨) هراقليس : فيلسوف يونانى (ح ٥٣٥ ـ ٤٧٥ ق٠م)

(٩) اسكليبيوس : اله الطب فى الميثولوجيا اليونانية ٠ زعموا انه كان ابن أبولو وانه تقن فن الشفاء ٠

(١٠) باراسيلسوس : طبيب وكيميائى سويسرى ٠ زعم انه اكتشف حجر الفلاسفة وانه من أجل ذلك سوف يعمر أبد الدهر ٠

(١١) الجمهورية : انظر الفصل الثانى من الجزء الثانى من هذا الكتاب ٠

(١٢) زانتى : (زكنثوس باليونانية) وهى جزيرة تجاه ساحل جنوب اليونان فى البحر الايونى ٠

(١٣) فارسالوس : هى فارسالوس فى تسالينا ، حيث قهر يوليوس قيصر بومبيى سنة ٤٨ ق٠م٠ وهكذا أصبح سيد العالم الرومانى ٠ ولكن لامد وجيز ، اذ انه اغتيل ســـنة ٤٤ ق٠م ٠

(١٤) أتيكا : اقليم فى الجزء الشرقى من وسط بلاد اليونان كانت أثينا عاصمته

(١٥) الحكماء السبعة : اسم خلعه القدماء على سبعة من رجال ذوى حكمة علمية سياسية ومشرعين وفلاسفة للعصر ما بين ٦٢٠ و٥٠٠ ق٠م٠

(١٦) الصداقات الاربع : الصـداقة بين اخيـلوس ، وباتروكيلس ، وتيسـيوس ، وبيرثيوس ، دامون وبيثياس ، ورستيس وبيلادس ٠

(١٧) اينيوس : كوينتوس اينيوس هو شاعر الرومان العظيم (٢٣٩ ق٠م ـ ١٦٩ ق٠م) ويعد كتاب « الحوليات » اهم اعماله ٠

(١٨) الأوتار جمع : وتر بفتح الواو وكسرها وهو الانتقام والثار ٠

(١٩) الشعهر : ضرب من بنات اوى ٠

(٢٠) باب البوم والغربان ٠

(٢١) باب ايلاد وايراخت

(٢٢) باب الملك والطائر فنزه

(٢٣) باب السائح والصواغ

(٢٤) باب البوم والغربان ٠

(٢٥) باب الأسد وابن آوى ٠

(٢٦) باب الأسد وابن آوى ٠

(٢٧) باب البوم والغـربان ٠

(٢٨) باب البوم والغربان ٠

(٢٩) باب البوم والغـربان ٠

(٣٠) باب الأسد والثور ٠

(٣١) باب البوم والغربان ٠

(٣٢) باب الحمامة المطوقة ٠

(٣٣) باب الحمامة المطوقة ٠

(٣٤) باب الحمامة المطوقة ٠

(٣٥) باب الحمامة المطوقة ٠

(٣٦) باب الجرذ والسنور ٠

(٣٧) باب الملك والطائر فنزه ٠

(٣٨) باب البوم والغربان ٠

(٣٩) باب البوم والغربان ٠

(٤٠) باب الحمامة المطوقة ٠

(٤١) باب الحمامة المطوقة ٠

(٤٢) باب ابن الملك واصحابه ٠

(٤٣) سحقها : ارتفاعها

(٤٤) مالك الحزين : طائر طويل العنق والرجلين وهو المعروف بابو قردان ٠

(٤٥) حينى = هلاكى ٠

(٤٦) السنور = القط ٠

(٤٧) اللغة السنسكريتية : ومعناها اللغة التامة أو المهذبة ، لغة الهنود القديمة • اخذت فى الاضمحلال قبل الميلاد بنحو قرن فصارت كاللاتينية فى عصرنا ، يستعملها العلماء والنجاة فى تواليفهم •

(٤٨) آداب الشافعى ومناقبه لأبى محمد بن أبى حاتم الرازى المتوفى سنة ٣٢٧ ص ٢٧ ، ص ٢٨ •

(٤٩) يحيل = يحول ويغير •

(٥٠) لحب الطريق = سلكه •

(٥١) مقدمة الأغانى ص ٣٩ ، ص ٤٠ •

(٥٢) ماسينيون : لوى ماسينيون (١٨٨٣ ـ ١٩٦٢) مستشرق فرنسى تعددت رحلاته الى بلاد اسلامية كثيرة بحثا عن المخطوطات واستزادة من العلم •

(٥٣) انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ٢١٠ ـ ٢١٣ •

(٥٤) تركيم : ركم الشىء : جمعه وجعل بعضه فوق بعض •

(٥٥) نيكلسون : رينولدالين نيكلسون (١٨٦٨ ـ ١٩٤٥) مستشرق انجليزى منح التصوف الاسلامى عناية خاصة • ظهر اهتمامه بالأدبين العربى والفارسى مما خلف من آثار •

(٥٦) معجم الأدباء ١٨٢/١٧ •

(٥٧) قابوس : هو قابوس بن وشمكير الديلمى الملقب بشمس المعالى من الملوك ، وكان صاحب جرجان وطبرستان • وكان فاضلا وأديبا مترسلا وشاعرا ظريفا •

(٥٨) الاسطرلاب : كلمة يونانية أصلها الاسطرلابون • وهى مركبة من جزءين : الأول « أسطر » ومعناه النجم ، والثانى « لابون » ومعناه المرآة ، أى مرآة النجم • وقد أطلقت هذه الكلمة على عدة آلات فلكية •

(٥٩) ميطين واقطمين : من علماء اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد •

(٦٠) أرسطرخس : من علماء اليونان فى القرن الثالث قبل الميلاد •

(٦١) القيمة الحقيقية ٣٦٥٫٢٤٢٢ يوما •

(٦٢) أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفى الرازى (٩٠٣ ـ ٩٨٦ م) •

(٦٤) قطبا محور الأرض وقطبا فلك البروج (مسار الأرض حول الشمس) •

(٦٥) نتيجة لحركة الأرض حول الشمس وحركة الكواكب فى نفس الوقت تشاهده وقد سار فى مداره العادى ثم اذا به يقف عن الحركة وبعد ذلك يتراجع الى الخلف •

(٦٦) يقصد بذلك علم الفلك الحقيقى •

(٦٧) يقصد بذلك علم التنجيم •

(٦٨) مسالك الابصار فى أخبار ملوك الأمصار لشهاب الدين أحمد بن فضل العمرى •

(٦٩) العمرى : مؤرخ ولد بدمشق (١٣٠١ ـ ١٣٤٩ م) ألف فى الجغرافيا •

(٧٠) بروكلمان : مستشرق ألمانى (١٨٦٨ ـ ١٩٥٦) حقق عددا من النصوص العربية • أهم أعماله (تاريخ الأدب العربى) الذى يعد أهم مرجع فى بابه •

الفهرس الشامل
للأجزاء الثلاثة

مسلسل الكتـــاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
١٦ ـ تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق	ابن مسكويه	١٠٢١ م	٢	٥٧
١٧ ـ القانون المسعودى فى الحياة والنجوم	البيرونى	١٠٣١ م	٣	
١٨ ـ رسالة الغفران	ابى العلاء المعرى	١٠٣١ م	٢	٧٤
١٩ ـ الرباعيات	عمر الخيام	١٠٨٠ م	٢	٩٨
٢٠ ـ احياء علوم الـدين	الغزالى	١١٠٠ م	٢	١٢٠
٢١ ـ الفتوحات	ابن عربى	١٢٣٨ م	٢	١٤٠
٢٢ ـ شرح تشريح القـانون	ابن النفيس	١٢٨٠ م	٣	
٢٣ ـ المقــدمة	ابن خلدون	١٤٠٠ م	١	٩٦
٢٤ ـ الأمير	مكيافيلى	١٥١٣ م	١	١١٧
٢٥ ـ مسرحيات شكسبير	شكسبير	١٥٩٠ـ١٦١٦م	٣	
٢٦ ـ التأمـلات	ديكارت	١٦٤١ م	١	١٤٤
٢٧ ـ علم الأخلاق	اسبينوزا	١٦٧٧ م	٢	١٥٨
٢٨ ـ الف ليلة وليلة	مجهولة المؤلف	مجهولة التاريخ	٢	١٨٢

مسلسل الكتـــاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
٢٩ ـ المبـــادىء	نيوتن	١١٨٧ م	١	١٦٤
٣٠ ـ روبنسون كروزو	ديفـو	١٧١٥ م	٣	
٣١ ـ روح القوانين	مونتسكيو	١٧٤٨ م	١	١٧٨
٣٢ ـ دائرةالمعارف الكبـــرى	ديدرو	١٧٥١ م	٢	١٩٨
٣٣ ـ العقـــــد الاجتماعى	جان‌جاك‌روسو	١٧٦٢ م	٢	٢٢٨
٣٤ ـ ثروة الأمم	آدم سميث	١٧٧٦ م	١	٢٠٢
٣٥ ـ فلسفةالتاريخ	هيجل	١٨٣٢ م	٢	٢٧٢
٣٦ ـ فى التربية الجماليةللانسان	شـيلر	١٨٣٧ م	٢	٢٥٢
٣٧ ـ الكــون	هومبولت	١٨٤٥ م	٢	٣٠٤
٣٨ ـ أصل الأنواع	داروين	١٨٥٩ م	١	٢٢٤
٣٩ ـ رأس المال	كارل ماركس	١٨٦٧ م	١	٢٤٤
٤٠ ـ النظريةالنسبية	آينشتين	١٩٠٥ م	١	٢٥٩

اقرأ فى هـذه السلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطة مقـابل نقطة	الدس هكسلى ·
الجغرافيا فى مائة عام	ت · و · فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـامضة	ليستر ديل راى
الرواية الانجليزية	والتر الن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقـود	ديفيد وليام ماكدونالد
الموسيقى ـ تعبير نفسى ـ ومنطق	عزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشرف س· بى كوكس
الانسان ذلك الانسان الفريد	جون لويس
الرواية الحـديثة	بول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنور المعـداوى
القوة النفسية للاهرام	بيل شول وأدنبيت
فن الترجمـة	د· صـفاء خلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلو
سـتندال	فيكتور برومبير
رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجـو
الجزء والكل (محـاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سـيدنى هـوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف· ع ادنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د· نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د· فاضل احمد الطائى

فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
الجحيـــم	هنرى باريوسى
صنع القـــرار السياسى	السيد عليـــوة
التطور الحضـــارى للانســـان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للاطفال ؟	د٠ روجر بستروجان
تربيـــة الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا٠ سبنسر
النحـــل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحـــدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصـــحافة	بيير البيـــر
اثر الكوميديا الالهيـــة لدانتى فى الفـــن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسى قبـــل الثـــورة البلشـــفية وبعدها	د٠ رمسيس عـــوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ جـ)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين أحمد حسين
نظريات الفيلم الكبرى	تاليف : ج٠ دادلى اندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد؟	طائفة من العلماء الأمريكيين
حـــرب الفضاء	د٠ محمد أسعد عبد الرؤوف
ادارة الصراعات الدولية	د٠ السيد عليـــوة
الميكروكمبيـــوتر	د٠ مصطفى عنـــانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	أنطونى دى كرسبنى وكينيث هينوج
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياســـه	زافيلسكى ف٠س
اجهزة تكييف الهـــواء	ابراهيم القرضاوى

الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي	بيتر ٠ رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س ٠ م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د٠ عاصم محمد رزق
العـلم والطلاب والمدارس	رونالد د ٠ سمبسون
	و نورمان د ٠ اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د٠ أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت روســتو
تبسيط الكيمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل
	شاندرا ويكراما ماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتســون
صــور افريقية	دور كاس ماكلينتوك
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د٠ محمود سرى طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضــاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليـــام بينـــز
تربية أسماك الزينة	ديفيــد الدرتون
كتب غيرت الفكر الانسانى	أحمد الشنوانى
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ٠ ر ٠ بورر
	وميلتــون جــولد ينجــر
الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د٠ صــالح رضــا
التغذية فى البلدان النامية	م ٠ هـ ٠ كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جــورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	
للكــــون	د٠ السيد طه أبو سديره
حوار حول النظامين الرئيسيين	جاليـــليو جاليـــليه
الارهـــاب	اريك موريس ، الان هــو
اخنــاتون	سيريل الدريد

القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيســـتلر
التــوافق النفسى	توماس ا ٠ هاريس
الدليل الببليوجرافي	مجموعة من الباحثين
لغـــة الصـــورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العـالم الثالث غدا	بول هاريسون
	ميكائيل ألبى
الانقراض الكبير	جيمس لفلوك
تاريخ النقــود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشـاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠	جاك كرابس جونيور
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلى
العثمانيون فى أوربا	بول كونر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار واعداد صبرى الفضل
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
ســقوط المطـر	نادين جورديمر وآخرون
صناع الخلود	موريس بيربراير
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	أحمد الشنوانى
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
الكنائس القبطية (٢ ج)	الفريد ٠ ج ٠ بتلر
ترانيم زرادشت	اعداد ٠ د٠ فيليب عطية
النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد مرى
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
رحلات فارتيما	الحاج يونس المصرى
التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج	ستيفن اوزمنت
مصر الرومانية	نفتالى لويس
السينما الخياليـــة	بيتر نيكوللز
السينما العربيـــة مـــن الخليج الى المحيط	اعداد مونى براح وآخرون

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١١٣٠٧ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3628 — X